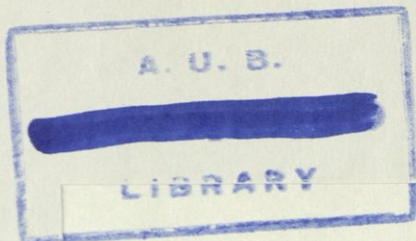




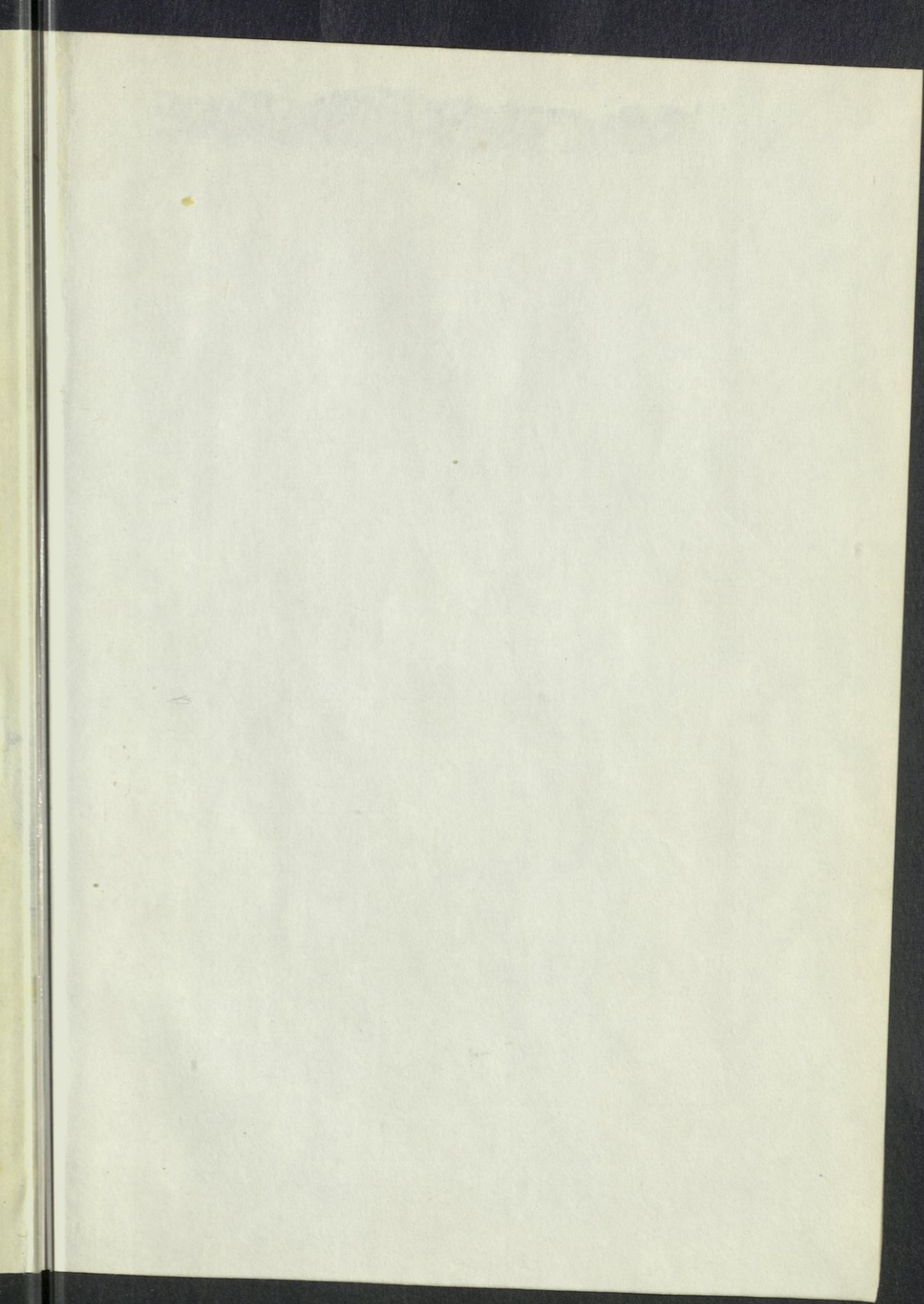
A U B LIBRARY



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A U B LIBRARY



إلى الباحث المحقق الأستاذ نغولا زيادة ، مع أسامي آيات
الاحترام من المحقق

مدير المكتبة

CA
بيروت ٤٩/١٢/٧

953 كارل بروكلمان

B.869A

v.2; c.10

تاريخ الشيعة والاسلام في

٢

الشيخ الطوسي (الشيخ) بن محمد بن أحمد

الخلافة العباسية - نشوء الدولات - الاسلام في الاندلس
وشمال إفريقيا - الحروب الصليبية - دولة المماليك

AUB faculty or
AUB related
publication

نقله الى العربية

مدير المكتبة
استاذ الادب العربي
بكلية البنات لاهلية في بيروت

الدكتور نبيه بن فارس
رئيس دائرة المتاحف
في جامعة بيروت الاميركية

والعلم للدين - بيروت

مكتبة جامعة بيروت العربية
١٩٤٩

مكتبة

١٩٤٩

مكتبة

١٩٤٩

مكتبة

مكتبة

جميع الحقوق محفوظة - لبنان ١٩٤٩
بيروت - لبنان ١٩٤٩

THE UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مكتبة

مكتبة

مكتبة

الطبعة الأولى

شباط ١٩٤٩

بيروت

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من « تاريخ الشعوب الاسلامية »
 للمستشرق الألماني الكبير الاستاذ كارل بروكلمان ، نرّفه الى قراء
 العربية ، بعد ان قدّمنا اليهم في حزيران الماضي الجزء الاول منه ،
 فلقني من إقبالهم ما زادنا اقتناعاً بحاجة المكتبة العربية الى أمثال
 هذه البحوث القيّمة في تاريخ الاسلام السياسي والحضاري .
 أما الاجزاء الثلاثة الباقية ، وتبحث في « الاتراك العثمانيين
 وحضارتهم » ، و « الاسلام في القرن التاسع عشر » ، و « الدول
 الاسلامية بعد الحرب العالمية » فسنخرجها تباعاً ، في وقت قريب ،
 وبذلك تتم للقاريء العربيّ - لأول مرّة - موسوعة تستغرق
 تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .
 والله نسأل أن يجعل جهدنا خالصاً لوجهه الكريم .

المحرران

تمت

و قيل كذا بامثال خيرة ، زه رثنا ، و الجا به انه
 ان يقرأ انة في ذن الالاء و الالاء كذا و كذا في الالاء
 دونه و الالاء و الجا و خلا ان الالاء في و جيا لثمة ناسد و قريعا
 باله ا و الجا قريعا قريعا لثمة لانه له و لثمة و لثمة
 في الظاهر و ليس و كذا و خيرة في قريعا و جيا منه
 و جيا لثمة كذا ، في شعبي ، قريعا كذا و الجا له ا
 و كذا ، و د و جيا و لثمة في و كذا ، و د و جيا لثمة
 و جيا لثمة في د لثمة لثمة و جيا لثمة و جيا لثمة
 و جيا لثمة - و جيا لثمة - و جيا لثمة لثمة
 انه لثمة و جيا لثمة و جيا لثمة و جيا لثمة
 و جيا لثمة لثمة و جيا لثمة لثمة

الاجل

الطبعة الاولى

سنة ١٢٧٩

- ٦٧ -

العباسيون - الأول

لم يُتَّخَذْ للخليفة العباسي الأول، أبي العباس عبد الله، أن يحكم غير فترة قصيرة من الزمان، ومن هنا خلد ذكره في التاريخ بوصفه - في المحل الأول - مُبِيدَ الأمويين. وإنما عُرف بالسفاح، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه في الخطبة التي القاها يوم بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة. وفي حزيران سنة ٧٥٤ خلفه أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور^١ ليكون هو المؤسس الحقيقي لسلطان بني العباس. وكان على أبي جعفر باديء الأمر أن يمكِّن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبد الله بن علي الذي هبَّ يطالب بالخلافة - وكان يقيم في شمالي سورية مع الجيش الموجه لقتال البيزنطيين - ولكنَّ أبا مسلم ما لبث أن هزمه. وقد رر على هذا المولى الأمين الذي يدين له العباسيون، قبل

(١) أصل اللقب « المنصور بالله ». والواقع أن الخلفاء العباسيين جميعاً تلقبوا في ما بعد بهذه الألقاب ذات المظهر الورع. ومن اراد التوسع في دراسة عصر المنصور فليراجع:

Nöldeke, *Orientalische Skizzen*, Berlin, 1892, pp. 112-162
(*Sketches from Eastern History*, tr. by J. S. Black, London and Edinburgh, 1892, 107-145).

كل شيء ، بقيام دولتهم ، أن يصلى وشيكاً بمجود الخليفة الجديد
وإنكاره للجميل . والحق أنه كان شديد الأدلال بالخدمات التي
أداها لبني العباس . ففي سنة ٧٥٤ كتب الى السفاح يستأذنه في
الحج ويسأله ان يوليه إقامة الموسم في الناس . ولكن السفاح
أخضعه لأمر أخيه (المنصور) . وكان أبو مسلم قد اظهر
للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرد بالأمر ؛ فكان هم المنصور
الأول أن يُبعد ابا مسلم عن خراسان ، وهي معقله ومستقر
قوته وسلطانه . وعلى الرغم من أن ابا مسلم رفض ما عرضه عليه
المنصور من الاضطلاع بأمانة مصر ، فقد سمح لنفسه بأن
يُسْتَدْرَجَ إلى العراق حيث قُتِلَ ، على عيني الخليفة ، قرب
العاصمة القديمة ، المدائن . ولقد وجد من يثار له في شخص سُنياذ
الفارسي الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغّل حتى بلاد
الجلال . وهناك بين همذان والري ، هزمته جيوش الخليفة
وقضت عليه .

إخضاع العلويين

ولعلّ العلويين كانوا ، حتى اللحظة الأخيرة ، يعلّون النفس
بأن أهل خراسان انما يعملون لمصلحتهم * ، ومن هنا لم يذعنوا ،
في الحال ، للأمر الواقع المتمثل في استيلاء ابناء عمومتهم على
السلطان . ولكنهم كانت تُعوزهم ، كما أعوزت جدّهم من قبل ،
العزيمة والحنكة السياسية . ولقد أظهروا معارضتهم للسّلالة الجديدة
في المدينة ، على الخصوص ، بوصفها المركز الرئيسي للبيت
(*) أي لمصلحة العلويين .

العلوي، وكان كثير من افراده قد تفرقوا لذلك العهد، في البلاد . فلم يكن من العامل الذي عينه المنصور على المدينة الا ان سجن عدداً كبيراً منهم ، وبث رجاله للبحث عن زعيمهم محمد ، أحد حفداء الحسن من جهة ابيه ، والحسين من جهة امه . فكان هذا العمل بالذات هو الذي عجل باندلاع الثورة .

ففي ختام سنة ٧٦٢ ثار العلويون ، واطلقوا سراح المعتقلين من ذوي قرباهم ، وحملوا الفقيه الشهير ، مالك بن أنس (صاحب المذهب المالكي المنتشر في إفريقية الشمالية كلها اليوم) على ان يحلّيهم من بين البيعة للعباسيين ، باعتبار انهم بايعوا مكرهين . وطبيعي ان يكون من اليسير على الجيش الخراساني الذي وجهه المنصور الى المدينة ، التغلب على حركة الثائرين الساذجة ، اولئك الثائرين الذين ظنوا ان في استطاعتهم ان يحموا انفسهم ، احسن الحماية ، بواسطة خندق كالذي اصطنعه الرسول . وقاوم محمد مقاومةً باسلةً قتل على اثرها ، وصدورت ممتلكات أسرته . اما المدينة نفسها فقد احسن الخليفة معاملتها بعد ان امست لانشكل اي خطر عليه .

اما ثورة العلويين بقيادة ابراهيم ، اخي محمد ، في البصرة فكانت اعظم خطراً . ولكن ابراهيم هذا كانت تعوزه المقدرة السياسية أيضاً . فعلى الرغم من أنه وفق إلى احتلال البصرة ، واستطاع بما استخلصه فيها من اموال أن يكسب ولاء فارس والسوس ، فقد رفض ان يسير الى الكوفة حيث كان المنصور مرابطاً بجيش هزيل . فما كان من قائد جند المنصور ، عيسى بن موسى ، الذي

سبق له أن أخذ الثورة في المدينة، إلا أن تقدم إلى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد، ولكن بعد قتال عنيف. واخيراً عزم إبراهيم على مهاجمة الكوفة، ولكنه قتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخمري، جنوبي الكوفة، في ١٤ شباط سنة ٧٦٣.

بناء بغداد

ولما تمّ لمنصور هذا الفوز الحاسم على العلويين جدّ في بناء عاصمة امبراطورية جديدة، كان قد اقدم على تخطيطها بعيد ارتقائه عرش الخلافة. وكان اخوه قد أنشأ لنفسه مقراً في الهاشمية، على ضفة الفرات اليسرى، غير بعيد عن الأنبار. ولكن قربها من الكوفة، هذه المدينة المتمردة التي كلفت الامويين متاعب جساماً، كان خليفاً بأن يتهدد الدولة الجديدة بالخطر، في المستقبل. وبعد أن فكر المنصور في الأمر ملياً وقع اختياره على قرية نصرانية صغيرة واقعة على الضفة اليسرى من دجلة تدعى بغداد لتكون عاصمة لامبراطوريته. وكان الاختيار ممتازاً. والحق ان المنطقة ليست مدينة بازدهارها السريع لعناية الخليفة فحسب، بل لموقعها الملائم الذي مكّنها من الاحتفاظ باهمية بالغة، حتى بعد انحلال الحضارة في العراق، بالكلية. وعلى ضفة دجلة اليسرى، شيد الخليفة، عن طريق حملة واسعة من العمل الالزامي، قصوراً لنفسه ولحاشيته، ومساجد، ودوراً للحكومة مجتذباً التجار إلى مدينته بشروط تساعدهم على الانشاء والتعمير، جالباً مواد البناء في الدرجة الأولى من مقر الساسانيين القديم، المدائن.

وانشأ المنصور في بغداد شبكة من القنوات وعقد فوقها مجسور ،
 وشيد من المنشآت المائية والتحصينات ما يسر على الناس سبيل
 العيش الأمين هناك . كذلك ضمت الى المدينة مجموعة من المناطق
 المجاورة أهمها الكرخ (من الآرامية كرخا ، وتعني المدينة) .
 وعلى الضفة اليمنى ، حيث ينهض الجزء الرئيسي من بغداد اليوم ،
 بنى المنصور ، اول الأمر ، معسكراً لابنه المهدي . وأقطع ذوي
 قرباه ومواليه وقواده الارباض المحيطة بالمدينة . ولقد أطلق على
 عاصمته اسم « دار السلام » او « مدينة السلام » ، ولكن اسمها
 القديم ظل شائعاً على السنة الناس .

الأدارة

وكانت « روح » العاصمة الجديدة تختلف ، منذ البدء ، اختلافاً
 كلياً من « روح » دمشق . فعلى الرغم من أن العرب ظلوا
 يتوافدون على بلاط المنصور ايضاً ، فالواقع أنه لم يعد في ميسورهم
 أن يقرّبوا الخليفة ، كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك ، وكأنما
 هو الاول بين عدد من الأقران . فخليفة بغداد لم يكن ، بأي
 حال ، شيخاً من شيوخ القبائل ، بل خلف ملوك الفرس الكبار .
 وفي السنوات التوالي نشأ عند خلفاء بغداد شوق الى استطلاع
 الكتب الفارسية عن اسلوب التشریفات الذي كان يتبعه الساسانيون ،
 ورغبة في محاكاته وتقليده . فلم يعد التقدم في البلاط والمكانة في
 الحكومة امتيازاً وراثياً مقصوراً على الاشراف ، بل اصبح
 الخليفة يقدم من يشاء ، ويؤخر من يشاء . وانتهت الخليفة ٢ ،

(٢) ومنها اخذت كلمة (gala)

ولم تكن معروفة زمن الأمويين، الى ان تكون آية على الخطوة عند الخلائف من بني العباس . وبيننا كان الامويون يكفون ، في اغلب الاحيان ، بحاجب يُنيطون به أمر ادخال الناس عليهم ، نجد ان عدد الحجاب والخدم في البلاط العباسي يزداد في اطراد ، ولا عمل لهم الا الحؤول بين الخليفة وافراد الشعب واقامة العقبات بينه وبينهم . والواقع ان الخلفاء العباسيين نقضوا أيديهم ، أو كادوا ، من تصريف شؤون الدولة ، ملتقن عبء ذلك على غارب الوزراء . ولكنهم تصرفوا في ما يتصل بالموت والحياة مباشرة : فقد كان الجلاد - وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد - يلازم الخليفة دائماً ، وكان النطع حاضراً ابداً ، قرب العرش ، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها .

كذلك تدين الامبراطورية العباسية للمنصور بالقواعد التي قامت عليها حكومتها . والواقع أنه احتفظ ، في الأعم الأغلب ، بنظام العمل الذي جرى عليه البيزنطيون والساسانيون ، والذي جربته الامويون من قبل . وكان يسعى ابداً إلى أن يعين على رأس كل ولاية عاملاً كفواً بارعاً . صحيح أنه لم يستطع ان ينسى آله وذوي قرباه في معرض هذا التعيين ، ولكنه مع ذلك لم يحجم ، مطلقاً ، عن رفع موابله وعتقائه إلى أسمى المناصب . وكان في ميسوره أن يراقب ، أحسن المراقبة ، الادارة في الولايات من طريق نظام البريد ، هذا النظام الذي نستطيع ان نقول إنه لم يُنشأ حقاً إلا في عهده ، بالرغم من وجوده أيام الامويين . وكان اصحاب البريد مسؤولين عن جهاز الاستعلامات كله في الحكومة ،

ولكن واجبهـم الرئيسي كان إبقاء الخليفة على اطلاع دائم بمسالك عماله في الحكم . وكانت تقاريرهم المطردة ، الدقيقة ، ذات فائدة كبيرة للمصلحة العامة . فالأنباء التي اعتادوا ارسالها عن احوال الزرع ، مثلاً ، كانت تساعد على اتخاذ الاحتياطات المناسبة ضد أي نقص في الغلال . ليس هذا فحسب ، بل إن سجلات المحطات البريدية التي وضعوها لتؤلف أحد المصادر التي نشأ عنها ، في الجليل الثاني ، علم الجغرافية عند العرب .

وقرب المنصور الى بلاطه علماء الفقه والحديث الذين كانوا حتى ذلك الحين ، منعزلين في المدينة ، يتآمرون ، في السر على الدولة الأموية . لقد تم لهم ، في النهاية ، تحقيق المثل الاعلى الثيوقراطي الذي حلموا به ، بعد ان تولى آل بيت النبي زمام السلطان ، كرهة اخرى . والامر الذي لاشك فيه أن اثنين من مؤسسي اقدم المذاهب الفقهية الباقية الى اليوم ، كانا يعطفان على العاوية . فأما أبو حنيفة ، مؤسس المذهب الحنفي ، فكان جدهُ عبداً أُسر اثناء فتح كابل ثم اعتقه سيده ، وكان من بني تيم الله . بيد ان أتباعه ما لبثوا أن اخترعوا له نسباً يرقى الى احد ملوك الاساطير الايرانية القدماء . ومهما يكن من أمر ، فقد عاش ابو حنيفة ، بوصفه مولى من موالى تيم الله ، مستغنياً عن الناس من طريق التجارة بالحرير ، في الكوفة . ولقد كان من مؤيدي زيد بن إبراهيم في ثورته بالبصرة ، وفي سنة ٧٦٧ توفي في سجن بغداد . وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة ويقتي في المسائل الشرعية . وهو في فتاواه يلزم الستة [الحديث] لزوماً شديداً ولا يفسح

المجال امام الاجتهاد باكثر مما فعل أي من اصحاب المذاهب الاخرى . والحق أن حسد رجال المذاهب المتأخرين هو الذي أثار امثال هذه المآخذ عليه . ولقد سبق لنا أن رأينا في معاصره مالك بن أنس ، مؤسس المذهب المالكي ، في المدينة ، نصيراً للعلوية ، حتى إذا أخذت ثورتهم عوقب على موقفه هذا بالجلد . ومهما يكن فقد أجله الخلفاء الذين تعاقبوا بعده إجلالاً عظيماً وزاره هرون الرشيد قبيل وفاته ، فيما كان يؤدي فريضة الحج . وبيننا نشر تلامذة مالك مذهب استاذهم في الاندلس وشمالي إفريقيا في المحل الاول ، التحق الحنفية وشيكا بخدمة الحكومة المركزية . ولقد وفق ابو يوسف ، بوصفه قاضي القضاة في الاسلام ، إلى أن يظفر باقرار رسمي لمذهب ابي حنيفة . كذلك وضع كتاباً أساسياً لهرون الرشيد في الخراج ، وكان قد سبقه احد كتاب المهدي الذين عملوا أول امرهم في الادارة الاموية ، إلى وصف الاوضاع الواقعية في كتاب الفه عن الخراج .

الثورات في فارس : المقتنع

وكان المنصور منهمكاً ، ابدأ ، بصيانة حدود امبراطوريته العظيمة وتوسيعها حيثما اسعفته الأحوال . وعلى الرغم من ان الحروب المتواصلة ضد البيزنطيين لم تنجح في عهده اكثر مما نجحت في عهد الامويين ، وعلى الرغم من ان الحملات ضد الحزرة الاتراك في بلاد القسطنطينية (القوقاز) ، والديلم على الساحل الجنوبي من بحر الخزر ، والاتراك على الضفة الاخرى من نهر جيحون ، وضد الهنود لم تؤد إلى توسع ذي غناء ، على الرغم من ذلك كله

فقد أظهرت هذه الاعمال الحربية كلها ان في استطاعة حكومة مركزية قوية ان تجابه أمثال هذه الأزمات والشدائد التي عجزت الاجيال المنحلة ، في ما بعد ، عن مجابهتها والتغلب عليها . وكان بنو العباس يستهدفون بين الفينة والفينة للخطر يأتيهم من الثورات المذهبية المضطربة في خراسان ، الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الامبراطورية ، حيث احتك الاسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامانية * ، وحيث كان الدين الايراني القومي ، على الخصوص ، لا يزال يؤثر في عقول الناس تأثيراً قوياً . فليس من شك في ان المنصور نفسه قد تخلص من ابي مسلم ، وانه أمر سنة ٧٥٨ ، بالفتك ببعض المتعصبين له من اهل خراسان [الراوندية] عندما ظهروا امام مقره في الهاشمية ليمجدوه بوصفه تجسداً للذات الالهية ، وكان قد سعى الى تهدئتهم بالكلام الرقيق ، فأبوا . ولكن رجلاً فارسياً ، من مرو ، ومن رجال ابي مسلم المقربين اليه - واسمه حكيم - ما لبث ان ظهر سنة ٧٧٨ في اتباعه وادعى انه التجسد الجديد للذات الالهية ، بعد موت مولاه . وإذ كان يبرز دائماً للجهاير وعلى وجه نقاب موسى بالذهب يزعمون ان الغرض منه ان يجذب ، كنقاب موسى ، بهاء الذات الالهية عن العيون الدنسة غير الجديرة بالنظر اليه ، فقد عُرف في التاريخ بلقبه ، «المتنع» . ومن قلعة سنام قرب ككش في ما وراء النهر ، استطاع هذا الثائر ان يخضع الاقليم كله ، في

(*) نسبة الى كلمة شامان وتعود في النهاية الى اصل سنسكريتي بمعنى كاهن أو ساحر يزعمون انه كان في مقدوره الاتصال بالارواح الصالحة والشريرة . وقد عمت هذه الديانة الشعوب النازلة في منطقة جبال اورال من مغول وآراك . [المعربان]

حين كانت ثورة اخرى من ثورات الحوارج تندلع نيوانها في خراسان . والواقع أن الخليفة قد سير إليه جيوشاً عديدة فنغلب عليها . واخيراً وُفِّقَ جند الخليفة إلى حصاره في قلعته ، فما كان منه إلا ان اضرم فيها النار ، فالتهمته وزوجاته وأتباعه (٧٨٠ م) . وكانت العقائد الشيوعية التي بشر بها من ذلك ، في العهد الساساني ، قد بُعِثَتْ قبل عام واحد في مقاطعة جرجان ، لتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة ، على عهد الرشيد .

وفي شمالي إفريقيا ايضاً ، حيث لم يمتد حكم المنصور ، في اغلب الظن ، إلى أبعد من القيروان - على اي حال - شبت ثورة جديدة من ثورات البربر . ذلك بأن هؤلاء القوم ، على الرغم من دخولهم في الاسلام ، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الرامية إلى تعريبهم ، واحتفظوا بحسب قومي لا يزال حياً حتى الوقت الحاضر . ومن هنا وجد الحوارج الذين كادوا يستأصلون في قلب الامبراطورية ، الارض صالحة بين البربر لبث دعايتهم ونشر أفكارهم ، مرةً بعد مرة .

وكان المنصور قد عين باديء الأمر ابن عمه عيسى بن موسى - الذي ادى خدمات جليلة للدولة بأخضاعه ثورات العلويين - خاتماً لها في الحكم . حتى إذا شب ابنه المهدي رغب في أن ينقل ولاية العهد إليه . وهكذا حمل عيسى ، على التنازل عن حقه في الخلافة ، واكرهه على أن يُجَلَّ الناس من بين البيعة الذي اقسوه له سنة ٧٦٧ . فلما توفي المنصور ، في ٧ تشرين الأول ، سنة ٧٧٥ ، وهو عائد من الحج - وكان مولعاً بأن يتولى مواسمه بنفسه - رقي المهدي العرش ، من غير ان يعترضه احدٌ .

وعلى الرغم من جميع مظاهر الأبهة التي نجدها في عهد المنصور ،
والجديرة بملك شرقي عظيم ، فقد استطاع هذا الخليفة بفضل اقتصاده
الشخصي ، أن يترك خزائنه عامرة بالأموال . وهكذا كان في
ميسور المهدي أن يجيا في بلاطه حياة آخذة بنصيب صالح من
الرفق والنعمة . ولكنه بالإضافة الى ذلك ، خدم الامبراطورية
خدمات جلي بأنشاء شبكة من الطرق العامة ، وتحسين نظام
البريد . وانتهت بغداد ، بفضل موقعها الممتاز ، إلى أن تصبح في
عهده مستودعاً رئيسياً للتجارة مع الهند . ولقد أظهر المهدي ، فوق ذلك ،
تبصراً وحسن دراية برعايته للصناعات الوطنية . بيد ان الثورات
المذهبية التي سبق ان اشرنا إلى اشتغالها في الولايات الفارسية
حملت الخليفة على ان يراقب ، بشدة بالغة ، حياة رعاياه العقلية ،
في قلب الامبراطورية ايضاً . والواقع ان المانوية ، لا الزرادشتية
الحالصة ، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على اولئك
الذين دخلوا حديثاً في الاسلام ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً
لشعائره الصارمة ؛ بل لقد كادت تكون [اي المانوية] دين
الطبقات المثقفة . ولقد سبق للمنصور نفسه ان امر بعبد الله بن
المقفع ، الكاتب ، ان يقتل . وكان عبد الله هذا (واسمه الفارسي
رؤزبه) ابن رجل يجمع الحجاج للحجاج بن يوسف . وكان من
اتباع عيسى بن علي عم السفاح والمنصور ، [وعلى يديه] اسلم .
ولقد نقل الى العربية عن الفهلوية تاريخ الفرس ، 'خذائنامة' ،
والتوجمة الفارسية لكتاب الامثال الهندي الموسوم بـ « كليلة

و«دمنة» ، ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسية على ما جاء عند الإيرانيين . ويقال انه اثار حفيظة المنصور عليه يوم كلفه [سليمان وعيسى ابنا علي] بان يكتب صيغة امان يتعهد فيه المنصور بان لا يغدر [بأخيها ابي العباس عبد الله] ، عم المنصور ، فأعدّ صيغة غامضة [بالغ فيها وشدد] . وثمة مجال للشك في ان هذه التهمة التي نسبت الى ابن المقفع هي وحدها السبب الذي حمل والي البصرة على ان يُنزل به ما انزل من وحشي العقاب . فقد يكون اثار شبّهات السلطان وشكوكه من طريق مشاركته في نشاط الفرس السياسي الديني ، هذا النشاط الذي اثقل ، كما رأينا ، كاهل المنصور ، وأنقض ظهره .

وفي عهد المهدي لقي المصير نفسه ، صالح بن عبد القدوس ، الشاعر ، الذي دعا في أحاديثه الدينية بالبصرة دعوة صريحة الى ثنوية الفرس . ولقد حاول ان يتفادى عاقبة النقمة التي أثارها هذه الدعوة عليه ، في الأوساط الفقهية ، بالفرار الى دمشق ، ولكن رجال المهدي تعقبوه ، ورجعوا به الى عاصمة الخلافة ليصلب سنة ٧٨٣م بتهمة الزندقة بعد ان أصبح لفظ الزنديق علماً شائعاً على من يُنسب الى البدعة ، في ذلك العصر . والحق ان هذه الكلمة كانت على عهد الساسانيين ، صفة يُنبزُ بها كل من يجرؤ على تفسير « الأبيستاق » * تفسيراً جديداً ، غير رشيد ، (زند) ، وكانت تُطلق على أتباع ماني ومزدك ، بخاصة . وفي السنة نفسها قُتل بشار بن بُرد ، الشاعر الضريع ، الذي لم يتورّع عن أن يصرّح في (*) أو « الأفتنا » كما ترد في بعض المؤلفات الحديثة . [المعبران]

شعره بتعبده للنار، كأسلافه . وإذا قد كان في الوقت عينه معروفاً
بسلطة اللسان ، لا يعف عن التعرض للخليفة نفسه ، في هجائه ،
فقد عللت الرواية نهايته المفجعة كما عللت نهاية ابن المتفجع بهذا
الزيف السياسي . ومهما يكن من امر ، فحوالي ذلك الوقت بالذات
عهد المهدي في ملاحقة الزنادقة إلى عامل خاص يدعى «العريف» .
ويقال إن هذا العامل ظلّ ينشط اول الامر طوال سنوات
ثلاث . حتى إذا قضى المهدي وجاء من بعده خلفاؤه ووجهت همّة
« ديوان التفتيش » هذا نحو محاربة الآراء المذهبية ، ايضاً ، ضمن
إطار الاسلام الفكري نفسه ، وهي آراء كانت تزجج الحكومة
لسبب ما ، وإن لم تكن تنطوي في ما عدا ذلك ، على أيّما أذى
أو ضرر .

بين موسى وهرون
وتوفي المهدي ، بعد حكم دام عشر سنوات ، فخلفه ابنه
موسى ، سنة ٧٨٥ ، متخذاً لنفسه لقب الهادي . ولقد قاوم موسى
نفوذ أمه الخيزران التي سبق لها ان شاركت مشاركة بعيدة في
تصريف شؤون الدولة إبان خلافة زوجها ، وكادت تسيطر عليه
سيطرة تامة . وكانت الخيزران قبل ذلك جارية بربوية . والحق
ان موسى حاول ، ان يُكره أخاه هرون ، وكان أثيراً عند أمه ،
على التنازل عن ولاية العيد ، ولكن عبثاً . وفي ١٥ ايلول سنة
٧٨٦ قتل الهادي وهو في دار حريمه ، قرب الموصل ، بتحريض
من الخيزران ، ما في ذلك شك . وما عمت أن ظهرت ، منذ
هذه الساعة ، تلك الآفات التي أدت ، آخر الامر ، الى هلاك الاسرة

العباسية منذ سنة الف خلافة علي ، فعلا ذلك الملك المعتز . وفي عهد الرشيد ، الذي امتد ثلاثاً وعشرين سنة ، بلغت الخلافة العباسية أوج سلطانها وقوتها ٣ . ولما كان الرفع المادي قد انتهى في هذا العهد ايضاً ، الى غاية لم يسبق له ان بلغها من قبل ، فقد قويت نزعة الاجيال المتأخرة الى ان ترى في الخليفة هرون الرشيد ملكاً مثالياً ، وان تغزو الى مواهبه الشخصية ما هو مدين به لجرّد الظروف المواتية في أيامه .

الرشيد والبرامكة

وعهد الرشيد الى وزرائه في تصريف شؤون الدولة كلها تقريباً ، في السنوات الأولى من حكمه . والواقع أن منصب الوزارة كان منذ عهد غير قصير وقفاً على آل برمك ، المتحدرين من اسرة كهنوت متقدمة في نوبهار ، احدى الصوامع البوذية في بلخ . وقد ادعت الرواية الفارسية في ما بعد ، بدافع من النعرة القومية ، ان هذه الاسرة كانت من كهنة الفرس عبدة النار . فبعد مقتل ابي سلمة استوزر السفاح خالد بن برمك ، أو على الاصح عينه عنده كاتباً اول . حتى إذا كانت خلافة المنصور احتفظ خالد بالاشراف على الشؤون المالية ولمع اسمه ، بشكل خاص ، في بناء بغداد . ولكنه كان في الوقت نفسه جندياً بارعاً خدام ،

(٣) راجع اوديسيو *G. Audisio, Harun ar Rashid, Caliph*

of Bagdad, New-york, 1931 وراجع ايضاً ن. عبود *N. Abbott, Two Queens of Baghdad, Chicago, 1946 .*

(٤) راجع بونا *L. Bouvat, Les Barmécides d'après les historiens arabes et persans, Paris, 1912 .*

أيام الشباب، تحت لواء أبي مسلم وقحطبة. ليس هذا فحسب بل
 لقد وفق سنة ٧٦٥ - ٧٦٩ إلى أن يقضي، بوصفه والياً على
 طبرستان، على آخر إمارة وطنية في جبل دوماوند، واشترك في
 الحروب ضد البيزنطيين، وهو في سن عالية. فكان طبيعياً أن
 يفيد من هذه المناصب كلها، شأن جميع الموظفين، ثروة ضخمة.
 ومن هنا وجدنا المنصور، قبيل وفاته، يصادر منه حوالي ثلاثة
 ملايين درهم^٥، ثم يمنحه إمارة الموصل التي كانت تُعد، لقربها من
 الأكراد الآخذين بأسباب الشغب والفتنة، منصباً ذا أهمية
 خاصة. وفي الوقت نفسه تسم ابنه يحيى ولاية آذربيجان، حتى
 إذا كانت خلافة المهدي استدعي إلى بغداد. وفي سنة ٧٧٧، عندما
 عين هرون أميراً على الولايات الغربية بالإضافة إلى إرمينية
 وآذربيجان، خطا يحيى خطوة جديدة نحو المجد، إذ اصطنعه
 هرون رئيساً لامناء سره. والحق أن يحيى ظل مخلصاً لسيده يوم
 جهد الهادي في حمل هرون على التنازل عن ولاية العهد، بل إن
 الرواية لتذهب إلى أنه فقد حريته، فترة من الزمان، بسبب من
 ذلك. فلم يكده هرون يلي عرش الخلافة حتى كافأ يحيى على إخلاصه
 فرفعه إلى مقام الوزارة. وهكذا حكم هو وابناه، الفضل وجعفر،
 الامبراطورية الإسلامية، من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٣، حكماً
 مطلقاً، وإن يكن قد خضع خلال السنوات الأولى من وزارته

(٥) لما كانت القروض الحكومية لا تزال غير معروفة، لذلك العهد، فقد
 كانت أمثال هذه الابتزازات، التي خضع لولاياتها العمال والموظفون الذين أثروا
 من طريق الوظيفة تؤلف وسيلة مطردة لملاء خزانة الدولة بعد فراغها. وكان
 عندهم اصطلاح خاص لذلك هو: «المصادرة».

لرقابة شديدة من أمّ الخليفة . وبيننا وفق الفضل ، بوصفه اميراً على الولايات الشرقية ، الى تحقيق انتصارات باهرة في الحقلين العسكري والعمرائي ، ظل جعفر في العاصمة ، الى جانب الخليفة الذي كان يقدمه ويؤثره ، تاركاً امر الولايات التي عهد اليه بادارتها او على الاصح باستغلالها ، الى مندوبين من قبله . وكان طبيعياً ان تؤدي هذه الصداقة الى ملل الخليفة ، مع الايام . وتعزو الروايات سبب الخلاف الاخير الى حادثة غرامية حصلها ان الخليفة عقد لجعفر على اخته العباسة عقداً صورياً حتى يكون في ميسوره ان يانس بالاجتماع بهما في وقت معاً ، ولكن جعفر اساء اصطناع هذه الحرية التي تمت له . فلم تكدم الخليفة تقضي نحبها سنة ٧٩٠ حتى انتزع الرشيد ، على ما تقول المصادر ايضاً ، خاتم الدولة من جعفر ، وحوّل جزءاً من صلاحياته الى خصمه وخلفه ، الفضل بن الربيع . وفي اوائل سنة ٨٠٣ ، عندما قفل الرشيد من الحج - وكان يتولى إمرته في اغلب الاحوال بنفسه - أمر بجعفر ان يقتل في ليل ٢٩ كانون الثاني ، ليلحق رأسه على الجسر المركزي ببغداد ، ويقطع جسمه نصفين يعرض كل منهما على واحد من الجسرين الآخرين . اما ابوه واخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم . ثم ان الرشيد نقل مقره ، بعد نكبة البرامكة ، الى الرقة على الفرات . ولم يخل عهد الرشيد من ثورات تعاقبت في داخل الامبراطورية . ففي سورية اندلعت نار الخصومة القديمة ، شديدة حامية ، بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، سنة ٧٩٦ . وفي دمشق اغتتمت السوقة فرصة الاضطراب للامعان في اعمال النهب والسلب . ولم يستتب

الامن في تلك الديار الا بعد ان خرج جعفر بنفسه اليها ، وأمر
بتجريد السكان جميعاً ، من السلاح .
الاغلبة في شمالي إفريقية

وتوالى الانتفاضات على عمال الخليفة ، في إفريقية ، من غير
انقطاع . وهنا اعاد الامن الى نصابه ، بادىء الرأي ، ابراهيم بن
الاعلب ، الذي قُتِل والده - وكان اميراً على إفريقية ، واصله
من مَرُو الرُوذ - في ثورة سنة ٧٦٧ . وفي سنة
٧٩٥ عُهد الى ابراهيم في الولاية على اقليم الزاب الواقع جنوبي
الجزائر على جانبي بسكرة . حتى اذا طرد الثوار خلف ابيه ، [محمد]
ابن مقاتل هرع ابن الاعلب الى نصرته سنة ٧٩٩ ، وبيعاعة فائقة
اقر الامن والنظام في تلك الارحاء . فكافأه الرشيد على حسن
بلائه بان كتب له بالعهد الى إفريقية لقاء خراج سنوي قدره اربعون
الف دينار . وفي الحال شرع ابن الاعلب في انشاء مدينة جديدة
على ثلاثة اميال جنوبي القيروان ، دعاها العباسية وجعلها قاعدة
لأمارته . فلما كانت السنة التالية صار في مقدوره أن يستقبل فيها
سفراء شارلمان الذين جاءوا ، في الظاهر ، يطلبون آثار القديس
سيبريون ، في حين ان هدفهم الحقيقي ، غير شك ، كان انشاء
علاقات دبلوماسية مع المسلمين ، واستمزاج ابن الاعلب في ما
يتعلق بالقيام بعمل مشترك ضد اسبانية .
والحق ان الرشيد نفسه مدين بشهرته في الغرب لعلاقاته الشهيرة
مع ملك الفرنجة الكبير ، هذه العلاقات التي تذهب الرواية الى أنه

(٦) انظر Eginhardi Annales Francorum, year 801.

انشأها هو نفسه من طريق وفدٍ بعث به الى اكس لاشابل .
 وأياً ما كان ، فليس عند المصادر العربية ما تقوله في هذا الشأن .
 ولعل الأمر كله لا يعدو ، في أغلب الظن ، كون بعض التجار
 الشرقيين قد انتحلوا ، لدى شارلمان ، صفة السفراء الناطقين باسم
 الخليفة ، من غير تفويض ^٧ .
 واستمر النضال ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد ،
 ولكنه لم يؤت من الثمرات شيئاً أكثر من إكراه الامبراطور
 نقفور بعد فتح هرقلة ، سنة ٨٠٦ ، على التعهد بأداء جزية
 للمسلمين . وكان ثمة في ايران أيضاً اضطراب متصل . حتى اذا ثار
 رافع بن ليث في سمرقند ، سنة ٨٠٥ ، وبسط سلطانه على بلاد
 ما وراء النهر كلها ، اضطرت الخليفة إلى أن يسير بنفسه لمقاتلته .
 ولكن الأجل لم يمهله ، فما كاد يبلغ طوس في خراسان حتى مرض
 ومات ، يوم ٢٤ آذار سنة ٨٠٩ .

قدمت لبعض تسليماً الشعر في العراق
 وازداد ملك هرون بهاء بما أطلعه الأدب العربي من ثمرات
 يانعة في أرض الحضارة البابلية القديمة الحصبة . فقد خلف شعراء
 البادية الذين استغرقت الحوصوات القبلية والمنافسات التافهة معظم
 نشاطهم أيام الامويين جيلٌ جديدٌ من شعراء الحواضر . وتكاثر

(٧) انظر شميت F. F. Schmidt in *Der Islam*, III, 409-11
 وانظر أيضاً بارتولد W. Barthold في المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٣٣٣
 وما بعدها . والواقع أن المشرق لم يكن يعرف آنذاك ما ندعوه السلك
 الدبلوماسي باكثير مما عرفته اوروبة . وكان السامون يعتمدون في أداء هذه
 المهام الدبلوماسية على الفقهاء ، في الأعم الأغلب .

مشاغل الناس، فهم لا يجدون متسعاً من الوقت يفرغون فيه
 لقضائهم الشعراء القدماء الطويلة المملة؛ بل لقد فقدوا القوة على
 فهمها وتدقيقها. فكان من الطبيعي أن يعمد الفن الجديد إلى
 تجزئتها، محاولاً أن يغذو كلاً من عناصرها المختلفة على حدة،
 وليس من شك في أن الأفق الفكري لم يتسع [في الشعر الجديد]
 إلا قليلاً. فقد غنى القدماء الحب والخمر والطرد كما غناها
 المولدون، وسخروا من خصومهم سخوية لاذعة كما كان يفعل
 المولدون. ليس هذا فحسب، بل لقد وُفق القدماء في بعض
 الأحيان إلى أن يوقعوا على أوتار ادعى إلى استثارة الشجون،
 وذلك في مراتٍ تندب الحياة الدنيا وتبكي زوالها. وكانت القصيدة
 الغزلية قد نهضت على ساقها وأصبحت فناً مستقلاً، عهد عبد الملك،
 في شعر عمر ابن أبي ربيعة، وكان الخليفة الوليد الثاني قد أحيا فن
 الحمزية. فلما نشأ الشعراء المولدون تعهدوا هذه الفنون كلها بالتنمية
 والتجويد. ولم يكتفوا باستعارة المحسنات البيانية من لغة التخاطب
 العامة في عصرهم فحسب، بل عدوا ذلك، في الأعم الأغلب، إلى
 الاستمداد من لغة البدو، وكانت لا تزال تعتبر المثل الأعلى [في
 السلامة والفصاحة]. والحق أن مدائح الخلفاء، والبرامكة
 جرت في معظم الأحوال على الأسلوب القديم، حتى عند
 الشعراء الذين لا تنميه أصول عربية، والذين عرفوا كيف
 يجيدون هذا الأسلوب ويتأثرون له بروشاقة بارعة. فقد كان أشهر
 مداحي العباسيين، مروان ابن أبي حفصة، حفيداً لرجل من يهود
 خراسان، ولكنه كان ينزل اليمامة، في العادة، فلا يكاد

يفادر البلاط ، بعد انشاد مدائح في الخليفة ، حتى يفى اليها من دون البلاد جميعاً . وكان تحلف الأحمر - وهو ابن عبد من فرغانة اعتقه سيده - من العلم بالشعر القديم والفناء فيه بمحلٍّ مكنه من تقليده وروايته في الناس على انه من كلام الجاهليين ^٨ .

أما اشهر شعراء العصر ، أبو نواس - وهو ابن غسالة فارسية ، قضى أيام شبابه [الاول] في البصرة والكوفة - فكان متمكناً من العربية في جميع فروعها تمكناً عجبياً جعل الرواة يزعمون أنه لم يتم له الا من طريق الاقامة المتطاولة بين ظهراي الأعراب . ولكنه كان يفسح المجال ، في بعض قصائده ، لتعابير ينتزعها من لغة التخاطب اليومية . والذي لا شك فيه أنه كانت لهذا الشاعر موهبة أصيلة في الشعر الغنائي ، على الرغم من انه كثيراً ما انتقاد الى التحذلق السخيف . ولم يسلم شيء ، حتى الدين نفسه ، من استهتار ابي نواس في هوه هذا . والواقع ان الاشارات البذيئة التي يحفل بها ديوانه ، في تصريح حيناً ، وفي تلميح حيناً ، لتدل دلالة واضحة على ذوق سامعيه الوضع . والذي يظهر أن أبا نواس كان يمثل ايضاً دور النديم في البلاط وفي المجتمع البغدادي ، وهو

(٨) يرى كثير من علماء العربية ان خلف الأحمر هو واضع « لامية العرب » التي تنسبها الرواية الى الشنفرى ، احد ابطال العرب اليمانيين ، قبل الاسلام ، والتي تعتبر من اشهر القصائد ، واجلها في مقياس الذوق الاوروبي ايضاً . (وقد ترجمها ردهاوس J. W. Redhouse سنة ١٨٨١ ، وهبوز G. Hughes سنة ١٨٩٦ ، قابل نيكلسون :

R. A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 80

الدور الذي لم يكن معاصره ابو دلامة ليحيد غيره .^٩ ولكن هذا العصر لم يعدم فريقياً آخر من الشعراء ، اخذوا باسباب الجدل وحاولوا أن يردعوا المجتمع البغدادي المنغمس في المملذات عن ضلالتة . والمؤثرات النصرانية ظاهرة ، اوضح ما يكون ، في شعر ابي العتاهية الذي نعيم ، وهو شاب ، مجذوبة في بلاط الرشيد هيأتها له قصائده الغزلية المستملحة ، لينقلب بعد الى ترهيد الناس في الحياة الدنيا بشدة واندفاع بالغين ، حتى لقد انار شكوك اولئك الذين اخذوا على عاتقهم تعقب الزنادقة .

ولقد قدر للمغنيات اللواتي لعبن دوراً عظيماً الاهمية في حياة بغداد الاجتماعية ، ان ينهضن بالنصيب الأوفى من خدمة الغزل الجديد ونشره في الناس ، شأنهن من قبل ، على عهد الأمويين ، في مكة والمدينة . وانقضت فترة تصدّر خلالها الحياة الفنية في بغداد وسامراء احد * ابناء الخليفة المهدي من جارية ديلمية ، وكان من هواة الموسيقى الذين تذكر الروايات انه احدث فيها احداثاً كثيرة زادت في الثروة الفنية . أما في عهد الرشيد وخلفائه فقد تزعم الحركة الموسيقية في العاصمة ابراهيم بن ماهان الموصلية ، ابن احد ملتزمي الخراج ، وولده أسحق . وكان كل منهما يدرّب الجوارى ويخرّجهن في الغناء ثم يبيعهن باثمان عالية . والادب العربي حافل بالقصص الغرامي اللطيف الذي يتحدث عن

(٩) من شخصية ابي دلامة هذا استوحى فون وير C. M. von Weber الفكرة الرئيسية في الاوبرا التي وضعها باسم « أبو حسن » Abu Hasan * هو ابراهيم بن المهدي [المعربان]

هؤلاء الجوارى ومحبين المعاجزين عن النهوض بما يكلفهم اياه
 مالكو الجوارى من مطالب فاحشة ، في بعض الاحيان .
 والواقع ان العربية كانت لا تزال هي لغة الادب والتأليف ،
 غير منازعة . ومع ذلك فقد ظهر عددٌ من الشعراء ، الفارسي
 الاصل ، الذين افتخروا في منظومهم ، جهاراً ، بتراث الآباء
 والاجداد ، ومجدوا الفرس على حساب العرب . ولقد برزت
 هذه النزعة ، في صورة أشد وأوضح ، في النثر الذي كانت تفتح
 براعمه في الوقت نفسه . فقد وضع رجل فارسي يدعى علاء ،
 وكان نساخاً في مكتبة البلاط أيام الرشيد والمأمون ، كتاباً
 خاصاً حشر بين دفتيه مثالب القبائل العربية المشتركة في الشعر
 القديم ، فلقب من اجل ذلك بالشعوبي ، أي المدافع عن تساوي
 الامم في الحقوق . كذلك تمثلت النزعة نفسها في عدد وافر من آثار
 ذلك العصر الكتابية ١٠ .

النحو وفقه اللغة
 ولعل من اقوى الشواهد على مدى السيطرة التي كانت لا تزال
 للغة العربية ولماضي العرب العظيم على الحياة الفكرية في ذلك العهد
 هذين العلمين اللذين انصبَّ عليها اهتمام المتقنين آنذاك : فقه اللغة
 والتاريخ . فاما اولهما فكانت نشأته ذات صلة بالقرآن . ذلك بانه
 كان من الضرورة الماسة ان يفهم هذا العديد الغفير من الداخلين
 حديثاً في الاسلام ، والناشئين في بيئات لا تتكلم العربية ، كلام

(١٠) انظر جولدزيهر *I. Goldziher, Die Shu'ubijja und ihre Bekundung in der Wissenschaft, in Muhammedanische Studien I, Halle, 1889, p. 147 — 208.*

الله فهماً كاملاً ، وان يحسن أداءه في الصلاة المفروضة .
ليس هذا فقط ، بل لقد كان من الضرورة الماسة ان يتمدد السبيل
امام هؤلاء الاعاجم الى امتلاك ناصية الدقائق المعنوية في العربية ،
والتضلع من مآثرها الزاخر بالمفردات . والواقع انه كان يتعين على من
يرغب في ان يحتل مكانة ما في المجتمع البغدادي ان تتم له معرفة
دقيقة بالشعراء الجاهليين الذين ظلت اشعارهم النموذج المحتذى في
حلقات الادب ، وان تتم له القدرة على النظم على طريقتهم
ايضاً . وهذا هو السبب الذي جعل معجم الحليل [بن احمد]
البحري اساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره . صحيح ان
ترتيب هذا المعجم الكبير بحسب مخارج الحروف ، مبتدئاً بالعين
التي هي اعمق حروف الحلق (ومن هنا دعوى : كتاب العين
وحسب) لم يلبث ان أثبت عدم صلاحه ، فاطرحته الحلقات
الادبية ؛ ولكن طريقتة الذاهبة الى شرح المفردات على اساس
الشواهد الشعرية استطاعت ان تفرض نفسها على جميع المعاجم
التي تلت . كذلك بدأت دراسة النصوص الشعرية نفسها في وقت
مبكر ايضاً ، وكانت تستهدف البحث في مؤسسات الحياة البدوية
واوضاعها التي تؤلف قوام القوائد الجاهلية ، والتي كان اهل المدن
يجهلونها ، في الجملة ؛ وتقصد الى جمع الاخبار المتصلة بالشعراء
انفسهم ، لتنتهي آخر الامر الى محاولات في تقويم الاثر الادبي
وتعيين منزلته الفنية . وتنسب الروايات الى الحليل ايضاً اختراع
العروض ووضع نحو هو ، بالرغم من اعتماده على منطق ارسطو ،
ثمرة مستقلة كل الاستقلال من ثمرات الحضارة الجديدة . ثم إن

سيبويه الفارسي ، احد تلاميذ الخليل ، قام بخدمة جليلة عندما وضع هذا العلم في صورة نظامية جرت عليها الأجيال المقبلة ، ولو أن الاسلوب الذي اعتمده كان بعيداً عن التوفيق . وكان ينافس سيبويه في علم النحو احد قراء القرآن [السبعة] ، الكسائي الكوفي ، الذي سبق له أن علم الرشيد نفسه ، ثم عهد اليه الرشيد في تأديب ولده الأمين . وفي بعض الروايات ان تلميذ الكسائي ، الفراء ، درّس تفسير القرآن في مسجد الكوفة . ومهما يكن من شيء ، فقد كان اكثر مقامه ببغداد . والمقول إنه وضع مؤلفه في الحدود النحوية (ولم يصلنا هذا الكتاب) في قصر المأمون . وقد افترض العرب في ما بعد ، استناداً الى روايات التاريخ الأدبي ، أن الخلاف كان قائماً بين مذهبين لغويين — هما مذهب البصرة ومذهب الكوفة — وان هذا الخلاف لم يُسوَّ إلا بعد أجيال عندما اندمج المذهبان وتوحدا في مدرسة بغداد . ولكن الذي يظهر لنا أن المنافسات الفردية بين علماء هاتين المدينتين — البصرة والكوفة — قد بولغ فيها إلى حد لا مبرور له .

التاريخ

فإذا انتقلنا إلى العلم الثاني وجدنا أن العناية بالرواية التاريخية كانت شديدة جداً ، حتى في بلاد العرب قبل الاسلام . والواقع ان بلاد العرب لم تعرف الملاحم الشعرية ، فاذا بالحكايات عن ايام القبائل وثاراتها الناشئة في الغالب عن بواعث تافهة جداً تحل محل هذه الملاحم ، وتُحیی ذكراها في أشعار توضع على ألسن الابطال . فلما استطارت الفتوح كانت فيها لهذا الفن حافز غير متوقع .

وكانت القبائل المختلفة قد ضفرت من ملاحمها كالليل الفخر، مشيدة فيها بالدور الذي لعبته على مسرح المنازعات بين الامم. والحق ان هذه المآتي قد جمعت وصنفت، على شكل كتاب، حتى في عهد الأمويين. فأخرج احد افراد قبيلة الأزدي في الكوفة، أبو مخنف لوط بن يحيى هذه الاخبار في ترسل رائع ينتظم اكثر من ثلاثين مقالة مستقلة، تتألف كل منها في الاغلب من مشاهد مفردة ومحاورات. ونحن مدينون في بقاء مقالات ابي مخنف هذا وعدم ضياعها لمحمد بن السائب الكلبي، احد علماء الكوفة وبصورة أنص لابنه هشام، الذي نقل الطبري عنه هذه المقالات، في تاريخه الكبير. وكان محمد بن السائب يعني عناية خاصة بانساب القبائل العربية، وقد حاول أن يحدد سني حكم اللخمين في الحيرة من النقوش التي على قبورهم، والتي كانت لا تزال مصنونة، لعهد، في كنائسهم. اما هشام، الذي جمع آثار ابيه بين دفتي كتاب ضخيم في الانساب لا يزال باقياً الى اليوم، فتذهب الروايات الى انه اكتسب عطف المهدي بمؤلف في مثالب الامويين أملاه على احد كتاب الخليفة، وبذلك استطاع عماله ان يرثوا على رسالة مهينة كان قد بعث بها صاحب الاندلس [عبدالرحمن الداخل]. ليس هذا فحسب، ولكننا مدينون لهشام ايضاً بمعلومات قيمة عن ديانة العرب الوثنيين في كتاب له آخر دعاه، بوصفه مسلماً صالحاً، «كتاب الاصنام». وعلى الرغم من ان ابا مخنف، بما هو كوفي، كان يميل الى عليّ فإن أخباره لم تظهر هذا التشيع شأن المؤلفات التي نسبت اليه بعد زمن طويل في ما يتصل باستشهاد الحسين في

كربلاء ، وبالختار ، النبي الكاذب . والواقع أن النزعة الشيعة
 اصرح واشف تنقياً في تاريخ موقعة صفين الذي كتبه نصر بن
 مزاحم المتوفى بالكوفة سنة ٨٢٧ ، ولقد انتهى البناء في نصه الاصيلي
 ولا يزال يتلى الى اليوم ، في الدوائر الشيعة ، كسيرة قومية . وفي
 عهد الرشيد ظهر سيف بن عمر الاسدي ، ايضاً . ولقد صرف همهته
 في تأريخه للفتوح ولارتداد العرب (بعيد وفاة الرسول) ولو اقامة
 الجمل ، الى تمجيد قبيلته ، تميم ، وكان مولعاً بالحوض في المحسنات
 والتزاويق الخيالية . ومهما يكن من شيء ، فقد اعجب الطبري
 اعجاباً شديداً بتاريخ سيف بن عمر هذا - وليس محل ثقة في التفاصيل
 على الاطلاق - حتى لقد اعتمده من دون سواه تقريباً ، وبذلك
 اضل المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه في تأليفهم .
 أما المدينة فتميزت ، على العكس ، بالبحث التاريخي الدقيق .
 وكان ابو معشر الذي جاءها باديء الامر ، كمولي من موالي الهندي
 والذي استقر بعد في بغداد ، هو اول من صنف كتاباً عن
 غزوات الرسول . وكان معنياً في الدرجة الاولى بتحري الدقة
 وتحقيق الأخبار . وتأساه في ذلك محمد بن اسحق الذي قصد ايضاً
 الى بغداد ليتجنب ، في ما يبدو ، عداوة العلماء الذين حصروا
 اهتمامهم بالاحاديث الفقهية دون سواها . وهناك وضع للمنصور اول
 سيرة كاملة للرسول . وانما وصلتنا هذه السيرة في رواية متأخرة .
 فلما كانت خلافة الرشيد اتم هذا العمل الواقدي ، مولى يحيى البرمكي .
 وكان الواقدي يسر في ذات نفسه الولاء لعلي وآله ، ولكن ما
 صنفه عن مغازي الرسول وفتوح البلدان لم يفسح له في مجال

الاعراب عن ولائه هذا . ثم ان تلميذه وكاتبه ابن سعد جمع في
 « كتاب الطبقات » الاخبار المتصلة بالنبي ، وصحابته والتابعين ،
 فعجل ذلك في ظهور كتب السيرة التي بالغت الاجيال المتأخرة في
 غرابة مادتها وتنخلها مبالغة بعيدة ، والتي ندين لها - بالاضافة الى
 كثير من الهراء الذي لا قيمة له - ببعض المعلومات ذات القيمة
 الكبيرة في التاريخ الثقافي . والواقع ان معالم كتب التاريخ كلها ،
 حتى عند ابي معشر والواقدي ، اقتصرت على سني الخلفاء ، وشئون
 أعمالهم الادارية ، وامراء الحج ، والصائفات ضد البيزنطيين . وقلمها
 ازدانت هذه الكتب بشيء من تفاصيل الحوادث المهمة . ثم
 جاء الطبري ، المولود في آمل من اعمال طبرستان ، فأتم العمل
 الذي بدأه سابقوه - ولعله اعتمد ايضاً اخبار سني الفرس الرسمية -
 وبذلك امسى اعظم مؤرخي الامبراطورية . والواقع ان الطبري
 استهل تاريخه بعصر ما قبل التوراة ، وفقاً للروايات الاسرائيلية
 المتأخرة التي جمعها مفسرو القرآن ، مضيفاً الى ذلك
 مختاراً من ترجمة ابن المقفع لكتاب خداينامه الفهلوي . أما في
 تاريخ الاسلام فاعتمد المصادر التي سبقت منا الاشارة اليها مردداً
 ما جاء فيها بأسانيده كلها . وبلاضافة الى هذا التاريخ الكبير
 صنف الطبري تفسيراً واسعاً للقرآن اعتمد فيه جميع المصادر التي
 في متناوله . بيد أن غاية الغايات التي كان يطمح اليها الطبري هي
 إنشاء مذهب فقهي مستقل . ولقد تم له ذلك ، ولكن مذهب لم
 يعمر دهوراً طويلاً .

الصراع بين الأمين والمأمون
 وما كاد الرشيد يلحق بالرفيق الأعلى حتى خيف على الامبراطورية
 أن تنقسم شطرين^{١١}. وتفصيل ذلك ان الرشيد نفسه كان قد سمى ولده
 الأكبر محمداً الأمين، ابن زبيدة حفيده المنصور، ولياً للعهد واميراً
 على سورية في الوقت نفسه، ولكنه عهد بالولايات الشرقية إلى
 ولده الآخر، عبدالله المأمون، وكانت أمه أمة فارسية، بعد أن
 نص على أن أي اعتداء يقوم به الأمين على حقوق أخيه يترتب عليه
 فقده العرش. ثم إن الرشيد عين ولداً له ثالثاً، يدعى القاسم،
 أميراً على الجزيرة الفراتية، فتقلصت بذلك سلطة المأمون وضاعت.
 ومع ان الأمين عهد عقب ارتقائه عرش الخلافة إلى جعل إمارة
 القاسم مقتصرة على قنسرين فحسب، فإنه لم يجرؤ على التعرض
 للمأمون، على الرغم من تحريض وزير أبيه الفضل بن الربيع.
 هذا من جهة. ومن جهة ثانية فقد اضطر المأمون، بادئ الامر،
 إلى التسليم بحقوق أخيه، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثه
 على توحيد الامبراطورية. والواقع انه كان لا يزال يخشى الخطر
 الذي يهدد الدولة من المشرق. فقد قدّر لاهل التبت، إبان
 الفتوح العربية في آسية الوسطى، ان ينتصروا في سلسلة من
 المعارك ضد الصين، بمونة عرب كاشغَر ولكنهم، أي التبتيين،
 انتهوا بعد إلى ان يستشعروا الخطر من تقدم القوى الاسلامية،
 ومن هنا ناصروا رافع بن ليث في ثورته بسمرقند، فهم يهددون

(١١) راجع غابريالي *G. Gabrieli, La successione di Harun al-Rashid e la guerra fra al-Amin e al-Mamun, Rivista di studi orientali, 1929.*

الآن بالهجوم على بلاد ما وراء النهر . بيد ان المأمون اضطر سنة ٨١٠ الى ان يلقي بالتحفظ عرض الحائط ، عندما اخذ الامين يذكر اسم ابنه موسى في خطبة الجمعة ، بالاضافة الى اسم المأمون ، مُثِيراً بذلك شكوك هذا الاخير ومخاوفه ، في ما يتصل بولاية العهد . حتى اذا ذهب المأمون الى ابعده من ذلك وقطع جميع علاقاته ببغداد ، اعلن الأمين تخلعه وعهد الى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الاجراءات الضرورية ضده . بيد ان علياً هذا ما لبث ان قتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش المأمون ، يقودها طاهر بن الحسين ، في الري . وإنما كتبت النصر في تلك الموقعة لجند المأمون ، فلم يكن من الامين إلا ان بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت ايضاً . وعندئذ رفض الجند الذين وجههم الى الشرق للمرة الثالثة ان يتقدموا الى ابعده من خانيين ، على الحدود العراقية . ليس هذا فحسب ، بل لقد نشبت الثورات ضد الامين في سورية ، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين ابن قائده علي الذي قضى في الري ، ولكن نقرأ من الذين اقاموا على الاخلاص له عادوا فانقذوه من اساره . ولم تكد بلاد العرب تباع المأمون حتى انتهى قائده طاهر وأهله ثمة إلى ابواب بغداد . وتساقت المدينة منطقة اثر منطقة في أيديهما ، فاضطر الامين ، آخر الأمر ، الى الاستسلام . وعلى الرغم من ان هرثمة قد آمنه على حياته ثم سار به من قصره ، في اواخر ايلول سنة ٨١٣ ، على حراسة ، فقد هاجمه رجال طاهر وقتلوه .

الدولة الطاهرية

ومكث المأمون ، بادىء الامر ، في مرو ، على الرغم من أن

هذا النصر الذي تمّ له جملة سيّد الامبراطورية الاوحد . فاعتنم
 العلويون فرصة غيابه عن العاصمة وشرعوا يصطادون في الماء
 العكر . وهكذا خرج بالكوفة محمد بن ابراهيم بن طباطبا ، في
 اوائل سنة ٨١٥ ، وادّعى الخلافة ، ولكن هرثة لم يلبث ان هزمه
 في سهولة ويسر . والظاهر ان هرثة نفسه انتهى ، بعد هذا
 النصر الجديد ، الى ان يكون خطراً على الخليفة ووزيره فأمر ابيه
 ان يُعْتَقَلَ بُعِيدَ دخوله مرواً ، وما هي الا فترة وجيزة
 حتى أمرا بقتله فقتل . اما طاهر بن الحسين ، وكان يستحق من
 الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقها هرثة ، فقد ارسل على رأس
 جيش هزيل الى الرقة ، على الفرات ، حيث كانت الثورة تلي
 الثورة . وفي سنة ٨١٧ دعا البغداديون المنصور ابن الخليفة
 المهدي الى تولي السلطة ، فلم يستجب المنصور لهم بل أقام على
 ولائه للخليفة وسعى الى اقرار الأمن باسمه * . وحسب المأمون ،
 غير شك ، ان في استطاعته اكتساب عطف العراقيين اذا عقد
 لهلي بن موسى الرضا على ابنه ، وسمّاه ولياً للعهد . والواقع أنه
 أقدم على هذا الصنيع في آذار سنة ٨١٧ ، بإشارة من وزيره الفضل
 بن سهل واستبدل ، في الوقت نفسه ، اعلام العلويين الخضر ،
 بأعلام العباسيين السود . ولكن العراقيين أبوا مبايعة علي ،
 وفادوا بابراهيم بن المهدي ، الموسمي الهاوي ، خليفة عليهم ، في
 ٢٤ حزيران . فاضطرّ المأمون عندئذ الى أن يتخذ اجراءات فعالة في
 مركز الامبراطورية . وتذهب الروايات الى ان الفضل بن سهل

* اي باسم الخليفة .

كان ينجده في الأيام السالفة ، بتقارير كاذبة عن احوال العراق ، زاعماً أن صهره العلوي كان اول من كشف له عن حقيقة الحال هناك . ولم تكن الأمور في الشرق أدعى الى اطمئنان المأمون ، من الأمور في العراق . ذلك بأن العقائد التي بشر بها ابو مسلم وتلميذه المقتنع ، وهي القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الالهية ، لم تلبث أن بعثت في آذربيجان على يد بابك [الخُرَّمي] الذي اجتمع حوله خلق كثير واتسع سلطانه حتى لأوسك ان يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب . ومهما يكن من شيء فالواقع أن المأمون انطلق في سبيله الى طوس مباشرة ليستمد القوة من طريق الصلاة على ضريح ابيه الرشيد . وبينما هو في بعض الطريق قتل وزيره ، وهو في الحمام ، بمدينة سَرْخَس * . وفي طوس ايضاً توفي صهره من جراء اضطراب هضمي في ما يظهر ، ولكن الراجح ان يكون قد دُس له السم فمات . وهناك دُفن في جوار هرون ؛ وإذ قد رفعه الشيعة ، في الحال ، إلى مرتبة الشهداء ، فإن مدينة جديدة لم تلبث ان نشأت حول مزاره ، باسم « المشهد الرضوي » أو « المشهد » ، لتحل بعد محل طوس القديمة بكاملها ؛ وهي تُعد اليوم اعظم الأماكن الشيعية المقدسة بعد كربلاء ١٢ . واذ غلبت

(١٢) راجع سايكس P.M. Sykes, *The Glory of the Shia* World, the Tale of a Pilgrimage Translated, London, 1910, 234 - 57.

وراجع ديز, *Chorassanische Baudenkmaler*, Berlin, 1918, p. 89 ff .

وكذلك راجع ستروثمان, *Die Zwölferschī'a*, Leipzig, 1926, p. 171.

السوداء بعيد ذلك ، على الحسن [بن سهل] اخي الوزير الفضل وأمير
العسكر في واسط آنذاك (وكان العراقيون يكرهونه كرهاً
شديداً) ، وتغير عقله حتى شُدد في الحديد وحبس في احد البيوت ،
بمحجة من هذا الاختلاط العقلي ، فقد خلع اهل بغداد ابراهيم
ابن المهدي ودعوا للمأمون بالخلافة ، فدخل العاصمة في آب سنة
٨١٩ . ولم يكذب ينسحب من خراسان حتى رفع الخوارج راية
الثورة فيها . فعهد المأمون في إخمادها الى طاهر ، الذي وقَّع
خلال فترة قصيرة إلى إقرار النظام في المقاطعة كلها . بيد ان طاهراً
لم يلبث أن نازعته نفسه إلى الاستقلال ، بعد ان استشعر أنه قد
أمسى في مأمن من الخليفة ، في تلك الديار النائية ، فاغفل سنة
٨٢٢ الدعاء له في خطبة الجمعة . وعلى الرغم من أن هذا الإغفال
كان بمثابة الثورة الصريحة على المأمون فانه لم يجرؤ على أن يرفض
تعيين طلحة بن طاهر اميراً على خراسان ، بعد وفاة أبيه . واحتفظ
ابناء طاهر واحفاده ، الذين سيمر بنا ذكرهم بعد ، بسلاطنتهم هذا
نحواً من قرن بطوله . والواقع أن هذه الأحداث أفقدت
الامبراطورية الاسلامية أقصى ولاياتها الشرقية ، كما أفقدتها أقصى
ولاياتها الغربية ١٣ .

ولمع من أبناء طاهر علم آخر ، اسدى للامبراطورية خدمات

W. Rothstein, *Zu asch - Schabustis* (١٣) انظر روثشتاين
*Bericht über die Tahiriden (Orientalische Studien, Th. Nöl-
deke gewidmet)* , Giessen, 1906, I, 155 - 170.

W. Barthold, *Turkestan Down to the* انظر أيضاً بارثولد
Mongol Invasion, London, 1928, 207 - 22.

جلى في الولايات الغربية . ذلك هو عبدالله الذي استطاع القضاء نهائياً على نصر بن سُبَيْث . وكان نصرٌ هذا من انصار الأمين ، وكان قد استقل بعد وفاة سيده بأقليم حلب ، وظل على ذلك حتى سنة ٨٢٥ عندما هزمه عبدالله . ثم إن المأمون كلف ابن طاهر إقرار الأمن والنظام في مصر ، حيث كانت نار الفتنة القديمة قد اندلعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، كرتة اخرى ، إبان الحرب بين الأخوين ، وقد ناصر القيسية الأمين ، وناصرت الكلية المأمون . ولم تكد وحدة الامبراطورية تستقر ثانية ، حتى اندلعت نيران القلاقل مرة اخرى عندما اقبلت جماعة من الاندلسيين (كان قد طردهم امير الاندلس الاموي منها) واستولوا على الاسكندرية . ولكن عبدالله استطاع في فترة وجيزة إكراههم على الانسحاب إلى إقريطش ، وإقامة الآلة الحكومية من جديد . وكان ارث اخيه طلحة في خراسان قد انتقل اليه ، بعد وفاته . وكان المعتصم ، ولي العهد ، قد تولى إمارة مصر . حتى إذا نشبت فيها ثورة القبط فعجز عن قمعها وحده ، طلب المأمون الى عبدالله ان يتدخل شخصياً ويخمد نار الفتنة .

وكان المأمون يعهد بقيادة الحملات الحربية ، في اواخر ايام خلاقته ، الى كبار رجاله العسكريين ، في العادة . ومع ذلك فقد اضطر الى ان يستأنف النضال ضد البيزنطيين بنفسه . ولعل المساعدة التي واصل البيزنطيون إمداءها الى بابك ، المقيم على الثورة في آذربيجان بعد ان اخفقت جميع المحاولات للقضاء عليه ، كانت هي الدافع الذي حمله على مهاجمة آسية الصغرى في آذار سنة ٨٣٠ .

وهكذا اشترك الخليفة ثلاث سنوات متعاقبة في حملات الصيف ضد البيزنطيين [الصوائف] ، وتابع المعركة ايضاً بعد ان التمس الامبراطور توفيل * الصلح سنة ٨٣٢ عقب سقوط « لؤلؤة » ، امنع الحصون البيزنطية على الحدود قرب طرسوس . وفي آب سنة ٨٣٣ توفي المأمون في البِدْرَدُون قرب طرسوس ، في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين .

النهضة العلمية في عصر المأمون

وليس من شك في انه قد قدر للمأمون ان يخدم الثقافة الاسلامية خدمة جلي خلال العشرين السنة من مقامه في بغداد ، من طريق اهتمامه الشخصي بعلوم اليونان . والواقع ان دراسة هذه العلوم لم تنقطع يوماً من الايام في الاديرة السورية . ذلك لان لاهوت آباء الكنيسة الاغريقية ، وفي جملتهم ثاودوروس المصيصي ذو الاثر العظيم في التفسير النسطوري للكتاب المقدس ، لم يكن ليفهم من غير الرجوع الى المصطلحات التي استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الارسطوطاليسية . ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت دائماً ان تحظى ببعض الاهتمام ايضاً ، على الرغم من ان العناية بالمسائل الفكرية كانت محصورة عند السوريين في ايدي رجال الدين . وعلى الرغم من ان مدرسة الاسكندرية الطبية ، ذات الروح الفلسفية ، كانت قد لفظت انفاسها الاخيرة بعيد الفتح العربي الذي قطع ما بينها وبين بيزنطة ، فقد واصل السوريون في انطاكية وحران حماية تراثها وتسميته ، ونقلوه الى بغداد . والواقع ان اثر الكلية الطبية

Theophilus *

التي انشأها الساسانيون ، قبل ذلك ، في جُندِ يسابور * من اعمال السوس ، كان اعظم من هذه الناحية . فمن هناك جاءت اسرة بختيشوع الشهيرة بمن نجبت من كبار الاطباء ، كجرجيس ابن جبريل الذي عالج الخليفة المنصور في بغداد ، وغيره ممن لمعت اسمائهم في هذه الصناعة بعد عهد المنصور ايضاً . وفي بغداد التقى الطب اليوناني بالطب الهندي على صعيد واحد . فقد سبق لهرون الرشيد نفسه ان استدعى مرة الطبيب الهندي منتهكاً الى بغداد ، كما سبق للبرامكة ان امروا بنقل بعض كتب الطب الهندية الى اللغة العربية . ١٤ فلما كانت خلافة المأمون لقيت هذه الجهود كلها عطفاً منه ورعاية . فلقد حاول ان يجمع في مكتبة بلاطه ، الموسومة ببيت الحكمة ، كنوز العلم الاسلامية الى كنوز العلم الاجنبية ، وأمر بأن تُشتري المصنّفات اليونانية من آسية الصغرى . وفي عهده استهلّ ابو يوسف يعقوب الكندي - « فيلسوف العرب » ، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم ، كما دعاه كاردانو * سنة ١٥٥٢ - نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطاليسية والافلاطونية

* ووردت ايضاً بفتح الدال

E.G. Browne, *Arabian Medicine*, Cam-bridge, 1921.

M. Meyerhof, *Von Alexandrien nach Bagdad, ein Beitrag zur Geschichte des philosophischen und medizinischen Unterrichts bei den Arabern Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften*, 1930.

Cardano *

الجديدة من طريق الترجمة والاقْتباس فحسب، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة . والواقع ان الكندي قد أثبت أنه ابن بيئته عندما عني بالتنجيم وبكشف الغيب ، كعلمين من العلوم الجدوية الخالصة . وعلى الرغم من وقوفه موقفاً سلبياً في ما يتصل بالدعاوى الخادعة التي كان يقول بها رجال « الكيمياء » في عصره، فإنه لم يجد ايها غضاضة في ان يُعنى بتقطير العطور . ليس هذا فحسب بل لقد عني كذلك بعلم الحرب فوضع رسالة ذكر فيها ما يزيد على خمسة وعشرين ضرباً من ضروب السيوف وفقاً لمصدر انتاجها من اليمن الى سرنديب (سيلان) حتى فرنسا والروسيا ، ووصف خصائص شفراتها كل على حدة ، وعرض لبعض الفوائد في ما يتعلق باعادة طبع السيوف المفاولة ، بواسطة التبريد التدريجي ١٥ .

وحظيت الرياضيات وعلم الفلك باهتمام خاص في بغداد . فتوَّجهم الحجاج بن يوسف بن مطر للخليفة المأمون مصنفات أقليدس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بـ « المَجَسْطِي » ، وكان قد رفع إلى الرشيد ترجمة لكتاب « الأَسْطُقُسَات » (العناصر) لأقليدس . ولقد استعين في هذا الباب بالعلوم الهندية ايضاً . فقد سبق لابراهيم الفَرَازي أن ترجم للمنهصور كتاب الفلك الهندي الموسوم بـ « السِّندِ هِنْد » . ثم جاء

١٥) انظر فاليدي A. Zeki Validi, Die Schwerter der Germanen nach arabischen Berichten des 9. bis 11. Jahrhunderts, Zeitschrift der Deutsch. Morg. Ges. 90, 1937, 20

محمد الخوارزمي فاختصه للمأمون . والخوارزمي هو الذي اقتبس كتاب بطليموس في صورة الارض ، ووضع اول كتاب مستقل في الجبر . ومن هنا ، فإن اسمه لا يزال خالداً إلى اليوم في كلمة algorithm * التي تعبر عن طريقة من طرق الحساب . وكانت للمأمون ايضاً معرفة بالمشكلات العملية في علم الفلك ، فقد أمر بمراجعة جداول بطليموس الفلكية [زييج] على اساس ملاحظات أجريت في بغداد ودمشق في آنٍ معاً ، كما أمر بقياس درجة من خط الهجرة .

الحديث والتقنه

كان موقف المأمون من مشكلات عصره اللاهوتية بمثابة موقفه من العلوم اليونانية ورعايته لها . والواقع أن الجهود الروحية انصرفت ، اكثر ما انصرفت ، خلال القرنين الاولين للاسلام ، الى محاولة التوفيق ما بين المثل اللاهوتية القائمة على اساس القرآن والسنة من ناحية ، والحقيقة من ناحية ثانية . فعلى الرغم من ان مصحف عثمان قد حسم الخلاف حول نص القرآن في وقت مبكر جداً ، فقد ظلت المسائل المتعلقة بقراءة هذا النص على وجه الصحة تشغل العلماء جيلاً بعد جيل . ولقد سبق لنا ، غير مرة ، ان رأينا قارئ القرآن يتعصبون للمذاهب السياسية ، حتى اذا تعاقبت الايام احتفظوا بنفوذهم في الحياة العامة . وكان تفسير القرآن لا يزال خاضعاً ، في الأمم الاغلب ، لسلطان القضاة الذين ظهروا قبل

* ولا صلة لها بمداول اللوغارثم (logarithm) كما يتوهم بعضهم .
[المرين]

ذلك عهد الامويين ، والذين كانوا كثيراً ما يرافقون الجند ،
 أيام الحروب ، لبيعوا في نفوسهم الحماسة بما يروونه على مسامعهم
 من قصص البطولة المنتزعة من تاريخ الانبياء . أما في أيام السلام
 فكان اهل التقوى يتحلقون حولهم في المساجد ، كما كانت جموع
 المتبطلين تحتشد حول زملائهم من القصاص في زوايا الشوارع ،
 سواء بسواء . ولدينا نص يرجع الى القرن الثاني للهجرة فيفيد أن
 أحد العراقيين كان يفسر القرآن للعرب والفرس ، وقد جلس
 الاولون الى يمينه ، والآخرون عن يساره ، باللغتين العربية
 والفارسية . وإنما كان هؤلاء يستعيرون ، في معظم الأحوال ،
 مادة تفاسيرهم من القصص التامودي المفسر لحواث التوراة عند
 اليهود ، ومن الأساطير النصرانية التي انتهت الى علمهم بعد أن
 حُرِّفَتْ بسبب تعدد الروايات . ومن هذه الينابيع استقى محمد
 الكلبي أيضاً في تفسيره للقرآن ، وهو الذي تحدثنا عنه آنفاً بوصفه
 أحد رواد التأليف التاريخي عند العرب . وكان مقارن البسخي ،
 وهو أحد معاصريه (وكان اصغر منه سنّاً) قد حاول ، قبل
 ذلك ، ان يصنّف مادة القرآن التشريعية ، وان يعين معانيها
 الاصطلاحية من طريق تعريفات دقيقة . ولقد ضم هذا الجهد ، في ما
 بعد ، الى التفسير اللغوي الخالص الذي رفع لواءه القراء ، تلميذ
 الكسائي ، النحوي الكوفي . ثم جاء الطبري فوضع تفسيره
 الجامع مشتملاً على ثمرات الجهود التي بذلها جيل كامل من المفسرين .
 وكانت الأحاديث المتصلة بحياة الرسول وتعاليمه متداولة في هذا
 العهد ايضاً تداولاً يكاد يكون شفهياً خالصاً ، ولم تدوّن إلا في

الاحوال النادرة ، كجمع بعض الاحاديث التي تتعلق بمسائل خاصة ، أو التي انفرد بها راو واحد .
 أما كتب الحديث القانونية الكبرى - كصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب التي رفعتها الجماعة الاسلامية في العصور التوالي الى مقام من القداسة يكاد يُداني مقام القرآن - فلم تظهر إلا في الجيل التالي . ثم إن تطبيق سنة النبي ، اي المثل الذي ضربه في حياته ، كما تنص عليه الاحاديث ، لم يلبث ان اصبح مصدر علم الفقه ، حيث لا تزال المعاملات والعبادات ، كما هي الحال في اكثر الحضارات البسيطة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً . وبالأضافة الى المذهبين الأقدمين ، مذهب ابي حنيفة في العراق ، ومذهب مالك في المدينة ، ظهر مذهب الاوزاعي في سورية ؛ ولقد ساد فترة من الزمان في شمالي إفريقيا ثم طغى عليه المذهب المالكي . أما في سورية نفسها فلم يكذب ينشر حتى تقدم عليه مذهب الشافعي ، الذي لم تكتب له القلبة لا في الحجاز ، وهو موطن اسرته ، حيث كان لتلامذة مالك شأن كبير ، ولا في العراق حيث كانت السيادة لتلامذة ابي حنيفة ، ومن هنا حاول ان يضمن لنفسه منطقة نفوذ جديدة في مصر . وكانت وفاته بالفسطاط ، في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٢٠ . والحق ان الشافعي قد قام ببحث اوسع من أبحاث سابقيه في اصول الفقه ، على الرغم من انه شايهم في عدم الشك في سلطان التقليد . ومها يكن من شيء فقد أحس احمد بن حنبل ، في بغداد ، بانه مضطر الى التوكيد على سلطان التقليد باكثر مما فعل مالك والشافعي . ولم يلبث رفضه الجافي لأئمة خطة وسط

أن قاده الى النزاع مع الدولة . ليس هذا فحسب ، بل ان تعصب أتباعه ظل أبداً يتهدد القانون والنظام في بغداد بأشد الخطر طوال عدة قرون تلت . حتى اذا كان العصر الحديث بُعث مذهب ابن حنبل على يد الحركة الوهابية ، في شبه جزيرة العرب ، فكان في ذلك حافزاً قوياً دفع بالاسلام الذي تحجّر [مع الايام] نحو تطور أبعد .

المنازعات الكلامية

وكان النزاع على المسائل السياسية الطارئة على الجماعة بسبب خلافة علي قداى الى ظهور فرق اسلامية مختلفة . فالخوارج الذين ثاروا على علي ذهبوا في تعصبهم الى حد تكفير كل مسلم يقترب احدى الكبراء . ولقد عارضهم في ذلك المرجئة الذين قالوا بعدم جواز تكفير المسلم ، وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة ، في العالم الآخر ، لله وحده . وهذا الموقف المعتدل في ما يتصل بالسلوك الاخلاقي مكن الفقهاء المؤيدين للدولة الاموية من الرد على حدة المعارضة ؛ بل لقد كان في استطاعة علويي الهوى أن يوسعوا على انفسهم بواسطته ، فعل اي حنيفة ، على ما تقول الروايات . ففي خلافة هشام ، عندما اشتد امر الدعوة العباسية الى حد الظهور [علانية] — وان بقيت في بادىء الامر عاملة من وراء ستار العلويين ، وبخاصة فريق الزيدية المعتدل — التمس اتباع هذه الدعوة العباسية طريقاً وسطاً بين المذهبين مكنهم من ان يتخذوا موقفاً خاصاً محايداً من النزاع بين العلويين وخصامهم . ودعي اتباع هذا « الاعتزال » المعتزلة . والواقع ان هذا الاسم نفسه قد اطلق على رجلين اثنين خرجا على شيخهما المحدث الورع

الحسن البصريّ ، المتوفى سنة ٧٢٨ ، ليؤسساً مذهبين خاصين
بهما . فقد ذهب الى ان المسلم صاحب الكبيرة ليس بالمؤمن وليس
بالكافر ، ولكنه في منزلة بين المنزلتين . ويُعتبر واصل
ابن عطاء ، تلميذ الحسن [البصري] أول المعتزلة . وقد اجتذب
مذهبه عمرو بن عُبيد الذي كان أشدّ عداوة للعلوية من
واصل نفسه ، ومن هنا لم يعترف بابي بكر وعمر خليفتين
شرعيين للرسول فحسب ، بل اعترف بعثمان خليفة شرعياً ايضاً .
ولقد انتهى في ما بعد الى ان يصبح واعظاً للخليفة المنصور .
والواقع ان واصلًا وعمراً سنا حرباً عنيفة على معاصريهما جهم بن
صقوان الذي قال بالجبر ، في حين كان المعتزلة يقولون بارادة
الانسان الحرة . وائياً ما كان ، فالذي يبدو انها اخذنا عن خصمهما
هذا ، العقيدة القائلة بمخلق القرآن وصفات الله . وكان واصل وعمرو
على اوثق الصلة ، بالشاعر صالح بن عبد القدوس وحلقته ، بادىء
الامر ، ولكن خلافاً ما لبث ان نشب بين الفريقين ، فاذا بالنضال
ضد تأثير المانوية الشديد في معتقدات الطبقة المثقفة يصبح في جملة
هموم المعتزلة ومشاغلبها الرئيسية . ولم يكن للمعتزلة معدى ، في
سبيل تدعيم معتقدهم في صفات الله ، عن اصطناع الطريقة التقليدية
المتبعة في الفلسفة اليونانية ، على الرغم من رفضهم القاطع لنزعة
هذه الفلسفة بطبيعة الحال . وبينما كان ممثو السنة الحالصة يعتبرون
كلمة الله ، القرآن ، ازلية كالله نفسه ، انتهى التفكير الاعتزالي في
ما يتصل بالصفات الالهية الى الفكرة التي سبق لجهم بن صفوان
ان قال بها ، وهي ان القرآن ليس ازلياً ، بل مخلوق . ولقد وفق

المعتزلة الى ان يثيروا شوق الخليفة المأمون نفسه الى هذه النظرية واهتمامه بها حتى لقد اعلنها سنة ٨٢٧ عقيدة الدولة الرسمية ، و امر بامتحان جميع الذين يرفضون القول بها كما امتحن اتباع المانوية من قبل . وكان ضحية هذا الاضطهاد الفكري الاولي المحدث المتخرج احمد بن حنبل . وتفصيل ذلك انه بينا كان المأمون معسكراً بطرسوس في احدى غزواته للبيزنطيين اعتقل ابن حنبل في بغداد وسيق الى مقر قيادته مصفداً بالاغلال . ووافت المنون الخليفة قبل ان يبلغ العالم الاسير مقر القيادة . فلم يكن من رجال المأمون إلا ان عادوا به الى بغداد . ولكن اضطهاده لم ينقطع في عهد خليفة المأمون ايضاً . حتى اذا كانت خلافة المتوكل واشتد ساعد الرجعية استعاد ابن حنبل مكانته وحظوته . ولقد كان ثمة ميل الى اعتبار المعتزلة ممثلين لتفكير لاهوتي حر يقوم في الطرف المقابل للسنة الرشيدة . ونحن نستطيع ان نقطع ، على اساس مما بسطناه آنفاً ، بأنهم لم يكونوا اقل تعصباً من فقهاء السنة مجال ، وانهم لم يختلفوا منهم في الاساليب ، ولكن في بعض المعتقدات الخاصة فحسب .

المعتصم وحرسه

ورقي العرش بعد وفاة المأمون اخوه محمد ، وكان اميراً على مصر ، متخذاً لقب المعتصم بالله . ولم يجد المعتصم ايما معارضة ، لان الجيش الذي كان قد بايع العباس بن المأمون بالخلافة ما لبث أن انفض من حوله لدن ظهور المعتصم المفاجيء . ولكن فقدان الامن في العراق كان في ذاته دليلاً على مقدار ما اصاب هيبة الخلفاء من أذى بالغ . فلقد سبق للساسانيين ان أنزلوا ، جنوبي العراق ،

في المستنقعات الواقعة بين البصرة وواسط ، شعباً هندياً يُعرف بالزُطَّ (جَت) ، كان قد غادر موطنه الاصلية ، فعَلَ اقربائه العَجْر ، لأسباب مجهولة . وعلى الرغم من محاسنة المسلمين لهم ، إذ اصطنعوا في الجيش من غير تمييز ، فانهم لم يلبثوا ان اصبحوا عنصر فتنة وفساد ، حتى في عصر المأمون ، فعضلوا جميع المواصلات بين البصرة وبغداد ، طوال سنوات . فلما كانت خلافة المعتصم ، وجد نفسه مضطراً الى ان يتخذ اجراءات صارمة . ولكنه لم يوفق الى القضاء عليهم بصورة حاسمة ، وإجلائهم الى قلعة عين زَرَبَة ، احد الثغور في قِبَلِيْقِيَة ، إلا سنة ٨٢٥ . وكان الصراع العنيف بين العرب من ناحية ، والفرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الاولى من خلافته ، قد حمل المعتصم قبل ذلك الحين على ان يَكَلِّم امر سلامته الشخصية الى فرقة من الموالي بعضها من البربر ، وغالبيتها من الاتراك . وإنما اقبل هؤلاء الاتراك من بلاد ما وراء النهر ، إما عن طريق النخاسة ، وإما على سبيل الجزية يؤديها الامراء الوطنيون الى خزانة الدولة الاسلامية . ولقد عهد المعتصم ، حتى ذلك الحين ، بتصريف شؤون هذه الفرقة الى رجال من غير الموالي ، ولكنه لم يلبث ان ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصيين مبالغة منه في الحرص على سلامته الشخصية . والواقع ان هؤلاء الزعماء * انتهوا في وقت مبكر الى ان تكون لهم سلطة على الدولة . حتى اذا انقضت فترة

(*) ويشبههم المؤلف ، كغيره من المؤرخين ، بالحرس البريتوري الروماني .

[المرغان]

غير طويلة أصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين . وكان طبيعياً ان يتكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكاء من الرجال منذ ذلك الحين . وهكذا القى ابنُ سعد (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) ، على لسان أحد الصحابة نبوءه مفادها ان الاتراك سيردون العرب ، في يوم من الايام ، إلى بوادهم * .

بيد ان أشهر قواد المعتصم ظل ، من غير شك ، رجلاً فارسياً اسمه حيدر بن كاؤس ويدعى عادة بالأفشين نسبة الى اجداده ، وكانوا سابقاً امراء أشرو سنة في آسية الوسطى . ولقد وفق الأفشين الى القضاء على حكم بابك في آذربيجان بعد ان افتتح قلعته عنوة واستباحها في خريف سنة ٨٣٧ . وما هي الا فترة حتى انقضت الأفشين على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الامبراطورية توفيل الجزيرة وشمالى سورية . وهزم الافشين الامبراطور ، واستولى على عمورية ، في غلاطية ، بعد أن لجأ ، إثر حصار متطول ، إلى الخدعة . ولكن من الجائز جداً أن تكون هذه الانتصارات

* جاء في الحديث : « ان أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صفار الأعين ، كأن وجوههم الجحف (ثلاث مرهات) حتى يلحقوهم بجزيرة العرب . أما السائقة فينجو من هرب منهم . واما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض . واما الثالثة فيضطلمون كلهم من بقي منهم . قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال الترك . أما والذي نفسي بيده لتربطن خيولهم الى سوارى مساجد المسلمين . وفي رواية عن ارقم بن يعقوب زيادة : كيف اتم اذا خرجتم من ارضكم هذه الى جزيرة العرب ومنابت الشيخ .

رواه احمد في المسند ، وابو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرک ، والبيهقي في الدن ، وسعيد بن منصور في سننه ، ورواه ابو داود في سننه مختصراً ، وغيرهم .

[العربيات]

بالذات هي التي أثارَت حَسَدَ الخليفة له. وعلى الرغم من أنه احبط،
بعد رجوعه من حرب البيزنطيين، مؤامرة جديدة هدفت إلى تنصيب
العباس بن المأمون خليفة، فقد اتهم بالارتداد عن الإسلام سنة
٨٤٠ وحبس في بناء خاص. ثم منع عنه الطعام إلا القليل
حتى مات، إذ لم يجزوا أحد على أن ينزل به عقوبة الصلب المألوفة.

بناء سامرا

وإذا كان هرون الرشيد قد آثر في السنوات الأخيرة من حياته
أن يفرغ إلى الرقة، البلدة الريفية الصغيرة الواقعة على الفرات، اجتناباً
لصخب بغداد، فقد عزم المعتصم على أن يثبته، سنة ٨٣٦،
مقراً جديداً لنفسه في سامرا، القائمة على الضفة اليمنى من دجلة،
على مسافة مائة كيلو متر إلى شمال بغداد. ولعل الأذن العربية
توهمت أن اسم سامرا الفارسي يخفي في طياته نذير شؤم فحرف في
الاستعمال الرسمي إلى «سر من رأى». وعهد المعتصم في بنائها
إلى أسناس، أحد قواده الأتراك، فأنشأ فيها قناتين متفرعتين
من دجلة نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة، بالإضافة إلى
النهر نفسه، منعة الحصن البحري. وكانت المدينة تنتظم، من قبل،
ثمانية أديرة نصرانية. ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم، أولاً، حتى
إذا جاء من بعده خلفاؤه، وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن،
حاولوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة. وعلى الرغم من أنه
لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة، التي أقيمت خلال تلك الفترة
القصيرة من الازدهار، إلا خرائب وأطلال، فالحق أنها تقدم لنا
صورة عن فن العمارة في العصر العباسي هي أنبض بالحياة من تلك

التي تقدمها لنا بغداد ، حيث عبثت أيدي الاجيال المتأخرة بما ثبت من آثارها في وجه الاعصار المغولي . والواقع ان المعماريين المسلمين اعتمدوا في الشرق ، كما اعتمدوا في الغرب ، التقاليد القديمة ، سواء بسواء . فقصر الخليفة المتوكل الموسوم بـ « بلكواري » — وهو اهم بناء لا تزال أساسه محفوظة لنا ، في سامرا — إنما شيد على طراز قصور المدائن الفهلاوية من حيث التصميم العام ، وتخطيط المساحات وشكل الواجهات . وهو مستطيل ، يبلغ طول كل من جانبيه ثلثي الميل تقريباً . وعلى الجهة الغربية ، المنحدرة نحو النهر مقابل السطائح ، كانت تنهض ثلاثة عقود من آجرٍ تقود إلى القسم المخصص للسكنى وقاعات الاستقبال العامة . وكانت هذه مجتمعة ، على شكل صليب ، حول أروقة داخلية ثلاثة تحيط بها عددٌ من غرف الاستقبال والحمامات وغرف الخدم . وإلى الشرق ، كانت تحاذي القصرَ حديقةٌ ذات شلالات . وإلى الشمال ، كانت بركة ماء عظيمة تتوسط السرايب والآبار . وحول القصر كانت تقوم مساكن للحاشية وثكنات للحرس . أما مهندسو الجامع الكبير فتأسوا أثراً أعرق وأوفر حظاً من جلال القدام . ذلك بأنهم بنوا مئذنة هذا الجامع فوق قاعدة طولها ٣٢٨ ياردة ، على طراز الأبراج البابلية ، ذات السلم [الخارجية الملتوية] ، وهي « الزكورة » . والحق أن الموارد العظيمة التي كانت لا تزال في متناول هؤلاء المعماريين ، على الرغم من ان الامبراطورية كانت في ذلك الوقت قد اخذت في الانحطاط ، لتظهر لنا اوضح ما يكون الظهور من مساحة هذا الجامع الهائلة حقاً . فهو بمثابة مستطيل

انحلال الخِلافة ونشوء الدويلات

كان القواد الاتراك قد انتهوا في عهد ابن المعتصم وخلفه ،
الواثق بالله ، (٨٤٢ - ٨٤٧) الى غاية من النفوذ في بغداد حتى
لقد اضطر الخليفة الى ان يخلع على أشناس لقب السلطان ، وبذلك
اعترف له بمقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الحاصلة . حتى اذا توفي
الواثق في سن مبكرة ، كان وصيفه ، خلف أشناس ، قد أمسى
من القوة بحيث يستطيع ان يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه .
والواقع انه نصب بادىء الامر محمد بن الواثق ، وكان لا يزال
دون سن الرشد ، خليفة على المسلمين ، بالاتفاق مع السلطات المدنية
العليا ، من غير شك . وائياً ما كان ، فسرعان ما استبدل بمحمد
هذا عمه جعفرأ المتوكل على الله . ولكن الخليفة الجديد ما لبث ان
حاول التخلص من نفوذ « صانعي الملوک » . وكان ابن الزيات من
العاملين ضده ، فانتقم منه بعد انقضاء ثلاث سنوات على ولايته .
وكذلك قضى على القائد التركي إيتاخ الذي سبق له ولوصيف ان
ساعداه على ارتقاء العرش .

المتوكل وابناؤه

وكان المتوكل يرجو ان يتخذ من الشافعية ، وهم من اهل

السنة ، عضداً يجابه به العلويين الذين ما انفكوا يناضلون دون غاياتهم وامانيهم . وكان مستشار المأمون ، قاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد ، الذي فلج بعيد تولى المتوكل أمر المسلمين مباشرة ، قد تخلى عن منصبه لابنه محمد . ولكن المتوكل لم يلبث ان اعتقله واخوته ، في السنة الثانية من خلافته ، وصادر ممتلكاتهم جميعاً . ثم انه عهد بقضاء القضاة الى يحيى بن اكرم ، الشافعي المذهب ، الذي سبق ان كانت له مكانة مرموقة عهد المأمون ، ولكنه اضطر الى ان يقنع ببعض المناصب ، في الولايات ، بسبب من كراهيته للمعتزلة . وفي سنوات ولايته الثلاث ، وكانت هذه اقصى ما سمح به جشع المتوكل ومكره ، احدث يحيى انقلاباً كاملاً [في الشعائر المتبعة] . فقد هدم قبر الحسين في كربلاء ، ومنع الناس من اتيانه . وأطلق سراح جميع الفقهاء الذين كانوا قد زجوا في السجون لعدم تبنيهم عقيدة خلق القرآن ، وفي جملتهم احمد بن حنبل ، وأحرّم البحث في هذه المسألة والجدال حولها . وكان على اهل الذمة الذين مثّلوا دوراً عظيماً في بلاطات اسلاف المتوكل ، بوصفهم علماء وبوصفهم اطباء على الخصوص - والذين لم يكن في ميسور المتوكل نفسه الاستغناء عنهم بالكلية - ان يعانون الاضطهاد في ظل هذا العهد البعيد عن التسامح . فقد أمر المتوكل بهدم البيع النصرانية واليهودية المحدثه في بغداد ، وبأخذ النصارى واهل الذمة كلهم بتصوير علامات معينة مهيئة على ما ظهر من لباسهم ، وبالاقصاء في مراكزهم على البغال والحمر دون الخيل والبوازين . وكان المتوكل قد عقد ولاية العهد ، في مستهل خلافته ، لابن

الأكبر ، [المنتصر] ثم لابنيه الأصغرين [محمد المعتز و إبراهيم المؤيد] من بعده . ولكن الفتح بن خاقان ، الأثير عند المتوكل ، أوغر صدره على المنتصر فقدم عليه أخاه المعتز في ولاية العهد . والواقع ان شوكة القواد الأتراك استعصت حتى على محمد [بن عبد الله] بن طاهر الذي أسندت اليه ولاية الشرطة في بغداد ، سنة ٨٥١ . وإذ لم يكن الخليفة المسرف قادراً ابداً على استجابة مطالب حرسه فقد حاول سنة ٨٥٨ اجتناب سيطرتهم ، بأن جعل دمشق حضرته . ولكنه لم يلبث ان بارحها عائداً الى العراق . حتى إذا تكشف المتوكل بعد ذلك عن حماقة وقصر نظر فحاول مصادرة ممتلكات القائد وصيف في بلاد الجبال ، تأمر هذا الأخير مع ولي العهد ، المنتصر ، على قتل المتوكل . ونفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون الاول سنة ٨٦١ في « الجعفري » وهو القصر الذي كان المتوكل ، قد اقامه على ابواب سامرا ، قبل ذلك بفترة غير طويلة .

ولم يستطع المنتصر ، قاتل ابيه ، ان يحافظ على العرش اكثر من ستة اشهر ، بذل خلالها جهوداً عقيمة لاستخلافه لنفسه من طريق اكراه اخويه [المعتز والمؤيد] على التنازل عن ولاية العهد ، ومن طريق محاسنة العلويين . وبعد ان قتله الأتراك بالسّم رفعوا الى العرش ابن أخي المتوكل : احمد المستعين بالله . حتى اذا حكم اربع سنوات ، ليس غير ، فقد سلطته التي كانت قد تقلصت فعلاً الى طيف من الخيال بسبب من النزاع المستمر بين امراء الجيش الأتراك . فقد اضطر بئساً ، الذي كان له فضل تنصيبه خليفةً ، الى أن يفرّ معه من وجه الخصوم الى بغداد ، في

حين رُفع المعتز ، الى عرش الخلافة ، في سامرا . وحاول محمد
[بن عبد الله] بن طاهر الذي كان المستعين قد عينه اميراً على العراق
والمدينتين المقدستين ان يُنجد سيده المحاصر في بغداد ، ولكنه لم
يلبث بعد خلاف نشب بينه وبين بُغا ، ان انقلب عليه . وهكذا
لم يهد في ميسور المستعين أن يثبت في بغداد ، فاضطر الى خلع نفسه
في كانون الثاني سنة ٨٦٦ ، ليقتل في تشرين الاول من السنة نفسها
في واسط .

وحاول المعتز أن يتخذ من حرسه المغاربة اداةً لمقاومة الاثراك
الذين كان لهم ، على كل حال ، الفضل في ارتقائه كرسي الخلافة .
ولكن الاثراك لم يلبثوا ، بعد ثلاث سنوات ونصف ، ان خلعه
عن العرش لعجزه عن سد حاجتهم الملحة الى المال . والحق ان
خلفه ، محمد المهدي بالله بن الواثق ، سعى عبثاً الى اجتناب مصير
اسلافه ، فاختصر نفقات القصر لكي يُعيد الى الجهاز المالي المضطرب
شيئاً من النظام الذي فقده . واياً ما كان ، فقد قُتل في معركة
ضد موسى بن بُغا ، وهو لما يُتم السنة الاولى من ولايته .

ثورة الزنج في العراق

أما ما انتهت اليه الحكومة المركزية ، في ذلك العصر ، من
ضعف بسبب من استبداد أمراء الجيش وتبدل الحكام المتواصل ،
فيبدو لنا أوضح ما يكون اذا عرفنا ان دولة سُطّار من العبيد
الهاربين من سادتهم قد ظهرت تحت سمع هذه الحكومة وبصرها
وعلى ابواب العاصمة نفسها تقريباً ، فألقت الهول والرعب في العراق
كله ، سنواتٍ بكاملها . وتفصيل الامر ان جماعة من زنج افريقية

الشرقية كانوا يعاملون ، لمصلحة بعض المتعبدین البصريين في كسح
 السباخ العظيمة القائمة قرب البصرة . فظهر رجـال فارسي
 اسمه علي بن محمد - وكان يزعم انه ينتسب الى علي وفاطمة من
 طريق زيد بن علي (من اجل ذلك فمن الجزان تكون
 نسبه هذه حقيقية ، لما كان عليه بيت زيد بن علي من كثرة العدد
 آنذاك) ودعا الزنج الى الخروج على مستثمريهم . والذي لاشك
 فيه أنه لم ينادِ بشيء من الاصلاح في الاحوال الاجتماعية ، ولكنه
 اكتفى بأن وعد هذا الشعب المظالم - والعبيد في جملتهم - وعداً
 قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم . وهو لم يصدر في
 دعوته على اساس من حقوق أسرته بل جاهر بعقيدة الخوارج
 التي ترفض كل تمييز قومي ، والتي بدت ، من غير شك ،
 سائقة عند اتباعه ، على الخصوص . وإنما ظهر علي بن محمد
 هذا اول ما ظهر ، في ١٠ ايلول سنة ٨٦٩ ، وما هي إلا فترة
 وجيزة حتى استولى على ضواحي البصرة . وسيروت عليه حكومة
 بغداد الجيش بعد الجيش ، فهزمت جميعاً ، خاصة وان المرتبة من
 الزنج انحازت عموماً الى جانبه . كذلك لم يكن لسكان البصرة ،
 الذين نفروا بأنفسهم لحربه في ٢٣ تشرين الاول سنة ٨٦٩ ، طاقة
 على الثبات في وجه شجاعة رجاله الضارية . وسرعان ما قامت على
 قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها ، بسبب
 من تعدد القنوات الصغيرة والمستنقعات القائمة حولها ، بلدة جديدة ،
 هي « المختارة » - ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع اولاً ثم
 جهزت بالفنائم العظيمة التي استولى عليها . وهكذا بسط سلطانه

على دجلة حتى مضيه ، ثم حمل على خوزستان ^{١٦} . ولكن تحسناً كان قد طراً في الوقت نفسه ، على الموقف في العاصمة . فعلى الرغم من ان المعتمد بن المتوكل كان هو نفسه في غاية الضعف فقد ولى بعيد ارتقائه العرش سنة ٨٧٠ ، اخاه الموفق بالله ، أمر الجيش . وكان الموفق هماماً حازماً ، فلم يكذب يمكن لنفسه في سامرا ، صيف سنة ٨٧١ ، حتى سير جيشاً لقتال الزنج ، ولكنه لم يستطع أن يشتبك معهم في معركة حاسمة ، على الرغم من بعض الانتصارات الاولية التي تمت له . وكانت قبائل البسود الضاربة في الاقليم المجاور قد انضمت بدورها إلى صفوف الثائرين . وفي ٧ ايلول سنة ٨٧١ أوقع صاحب الزنج وأتباعه بالبصرة ، أثناء صلاة الجمعة ، فنهبوا المدينة الغنية ، وأعملوا السيف في رقاب أهلها — فمات منهم ثلاثمائة الف ، على ما تقول أبعد الروايات عن المبالغة — وأشعواو النيران في مبانيها . وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نديسان سنة ٨٧٢ ، فلم يقدر على شيء . واتفق ان برز من الشرقي خطر جديد ، فاضطر الموفق الى ان يترك الزنج وشأنهم ، فترة من الزمن .

بين الصفارية والظاهرية في إيران
كان الحوارج ، الذين هزموا في كل مكان تقريباً ، قد ثبتوا فترة طويلة في سجستان ، جنوب شرقي إيران ، وهي المقاطعة التي تفصل اليوم بين إيران الحالية وافغانستان . ولكنهم كانوا قد

(١٦) انظر نولدكه « A Servile War in the East » in *Sketches from Eastern History*, tr. by J.S. Black, 1892, pp. 146—175.

انخطوا إلى درك اللوصية والنهب في ذلك الاقليم النائي الذي ترك
 امره حتى في أيام هرون الرشيد للحكام الوطنيين ، فلم يُشد الى
 الى الادارة المركزية شداً محكماً . ومن هنا اضطر اهل البلاد الى
 مقاتلتهم ، دفاعاً عن النفس ، فوفق أحد زعماء الفرق المتطوعة
 لهذا الصنيع الى الاستيلاء على العاصمة وطرده العامل الذي كان
 امير خراسان ، من آل طاهر ، قد عينه عليها . وكان في خدمة هذا
 الزعيم رجل اشغل في حدائته بعمل الصُفر (النحاس) يدعى
 يعقوب الصفار . وكان يعقوب هذا من الشجاعة بمحل أوقع الرعب
 في نفوس الناس ، فعهد اليه سيده السابق بالقيادة العليا ، ليستقر
 هو في بغداد بعد أن قضى حجه الى مكة . والواقع أن اخاه
 حارل ان يُخضع يعقوب ، فلم يُوفق الى ذلك ، في حين كان
 الصقار ، الذي أمسى أميراً ، يفتح شيئاً فشيئاً مقاطعة سجستان
 برمتها ، ويسدي اليها خدمة جلي بقطعه دابر اللوصية وأعمال
 النهب . ولم تكمد تنقضي سبع سنوات على ذلك ، سنة ٨٦٧ ، حتى
 كان يعقوب قد هاجم املاك آل طاهر الجنوبية في هراة . ثم إنه
 سعى الى اكتساب عطف الخليفة ، فبعث اليه بهدايا سنوية مما كان
 قد غنمه . وانما تظهر لنا المكانة الضئيلة التي كانت الحكومة
 المركزية لا تزال محتفظة بها في تلك الامصار عندما نعلم انها نزلت
 عند رغبة يعقوب فأقطعت له ولاية كرمان المجاورة ، كما اقطعتها في
 الوقت ذاته علي بن الحسين ، امير مقاطعة فارس . ولقد حاول
 علي هذا ان يسبق يعقوب الى احتلال الولاية ، ولكن الاخير هزم
 جنده وأسر قائده ، ثم تقدم لقتال علي نفسه فهزمه في ٢٦ نيسان

سنة ٨٦٩ ، واستولى على عاصمته، شيراز . واذ لم يكن في ميسوره ان يستولي على فارس ذاتها، فقد ولي وجهه من جديد قبل المشرق وتحقق بمجد الجهاد ، من طريق نشر راية الاسلام ، في افغانستان . حتى اذا هاجم فارس كره اخرى أقطعه الخليفة بلذخ ، وطخارستان والسند ابتغاء تحويل نظره عن الغرب . وكانت احوال آل طاهر في خراسان قد انتهت ، في الوقت نفسه الى غاية من الوهن بعيدة ، فلم يكن من يعقوب الا ان أفاد من خيانة بعض اشراف تلك الديار الاستيلاء على عاصمتهم نيسابور ، في آب سنة ٨٧٣ ، استيلاءً يسيراً لم يكدر يقع فيه قتال . حتى اذا أصدر اليه الخليفة أمره بالجلء عن خراسان في الحال لم يابه بذلك الامر ، بل سار بجنده الى طبرستان التي تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين ، والتي كان حاكمها ، [الحسن] ابن زيد بن ... علي ، قد أنزل في كنفه ابن طاهر الطريد . وعلى الرغم من انه احرز ههنا ايضاً نصراً أولياً ، فقد وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب بسبب من وعرة الاقليم . فلما كان صيف سنة ٨٧٥ انقلب الى مقاطعة فارس من جديد وبسط سلطانه عليها في سهولة ويسر ، ثم تقدم غرباً عبر خوزستان . واذ كانت حكومة بغداد لا تزال منهكة في تأديب الزنج فقد حاولت ان تغريه بالرجوع من حيث أتى ، فاعترفت به والياً على خراسان والمقاطعات المجاورة ، وعلى فارس ايضاً . ولكن شيئاً لم يكن ليصرف يعقوب عن طبيته ، فتابع سيره على بغداد . فخرج اليه الموفق ، نائب الخليفة في ذلك الوقت ، بجيش عظيم ، فالتقاه عند دير العاقول ،

على نحو اثني عشر ميلاً جنوبي المدينة (بغداد) . وهنا مُني يعقوب بأول هزيمة جديّة في حياته ، في ٨ نيسان سنة ٨٧٦ . ومها يكن من أمر ، فلم يجرؤ الموفق على تعقبه حين انسحب الى تخوم العراق . وفي هذه الاثناء عرض صاحب الزنج على يعقوب عقد تحالف عسكري ، فأبى ذلك في غلظة وجفاء . ثم ان الموفق استأنف مفاوضاته مع يعقوب ، ولكن المنيّة ادركت هذا الاخير قبل ان تنتهي المفاوضات الى أيما نتيجة ، في جُندِ نيسابور ، ٥ حزيران ، سنة ٨٧٩ .^{١٧} .

وخلف يعقوب أخوه عمرو ، وكان اول امره 'مكاريباً' وبنّاء ، ثم ما لبث ان تكشف عن مواهب عسكرية عالية . وفي الحال عقد الموفق معه معاهدة أقرّته والياً على ما تمّ لآخيه فتحه من البلدان . ليس هذا فحسب بل اتقد خلع عليه ولاية الشرطة ببغداد ، وهي رتبة اسمية ، غير شك ، كانت من قبل الى آل طاهر . ولكن الحُجُستاني ، احد رفاق يعقوب التقدّماء ، ما لبث ان شق عصا الطاعة على عمرو ، في خراسان ، وهزمه في ٧ تموز سنة ٨٨٠ ، واستولى على العاصمة نيسابور . والواقع ان عمراً اضطر الى ان يخلّي له البلاد فترة من الزمان ، لينسحب الى موطنه الاصلي ، سجستان . وما هي إلا سنتان حتى 'قتل الحُجُستاني ، فبسط عمرو سلطانه على خراسان ، كرةً اخرى .

^{١٧} راجع نولدكه - Copper - Yakub the (Th. Nöldeke , « smith » in *Sketches* , pp . 176 — 206 .

وراجع بارتولد ، *Zur Geschichte der Saffariden* ، *Orientalische Studien* , I, 171 — 196 .

والواقع ان النزاع بين يعقوب الصفار والحكومة المركزية في بغداد قد افسح في مجال العمل امام الزنج الذين لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة واسط الهامة ، بل عدوا ذلك الى تثبيت اقدامهم في خوزستان . اما وقد فرغ الموفق الآن من امر الشرق ، فقد صار في ميسوره ان يستأنف النضال ضد اولئك الثائرين ، في عنف وفي حذر . وكان عليه ان ينشيء عدداً من السفن الحربية يستعين بها على مهاجمة مدينتهم ، المحوطة من جوانبها جميعاً بالقنوات . ولما نهض بعبء المعركة ابو العباس احمد بن الموفق ، الذي ارتقى عرش الخلافة بعد متخذاً لقب « المعتضد » . ولقد اكتفى بايدي الامر بانتصارات ثانوية وسعى الى ان يحصل ضباط جيش العدو ، وعامة الجند خاصة ، على القاء السلاح والتخلي عن اصحابهم . ولم يبرز الموفق نفسه الى ميدان القتال الا بعد عام واحد ، في الحزيف . وبعد ان استولى على « المنبعا » ، وهي المدينة الثانية التي انشأها الزنج ، ارتد على خوزستان لاستخلاصها من قبضتهم . وفي ربيع سنة ٨٨١ حاصر عاصمتهم نفسها ، « الخنارة » ، وانشأ قبالتها ، على الضفة الثانية من دجلة ، ولاغراض عسكرية ، مدينة جديدة دعاها « الموقية » . ونجح جند الخلافة ، في التقدم الى قلب عاصمة العدو ، غير مرة ، ولكن الموفق لم يفاخر في شن هجوم حاسم إلا في تموز سنة ٨٨٣ ، عندما انضم الى جيشه جيش لؤلؤ ، الذي خان مولاه امير مصر ، وكان قائداً لجند الشام من قبله . واخيراً سقطت المدينة امام ضربات لؤلؤ الحازمة في آب سنة ٨٨٣ ، وبذلك قضى على تلك الجماعة الخارجة التي طالما عاثت

فساداً في اغنى جزء من اراضي الخلافة .

الطولونيون في مصر
وفي تلك الاثناء كان غرب الامبراطورية قد تخلص بالكلية من نفوذ الحكومة المركزية كما تخلص الشرق ، سواء بسواء . وكانت مصر تخضع ، خلال العقود السابقة ، على العموم ، لحكم ولاة ، كان ينتدبهم الامراء العباسيون ، او القواد الاتراك ، لان هؤلاء آثروا ان يعيشوا على مواردهم في عاصمة الخلافة لكي يتسنى لهم رعاية مصالحهم عن كثب في ذلك الجو السياسي المضطرب . وفي سنة ٨٦٨ آل هذا المركز الى بايكباك التركي ، فبعث بأحمد ابن طولون الى مصر لينوب عنه في حكمها . وكان طولون في الاصل مملوكاً تركياً من بخارى ، وكان قد انتهى في عهد المعتصم الى ان يصبح قائداً لحرس الخليفة . اما ابنه احمد فنشأ نشأة عسكرية قاسية . ولقد خدم بضع سنوات في طرسوس ، على الحدود البيزنطية ، فاعجب به الخليفة المستعين في سامرا ، وعظمت منزلته عنده ، حتى لقد طلب اليه ، حين خلع نفسه من العرش سنة ٨٦٦ ، ان يجرسه في طريقه الى منفاه بواسط . ولكن احمد ترك الخليفة جلاده ، ورجع ادراجه الى العاصمة ، حيث كان الخليفة الجديد [المعتز] منهمكاً في اغداق الجوائز والهبات على انصاره الذين ايدوه فيما احدث من انقلاب . وكان بايكباك زوج ام أحمد ، في جملة هؤلاء . والواقع ان احمد قد مكن لنفسه في مصر تمكيناً حميل يارجرخ التركي ، الذي خلف بايكباك في امتلاك البلاد [واختيار اميرها] ، على ان يثبته في عمله ، ويسعى الى توثيق العلاقة معه

بتزويجه إحدى بناته . حتى إذا كانت سنة ٨٧٣ ، وصارت مصر إلى جعفر ابن الخليفة المعتمد ، بوصفها جزءاً من نصف الامبراطورية الغريقي قنعت نفسه بمبلغ معين من المال [بينابقي احمد مستأثراً بالسلطان] . واحتفظ ابن طولون في السنوات القليلة الأولى من حكمه بمدير للمال مستقل ، هو احمد بن المدبر ، الذي سبق له ان نهض باعباء هذا المنصب في البلاد منذ سنة ٨٥٦ . ولما كان ابن المدبر قد استثار كراهية الناس له بما فرض عليهم من ضرائب واقامه من ضروب الاحتكار التي أنقضت ظهر الحياة الاقتصادية ، في كثير من شعوبها ، كما استثار مخاوف الحكومة المركزية بسبب بما تم له من ثروة ضخمة وجاه عريض ، فقد نجح ابن طولون في حمل حكومة بغداد على استدعائه ، على الرغم من ان مركز العامل الذي تعينه بغداد ظل قائماً بعد ذلك دهرًا طويلاً . ومع الايام تخلص ابن طولون من سلطان العامل ، من طريق جزية معينة كان يؤديها اليه . حتى اذا عهد اليه الخليفة المهدي في إخضاع عامل فلسطين المتمرد على الدولة ، ومنحه صلاحية تنظيم جيش من المماليك ، اغتمت هذه الفرصة لانشاء جيش مستقل اتسع نطاقه يوماً بعد يوم . ولما اخذ هذا الجيش بأقصى النظام ، رغبة منه في شد عناصره المتباينة ، بعضها الى بعض ، برباط محكم . وكان من ابرز هذه العناصر فريق الروم الذي بدا خطره حتى في عهد ابن طولون نفسه ، ثم تعاضم في عهد خلفائه ، بصورة مُريعة ، بعد ان فاق العناصر الاخرى عدداً . ومن ثم صار في وسع ابن طولون ان يحتفظ لنفسه بثروة البلاد ، وقوامها الزراعة وصناعة النسيج

المزدهرة ، وان ينمي هذه الثروة في اطراد ، من غير ما إساءة
 الى الحياة الاقتصادية العامة . أما شؤون العدل فكانت ، وفقاً
 للعادة التركية ، منوطة بقضاة يعينهم هو ، وبذلك كان جائزاً أن
 يظل منصب القاضي شاغراً ثماني سنوات متلاحقة . والحق ان غنى
 القطر المصري قد يسر له مضاهاة الخليفة في أبهة البلاط وفخامته .
 فأنشأ ، على طراز سامرا ، مدينة جديدة ، اختطها شمال شرقي
 العاصمة المصرية القديمة الفسطاط (القاهرة القديمة) فوق رقعة من
 الارض أقطعت لضباطه وموظفيه ، ومن هنا اسمها : القطائع .
 وكانت تسيطر على هذه المدينة الجديدة قلعته القائمة على الجرف
 الذي تكلمه اليوم قلعة صلاح الدين . ولقد نقل الى مدينته هذه حضارة
 العراق وفنونها . وكانت هذه ، كما اسلفنا ، مزيجاً من العناصر
 الفارسية والهلنسية .
 وعندما استبد الموفق على اخيه ، بعد ان قام بأمر الدولة مدة ،
 بذل غاية الجهد لتدعيم سلطة الحكومة المركزية في مصر ايضاً .
 و ومع أن احمد بن طولون وافق على أن يزيد مقدار الجزية بعض
 الشيء ، فقد ابى الانصياع لما أمره به الموفق من التخلي عن منصبه
 لأمير سورية ، أما جور . ليس هذا فحسب ، بل لقد تقدم هو نفسه
 الى سورية ، عقب وفاة أماجور سنة ٨٧٧ ، حيث اخذ بين الطاعة لنفسه .
 وإذا كان الموفق ما يزال في شغل شاغل بأمر الزنج في العراق فقد
 اضطر إلى ان يدع ابن طولون يتابع سيره على سورية ، في هدوء .
 ثم إن لؤلؤاً ، الذي كان ابن طولون قد خلفه أميراً على سورية ،
 فضرب في اثناء امارته هذه نقوداً باسمه — بسداله ان يخرج على

مولاه سنة ٨٨١ ، مخافة ان يسلبه منافسه جزءاً من اراضيه ، في ما يظهر ، فانضوى تحت راية الموفق . فلم يكن من ابن طولون إلا ان دعا الخليفة الى تحرير نفسه من وصاية اخيه ، والأقبال عليه في مصر . ثم إنه توجه الى سورية ، حيث كانت الثورة قد اندلعت نارها على الحدود البيزنطية . وحاول الخليفة المعتمد ان يفرّ من الرقة ليلحق به ، فجيل بينه وبين ما حاول ، في اللحظة الأخيرة . وكان ابن طولون ابعده ما يكون عن التفكير في حرب الموفق إرضاء للخليفة . ومع ذلك فقد أعلنه العداوة بأن قطع الخطبة له كولي للعهد . فكان جواب خصه عن هذا التحدي أن أمر بلعنه في المساجد . ولكن الموفق ايضاً كان أميل الى الأخذ بتسوية سلمية للخلاف ، ومن اجل ذلك رفض أن يقدم للؤلؤ ١٨ ، عتيق ابن طولون ، جيشاً يفزو به مصر . ليس هذا فحسب ، بل لقد شرع في المفاوضات مع أحمد ، ولكن المنية عاجلت هذا الاخير ، في شمالي سورية ، (آذار سنة ٨٨٣) قبل ان تنتهي المفاوضات إلى اتفاق . واضطرّ العباس ، ابنه الاكبر ، الذي سبق أن ثار عليه يوماً ، والذي كان بغيضاً للجيش بقدر ما كان بغيضاً لبطانة أبيه ، إلى ان يقسم بين الولاة لأخيه الأصغر ، خمارويه ، وكان ذلك آخر العهد به . واعتقد الموفق أن من اليسير جداً التغلب على هذا الامير الغرّ فقطع مفاوضات الصلح . والواقع ان عامل الموصل من قبل احمد بن طولون انضمّ الى عامل دمشق ، وابى أن يُقسم لخمارويه بين الطاعة فتصدّت له قوات خمارويه ووقعت بجنوده هزيمة

(١٨) وكان الموفق مديناً له في إخضاع الزنج .

أولى ، فيما كانوا يعسكرون على العاصي حتى ينسلخ فصل الشتاء .
بيد ان الموفق ما لبث أن بعث بابنه احمد - الخليفة المعتضد في ما
بعد - على رأس جيش لنصرة الثائرين ، فمني المصريون بهزيمة شديدة .
وإذ لم يكن في ميسور احمد وحليفه ان يتفقا على قسمة الغنائم ،
فقد أمسى احمد وحيداً في الميدان - بعد ان تخلى عنه حليفه -
وليس معه في ما يظهر غير اربعة آلاف رجل . وفي هذه الاثناء
(ربيع سنة ١١٨٥) سار خمارويه الى فلسطين على رأس سبعين الف
مقاتل استوفوا حظهم من الراحة ، واشتبك مع جند الخلافة
في معركة دارت في مكان يُدعى الطواحين قرب الرملة . ولم يلبث
خمارويه أن ادرك انه خسر المعركة ، بالرغم من تفوق جيشه العددي ،
فرجع أدراجه الى مصر . ولكن خصمه لم يحسن الاستفادة من النصر الذي
تم له . فلم يكذب يصطدم بمقاومة جديدة حتى رجع ادراجه الى دمشق .
حتى إذا لم يلاق فيها حفاوة ما ، سار الى طرسوس . وإذ اصطدم
بمقاومة هنا ايضاً غادر الميدان كله خمارويه . وهكذا أصبح في وسع
خمارويه أن يتفرغ لحرب خصومه الآخرين في سهولة ويسر .
وفي سنة ١١٨٦ عقدت بين الفريقين المتنازعين معاهدة صلح ضمنت
للتولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام والشغور طوال ثلاثين
سنة ، مقابل جزية هزيلة يؤديونها . وفي خلال السنوات الاربع
التالية وقعت بين خصوم خمارويه السابقين منازعات افسحت أمامه
مجال التوسع ، حتى لقد ضم الى سلطانه الموصل ايضاً . وفي سنة
١١٩١ توفي الموفق ، وبعد عام مضى على اثره الخليفة المعتضد ، فخلفه
احمد بن الموفق متخذاً لقب المعتضد بالله . وعقد خمارويه مع المعتضد

معاهدة جديدة مَهَرَهَا بزواج ابنته [قَطْرَ الندى] من الخليفة ،
على الرغم من أن هذا الزواج لم يتمَّ فعلاً إلا بعد سنتين (١٨٩٦)
عندما جازت الأميرةُ سنَّ الثانية عشرة . والواقع أن أهبة الجهاز
الذي جهَّز به أميرُ مصر بنته أذهلت بلاط بغداد ، الذي اعتاد
منذ فترة غير قصيرة حالاً هي أقرب الى الضيق منها إلى السعة ،
ودعت الى رواج إشاعة تقول بأن الخليفة لم يُقبِل على هذه
المصاهرة مع خمارويه إلا ابتغاءً لإفقاره . وليس من شك في أن
إسراف خمارويه استهلك جزءاً كبيراً من ممتلكاته . حتى لقد آلَ
أمر الطولونيين الى الضعف بُعِيدَ مقتله في دمشق ، اوائل سنة
١٨٩٦ ، لأسبابٍ تتصل بفضيحة نسائية على ما يظهر . ولم يكد
خالفه ، ابو الجيش ، ينهض بعبء الحكم من بعده حتى تخلَّعه
أخوه هرون قبل ان تنقضي تسعة أشهر على ولايته . ولم يكن
هرون بقادرٍ على أن يقاوم ، مقاومةً فعالةً ، جيوش القرامطة
التي شرعت تعيث في سورية فساداً . وعندئذ التمس الدمشقيون
انفسهم من الخليفة المكتفي (وهو الذي ارتقى العرش بعد المعتضد)
أن يُنجدهم بجنوده . حتى إذا أعاد المكتفي الأمنَ الى نصابه في
تلك الديار ، لم يبقَ من مبرر للأبقاء على الطولوني المستضعف .
وفيما كان اسطول من السفن الحربية يبجر من قيليقية الى الدلتا
كانت الجيوش العراقية تتقدم الى مصر عبر فلسطين . فلما
سقطت دِمياط ، قتل هرون انسابؤه في مقره بالعباسة ، ٣٠
كاون الاول سنة ٩٠٤ . وفي ١٢ كانون الثاني ٩٠٥ ، سقطت
الفسطاط . أما « القطائع » التي بناها أحمد فدكت دكا ، وسيق

الباقون من افراد أسرته الى دار الخلافة ، بغداد . قديم قديمه
(٢٣٨) جامع ابن طولون
وبدت ايام الطولونيين ، بالنسبة الى ما حققه آمن خلفهم في
الحكم ، عهداً ذهبياً في اعين الاجيال اللاحقة . فحسنت احوال
الناس المادية وازدهرت ازدهاراً فائقاً بفضل سياسة احمد المالية
الرشيدة ، التي ازلت كثيراً من المظالم ووضعت فوق كل شيء ،
هداً لاستغلال البلاد لمصلحة المستثمرين الغرباء . ومع انه لم يسلم
لنا ، بسبب من تدمير مدينة القطائع ، اي من منشآت خمارويه
العمرانية الفخمة ، فقد حفظت لنا الايام جامع ابن طولون ، الذي
شيده احمد مؤسس الدولة الطولونية ، في غضون سني ٨٧٦-٨٧٩
والذي لا يزال يكشف لنا بوضوح ، على الرغم مما انزلته به يد
الزمان من اذى ، عن حقيقة النشاط الفني في ذلك العهد ومداه .
وانما شيد ابن طولون جامعه هذا على طراز جامع سامراً الكبير ،
وان تكن سعة الاول لا تعدو نصف سعة الآخر . فثمة خمسة
صفوف من الدعام تحترق صحن الجامع الرئيسي ، واحد منها اليوم
في حال خربة ، في حين تحترق ساحاته المحاذية نافذتان ذواتا قواس
مدبية واعمد صنيعة في الزوايا مندجبة في الحائط بين الدعام
والجدران الخارجية . وتتألف هذه من الآجر ، وهي مغطاة بخص
زينت سطوحه البيضاء بجواش مجرمة . وبالإضافة الى النوافذ ترى
حنيات مدبية متوجة باكاليل متعددة الزخارف بارزتها . ومن
الحائط ينبثق الحراب ، ولا تدخل نصف دائرته الاخطوتين في
الحائط . وتحيط بثلاثة من جواربه ، بين جدرانها والسور الخارجي ،

أروقة مكشوفة تسمى الزيادات ، نقيه من عابري السبيل . أما
المئذنة - وهي نسيج وحدها في فن العمارة الاسلامي - فقد انشئت
على طراز سامراوي . وهي تنهض خارج الجامع ، في طرفه
الشمالي . والواقع ان بناءها القائم من الحجارة الكاسية لا يتكشف
عن الشكل اللولبي المألوف في العراق ، ولكنه مفرغ في صورة
مربع كأبراج الفرس الجوسية القديمة ١٩ .

ظهور الزيدية في جنوبي بلاد العرب

ولئن كان في استطاعة حكومة بغداد ان تفتح مصر من جديد ،
بعد ان استقلت عنها زهاء اربعين سنة ، لقد فقدت بالكلية ، وفي
الوقت نفسه تقريباً ، سلطانها على بلاد العرب الجنوبية . ففي
ذلك الاقليم النائي من الامبراطورية ، عجز الاسلام
عن تعديل الأحوال الاجتماعية والسياسية تمديلاً جوهرياً كاملاً .
ذلك أن الحكام الارستوقراطيين ظلوا يحتفظون بقلاعهم ويفرضون
سلطتهم على مناطق نفوذهم ، كما كانوا يفعلون عهد سبأ وحمير ،
من غير أن يجدوا معارضة من مثل الخليفة في صنعاء ، ما داموا
يؤدون نصيبهم من الجزية في شيء من الاطراد . ولقد ترك لنا
احد هؤلاء الحكام المحليين - وهو الحسن الهمداني الذي توفي في
سجن صنعاء سنة ٩٤٥ بعد اشتباكات متلاحقة مع القرى السياسية
المسيطرة على طبقته الارستوقراطية - صورة عن موطنه المستغرق

(١٩) انظر ديز ، *Die Kunst der islamischen Völker* ،
44 ff.

وانظر ايضاً زكي محمد حسن *Les Tulunides, Etude de l'Egypte
Musulmane à la fin du IX siècle* ، 868 - 905 ، Paris ، 1933 .

في الافتخار بأبجاده الثقافية القديمة التي ليس لايٍّ من الأقاليم
الاسلامية ما يضارعها ، وذلك في كتابه « الأكيل » و « صفة
جزيرة العرب ». والحق أن الحكومة العباسية قدرت من الخير، فترة
من الزمان، ان تشجع نشوء القوى المحلية إلى جانب عمالها الرسميين .
يدلك على ذلك أن المأمون ، بعد ان اخفقت سياسته العلوية ،
وجه إلى بلاد العرب الجنوبية قوات خراسانية تحت قيادة جندي
مجرّب اسمه محمد ، وكان يدّعي النسبة إلى زياد ابن أبيه اخي معاوية
لأبيه وامير العراق ، فوفق محمد هذا الى اخضاع المقاطعات
الساحلية حتى الشَّجَر في حضرموت ومشارف البلاد لسلطانه ، في
حين ظلت الاراضي الجبلية خاضعة للحاكمين في صنعاء . ومن مقره
في زبيد استطاع هو وأعقابهُ أن يحتفظوا بسلطتهم في البلاد طوال
مائة وخمسين عاماً ، وإن لم يستقر لهم الامر دوماً . ومهما يكن
من شيء ، فقد كَبِهَتْ سلطة خلفه الثاني كبحاً شديداً على يد
يعقُز بن عبد الرحمن ، احد الاشراف المحليين الذين شقوا عصا
الطاعة على عامل المعتصم . ولقد استطاع يعقز من مقره في شبام
أن يبسط سلطته في اتجاه الجنوب ، في حين وُفق ابنه الى حمل
الحكومة المركزية على الاعتراف به أميراً على صنعاء . ولم يلبث
العلويون أن أدلوا دلوهم بين الدلاء . فقد ظهر دعاة القرامطة ،
وسياقي ذكرهم قريبا ، في المناطق الجبلية النائية ، ولكنهم عجزوا
عن الاحتفاظ بمرکزهم طويلاً ، وان لم ينقطعوا عن بث دعايتهم
الدينية السياسية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد نجح احد
اعقاب زيد بن علي في ان ينشيء لاسرته سلطة هناك استطاعت ان

تصعد لعاديات الاجيال والقرون ، ولا تزال الى اليوم تؤلف
عنصراً قوياً في تاريخ بلاد العرب . فبعد ان اخفقت المغامرة التي
نهض زيد بعينها ، في العراق ، ابتغاء القضاء على سلطة الخليفة الاموي
هشام ، انسحب اعقابه الى المقاطعات الواقعة في اطراف الامبراطورية .
واتفق ان كان اشرف طبرستان ومازندران على الساحل الجنوبي
من بحر قزوين يلتمسون زعيماً يسندون اليه امورهم تخلصاً من جور الامراء
من آل طاهر فوضع الحسن بن زيد ، احد حفدة زيد بن علي ،
نفسه في خدمتهم . وكان ينزل في مدينة الري ، ويمتاز من اجداده
بقوة العزم وبراعة السياسة . ولقد وفق هو واعقابه ، الى ان
يثبتوا هناك مدة تزيد على نصف قرن (٨٦٤ - ٩٢٨) حفلت
بالحروب المتطاولة . كذلك ظهر من اعقاب زيد ، يحيى بن الحسين ،
حفيد القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالرّسّي نسبة الى الرّس ، وعلقت
عليه الآمال ، بسبب من علمه وورعه ، في ان يبعث اثناء امامته
اجداد البيت [العلوي] . حتى اذا تبين له ، بعد زيارة قام بها لابنائه
عمومته في طبرستان ، أن من المتعذر عليه ان يمكن لنفسه هناك
وجه نظاره نحو بلاد العرب الجنوبية حيث كانت الفوضى ضاربة
اطناها ، وكان خبر هذه الفوضى معروفاً في المدينة . وفي ١٦
اذار سنة ٨٩٧ ظهر وخسين رجلاً ليس غير أمام ابواب صعدّة
وهي الموقف الرئيسي القائم على طريق الحاج بين مكة وصنعاء ،
والباعد عن الاخيرة مسيرة خمسة ايام فقط . ومن هناك دعا الناس ، بوصفه
الامام الهادي ، الى طاعة آل الرسول . وكما ساعدت الحزازات
القبيلية ، التي دعي الرسول الى ازلتها ، على تدعيم مركزه كزعيم

للمدينة ، وكذلك وفق الهادي الى اكتساب عدد متزايد من
الاتباع بسبب من الحكومة التي اصلىح بها ما بين المسلمين والنصارى
في أسقفية نجران القديمة ، اولا ، وما بين القبائل الضاربة في تلك
المنطقة ، في ما بعد . ولكن سلطته ظلت مقتصرة على صعدة وما
جاورها ، لان القرامطة ورجال الدولة اليعفرية في جنوبي البلاد
كانوا ينازعونه نفوذه هناك . ومهما يكن من امر ، فقد ترك الهادي
لابنائها ، بعد أن توفي في ١٨ آب سنة ٩١١ ، مركزاً مكيناً لم
يلبثوا ان انطلقوا منه وبسطوا سلطانهم على البلاد كلها ٢٠ .

القرامطة

وفي عهد الخليفة المعتضد ، الذي خلف أباه الموفق في تدبير
أمر الدولة سنة ٨٩١ ثم خلف عمه على عرش الخلافة بعد عام ،
اصابت البلاد المحيطة بقلب الامبراطورية هزة جديدة سببها
حركة دينية سياسية خطيرة . فقد كان شائعاً في الاوساط الشيعية
ان كل ما يعانیه العالم من جور سوف ينقضي عندما يظهر المهدي ،
وهو الامام الاخير ، الذي ما فتىء يجيا في الحفاء ، فيملأ الارض
عدلاً ورحمة . حتى اذا اخفقت جهود آل علي المتلاحقة في سبيل
الثورة على النظام القائم ، تعلق آمال اتباعهم بانقضاء العالم في
وقت قريب . وبيننا كان فريق منهم - وهو الذي لم يتحقق
بالقوة السياسية الا في ما بعد - ينتظر ظهور هذا المهدي في شخص
الامام الثاني عشر ، انحصرت آمال الفريق الآخر في الامام السابع ،

(٢٠) راجع فان آرندونك C. van Arendonk, *De opkomst van het zaidietische imamaat in Yemen*, Leiden, 1919.

اسماعيل ، الذي توفي سنة ٧٦٢ ، قبل والده جعفر الصادق نفسه .
والواقع ان هذا الحادث ، والى حد ابعد ، تلك الصفة المقدسة التي
كان يتمتع بها العدد « سبعة » في بلاد المشرق ، هما اللذان ، هيئاً
من غير شك لهؤلاء « السبعية » أساس مُعتقدهم . ثم أُضيفت الى
هذا ، العقيدةُ الايرانية القائلة بالنعمة اللدنية ، والنظرياتُ الغنوسية
التي تعود باصلها الى النساك ، وعناصر من الفلسفة اليونانية واخرى
من المانوية - ديانة الطبقة المختارة - لتُصهر في عقيدة باطنية تتلاءم
مع الميل المعروف في الشرق الى تأسيس الجمعيات السرية - ذلك
الميل المتوارث عن جنس الشرق الادنى ، والذي كثيراً ما استغله
المحرضون طمعاً في الوصول الى مآربهم السياسية . وانما وجدت
هذه المعتقدات تعبيرها الادبي ، بعد قرن من الزمان ، في ما
كتبه اخوان الصفاء من رسائل هي اقرب شيء الى ان تكون
موسوعة فلسفية . ولقد نشأ القرامطة كفرقة ، اول ما نشأوا ، في
العراق سنة ٨٩٠ في المنطقة المحيطة بواسط ، حيث اخمدت ثورة
الزنج قبل ذلك بقليل . فهناك انشأ رجلٌ يدعى حمدان قرمط
(لعلها كلمة آرامية معناها « المعلم السري ») مركزاً لاتباعه
دعاه ، على غرار النبي ، « دار الهجرة » . وانما دعيت الفرقة كلها
« القرامطة » نسبة الى لقبه « قرمط » . والواقع ان الالفة
(وهي الشركة في الاموال) سادت في هذه الخلية الاولى
من خلايا تلك الحركة . فكان المريدون يقيمون « ولاءً محبة »
يتناولون فيها « طعام اهل الجنة » [البُلغة] متبعين في ذلك ، على
الارجح ، مثل فرقة الصابئة الغنوسية الاصلية في تلك الديار منذ

القدم . ليس هذا فحسب ، بل ان بعض الروايات لتذهب الى ان
 عمّدان ، وهو صهر حمدان ، قد وضع كتابا شرح فيه طريق المريـ
 د او الناجب الى بلاغات الفرقة السبعة . والغاية من هذه البلاغات
 السبعة التي رفعت بعد الى تسعة ، ان تنتهي بالمريـد الى ان يؤمن
 — من طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني — بان جمال العقيدة
 الكلي لما ينكشف له بعد ، ومن ثم الى ان يشك في أساسها .
 وبذلك يصبح خاضعاً لسلطة الامام المستتر وممثليه الذين بقيت
 اشخاصهم مكنومة عنه دوماً ، ويعلم ان كل ما اوحى به سابقاً
 من تنزيل وشرايع دينية انما يمثل حجاباً للمعنى باطني لا يدرك الا
 بالتأويل ، ليس غير . حتى اذا أعد المريـد هذا الاعداد أخذ اخيراً
 بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه ، وحرر من جميع القيود العقائدية ،
 ومن جميع أغلال القانون ، في وقت معاً . ثم ان احد الرئيسين
 [صاحب الناقفة] * الذين كان من المفروض ان يكونا مستقرين
 خارج السواد [العراق] ، استبدل بعمدان داعية اعظم نشاطاً
 منه هو زكريا الدنداني ووجهه الى سورية . فنجح سنة ٩٠٠
 في تحريك الاعراب من بني العلباء للانتفاض على الدولة الطولونية
 التي كانت قد انتهت آنذاك الى حال من الضعف بعيد جداً . ونودي
 [بصاحب الناقفة] خليفة [وتسمى بأمر المؤمنين] ابى عبد الله محمد
 وزعم انه من نسل علي . وعات القرامطة فساداً في جميع المدن
 السورية ، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق
 وحدها . وفي سنة ٩٠١ توفي خليفتهم ، فقام بالامر من بعده اخوه
 * والاخر صاحب الظهور [المربان] .

عبد الله احمد [صاحب الحال] ، ولكنه لم يلبث ان أسر ، بعد عامين ، وقتل في بغداد . وما هي الا فترة قصيرة حتى قتل زكرويه ايضاً . وكانت حكومة بغداد قد مكنت نفسها في سورية ، بعد ان تم سقوط الطولونيين ، وبذلك صار في ميسورها القضاء على حركة القرامطة هناك ، وفي العراق .

ولكن القرامطة وفقوا الى فوز راسخ في بلاد العرب . فحوالى سنة ٨٩٤ بعث صاحب الناقة ابا سعيد الحسن بن بهرام الجاني الى الأحساء في منطقة البحرين على الخليج الفارسي . فنجح هذا ، بمساندة الاعراب من قبيلة عبد القيس في انشاء دولة مستقلة هناك جعل عاصمتها المؤمنية بدلاً من هجر ، العاصمة القديمة ، وهي الخوف اليوم . وانما حكم هو وخلفاؤه في تلك الديار بوصفهم مفوضين من قبل الامام المستر ، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الاعرابي القديم ، فسمحو الشيوخ القبائل بان يشاركوا في اتخاذ المقررات السياسية . والواقع ان ابن ابي سعيد وخليفته اغار على العراق اكثر من مرة فسلب ونهب ، كما اغار على قوافل الحج (٩١٤ - ٩٤٣) . ليس هذا فحسب ، بل لقد استولى في ١٢ كانون الثاني سنة ٩٣٠ على مكة نفسها ونزع الحجر الاسود من الكعبة وانفذه الى عاصمته بالاحساء ، حيث ظل طوال ثلاثين سنة . اما محاولات القرامطة لتثبيت اقدامهم في جنوبي بلاد العرب فكانت اقل حظاً من النجاح ، كما اسلفنا ٢١ .

(٢١) راجع دي غويه *Mémoire sur les Carmathes de Bahrain*, 2nd edition, Leiden, 1880 .

وراجع ايضاً لويس *The Origins of Isma'ilism*, Cambridge, 1940 .

الصراع على الخلافة — عبدالله بن المعتز [عبدالله بن المعتز]

واستغرق هذا النضال ضد القرامطة عهد الخليفة المكتفي بن المعتض بأطـله (٩٠٢ — ٩٠٨) . [حتى اذا توفي] حاول وزيره العباس بن الحسن [بن ايوب] الجـرّجـرائي (وكان قد استبد في ايامه بجميع السلطات في الداخل ، من غير ان يحسن يوماً اصطناعها في براعة) أن يمد في عمر وزارته من طريق اختيار جعفر ، اخي المكتفي ، لخلافة المسلمين وولاية امرهم ، متخذاً لقب المقدر بالله ، وهو بعد صبي في الثالثة عشرة . بيد ان خصوم الوزير ما لبثوا ان ائتمروا به وقتلوه . ثم خلعوا المقدر وبايعوا عبدالله بن المعتز . وكان نكد الطالع أـبـى إلا ان يكون مصير عبدالله هذا كمصير ابراهيم بن المهدي قبل تسعين عاماً . ذلك بانه افرغ همته ، وهو في ميعة الصبا ، للعلم والشعر فعل ابراهيم من قبله . وكانت تترقرق على شعره اناقة ارسطوقراطية تجري على اساليب المحدثين ، واسلوب ابي نواس بخاصة ، وتهفو بين الفينة والفينة الى تقليد الشعراء الاقدمين . والحق ان الترف الذي كان لا يزال طاغياً على اوساط البلاط ، لذلك العهد ، رغم ما اصاب الدولة من ضعف سيامي ، كثيراً ما تجلج في شعره عن طريق الاناقة اللفظية . ولكنه كان الى ذلك اول من تغنى بآتي ابن عمه الخليفة المعتض في قصيدة بطولية كثيراً ما سقطت الى درك ارجوزة تسجل الحوادث وتسردها . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت اول من حاول ان يجمع في نظام واحد شتات الملاحظات التي ابداهـا بعض اللغويين المتأثرين بالفلسفة اليونانية ، في ما يتصل بالبديع ،

والتي ضمنوها عدداً كبيراً من شروحيهم للدواوين الشعرية .
 كذلك عني ابن المعتز عناية بعيدة بتاريخ الادب ، فوضع
 اول تاريخ للشعر المعاصر* . اما مدى انغماس هذا الشاعر في
 مناعم العيش وملذاته فيتضح لنا من كتابه الذي الفه في آداب
 الشراب والخمر*** . ومهما يكن من امر ، فلم يكده هذا الامير ،
 القليل الحظ ، يرتقي عرش الخلافة حتى خلعه انصار المقتدر في اليوم
 نفسه ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم (وقد عاد حديثاً من مكة ،
 وكان قد نفى إليها بعد ان خلد المعتضد صاحباً للشرطة) . واستطاع
 مؤنس ورجاله ان يردوا هجمات اصحاب الخليفة المنافس عن دار
 الخلافة في القصر الحسيني*** وان يفوزوا بالنصر بعد ان هاجمهم
 واشتبكوا معهم في معركة دارت في شوارع المدينة . وهكذا
 اضطر عبد الله الى ان يلتمس النجاة في بيت صديق له جوهرى ،
 حيث قتل في ٢٩ كانون الاول سنة ٩٠٨ بعد اثني عشر يوماً من
 استخلافه . وحاول مؤنس ان يستغل نفوذه عند الخليفة الحدث ،
 [المقتدر] ليضمن لنفسه المكافأة على ما اسداه اليه من خدمة ، ولكن
 الوزير [أبا الحسن] بن الفرات كثيراً ما حال بينه وبين النجاح في
 تحقيق اغراضه . والواقع ان المقتدر نفسه سعى مرتين للتخلص من
 هذا الرجل [اي ابن الفرات] الذي اساء الى الدولة اساءة كبرى
 مجشعه وعدم كفايته . ولكنه كان يعاود في كل مرة تسنم المنصب الذي

* « طبقات الشعراء » [المعربان]

** « الجامع في الغناء » [المعربان]

*** نسبة الى الحسن بن سهل . [المعربان]

اقصي عنه ، حتى اذا استرد منصبه للمرة الثالثة وُفق المقتدر الى
 قتله وقتل ابنه المحسن في ١٨ تموز سنة ٩٢٤ .
 مالية الدولة في عهد المقتدر
 ان معرفتنا بمالية الدولة في ظل المقتدر لتقوم على اساس صورة
 وصلت الينا عن موازنة سنة ٩١٨ - ٩١٩ . فعلى الرغم من ان
 معظم الولايات استقلت عن بغداد بالكلية فقد واصلت اداء الجزية
 اليها بقادير ضخمة . وكانت الولايات الشرقية ، في السنوات الاولى من
 الحكم العباسي ، تؤدي ما يتوجب عليها من الجزية فضة ، في حين
 كان النقد الذهبي سائداً في البلدان التي سُلخعت عن الامبراطورية
 الرومانية ، حيث مناجم الذهب المستثمرة منذ العصور القديمة . ثم
 ان الذهب المتدفق على بغداد ما لبث ان أخذ سبيله الى المشرق
 ايضاً ، فاذا بالفضة تفقد ما يزيد على نصف قيمتها النقدية الاصلية .
 حتى اذا دب الضعف في جسم الحكومة المركزية استعاد النقد
 الفضي مكانته شيئاً بعد شيء . ففي عهد المقتدر لم يُقر للخليفة
 بالسلطان الفعلي الا في العراق وخرزستان وفارس والجزيرة
 الفراتية وسورية ومصر ، في حين لم يقر له بالسيادة المباشرة الا في عُمان
 واذربيجان وارمينية . وبينما كان العراق يقدم حُرانة الدولة ، من
 طريق الحراج والرسوم المفروضة على الملاحة والانهار والمكوس
 ١٦٥٤٧٠٧٣٤ ديناراً^{٢٢} ، والولايات الشرقية تقدم ٢٨٣٠٢١٣ و٦٥٤٧٠٧٣٤
 ديناراً ، ومصر وسورية تقدمان ٩٢٤٦٧٤٤ ديناراً ، كان على الخليفة ان
 (٢٢) كان الدينار يعادل ، لذلك العهد ، ما يزيد على ستة عشر درهماً
 من الفضة .

يكتفي برقم اجمالي لا يتجاوز ٣٧٠,٢٢٦ ديناراً من آذربيجان
وارمينية . يضاف إلى هذا كله ١٥,٧٦٨,٠١٥ ديناراً من موارد
الضياح والاقواف . أما ابواب النفقات الواجبة التغطية فكانت
تنظم العناية بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وطرق الحج ،
وتحصين الثغور والتخوم ، ورواتب القضاة ، والمحتمسين (ولاية
الحسبة) ودواوين النظر في المظالم ، وأصحاب البريد في جميع
الولايات . ولكن المبالغ العظمى هي التي كانت تُتفق على بلاط
الخليفة وجنده ، ومع ذلك فكثيراً ما كان في استطاعة الخلفاء
وذوي قرباهم أن يجمعوا ثروات طائلة . ففي ابتداء عهد المقتدر
وُجد في بيت مال سلفه خمسة عشر مليون دينار كان قد جمع
المعتضد وحده تسعة ملايين منها . ومهما يكن من شيء ، فكثيراً
ما كانت الموازنة تُختم بعجز . واذ كان من المتعذر تغطية العجز
من طريق القروض ، كما هو الحال في الدول الحديثة العصرية ،
فقد جرت العادة بأن تجمع المبالغ المطلوبة على شكل غرامات
مالية تفرض على المثربين ، وهم في الأعم الأغلب من الموظفين
الذين كانوا بدورهم يبتزون اموال الشعب دون حساب . وكان
هذا الأجراء من الألفة عندهم بحيث اتخذوا له اصطلاحاً
قانونياً خاصاً هو « المصادرة » . ففي سنة ٩١٤ صادر المقتدر ثروة
أحد الصاغة ، وتقدر بأربعة ملايين دينار . ولم تكن الغرامات
المالية المرابحة بين الخمسين الف دينار والمئة الف دينار أمراً نادر
الحدوث . ولقد نتج عن عدم الأمان هذا الذي تعرضت له الثروات
النقدية أن صار امتلاك الاراضي والضياح ، بطبيعة الحال ،

وسيلة إلى تشغيل الأموال مرغوباً فيها ، خاصة وان الحراج المفروض عليها كان ضئيلاً ، نسبياً . وكانت الاراضي التي يملكها الحكام المحليون غير خاضعة ، في الجملة ، للضريبة ؛ وفي بعض الأحوال كانت تؤدي ضرائب محدودة . وكان الاثرياء كثيراً ما يقفون بتملكاتهم للفقراء ، وللدفاع عن ثغور الدولة وتخومها ، وللمدينتين المقدستين ، وما الى هذا كله من ابواب البر ، وبذلك يتخلصون من اداء الضريبة عن هذه الممتلكات ، ويقونها غائلة المصادرة . وكان الواقف يحتفظ لنفسه بإدارة ما وقفه من ممتلكات ، حتى اذا توفي انتهت الادارة الى اكبر ابنائه ، وهكذا .

ولقد نشأت في مصر ، عن هذه الاوقاف ، أوقاف ذرية صحيحة . والحق أن ام المقتدر نفسها حاولت ان تحافظ بهذه الطريقة على ما كانت تملكه من اراضٍ ، ولكنها لم توفق الى ما ارادت . وتفصيل ذلك انه بعد وفاة ابنها ، استخلف القاهر ، وهو اخو المقتدر لأبيه ، فسعى الى حملها على الاعتراف بحل اوقافها العظيمة ، ولكنها امتنعت من ذلك ، في عناد ، فلم يكن منه الا ان احضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه انه قد حل اوقافها جميعاً . بيد ان خزانة الدولة اصبحت بأعظم الاذى حين لجأ الخلفاء ، بسبب من ندرة النقد في ايديهم ، الى دفع ارزاق جنودهم بأقطاعهم الاراضي ، كما وقع لأول مرة في عهد القاهر . اما في الولايات فقد فصل فصلاً دقيقاً ما بين السلطة العسكرية والشؤون المالية ، كما سبق ان اشرنا . وكان العمال معاونون للأمرء في حكم الولايات يتمهدون بأن يقدموا الى الحكومة المركزية مقادير بعينها من المال

كضريبة تدفعها الولاية الى خزانة الدولة ، ومن ثم يعملون على ان يجمعوا هذه المقادير من جمهور السكان ، ويجمعون مقادير اضافية معها تكون بمثابة ربح شخصي لهم . وكان مساعدوهم يطبعون على غرارهم في ذلك . أما إذا وفق احد الامراء ، إلى ان يسيطر على الادارة المالية ايضاً ، كما تم لاحد بن طولون في مصر ، فعندئذ يكون سلطانه قد أوفى على الغاية . ومع الايام اضطر الخلفاء بسبب من حاجتهم الى المال ، إلى تقليد القواد الاتراك جباية الخراج في مناطق واسعة في العراق لكي يجمعوا منها ارزاق جنودهم ، ولذلك فقدت خزانة الدولة موارد تلك المقاطعات . حتى إذا ذهب الخلفاء إلى ابعد من ذلك فصاروا يعدون الى دفع أعطية القواد الصغار والجنود بالطريقة ذاتها ، منبت الخزانة العامة باضرار تجلّ عن الوصف . ذلك بان الاقطاعيين الكبار كانوا يصونون ، لمصلحتهم الشخصية على الاقل ، منشآت الري التي لا بد منها لحياء التربة واستثمارها احسن الاستثمار ، منفقين في سبيل ذلك نفقة ما تنقطع . اما الصغار منهم فكانوا يسومون فلاحهم سوء العذاب ، حتى اذا استنزفوا آخر نقطة من مواردهم اعادوا الارض الى الحكومة وطالبوا باقطاع اغني واعود^{٢٣} . ومهما يكن من امر فقد كانت الحياة محفوفة بالمخاطر ، يعوزها الامن والطمأنينة ، لا في الارياق

(٢٣) راجع فون كرمير - A. von Kremer, *Über das Ein-nahmehbudget des Abbasiden-Reiches vom Jahre 306 H (918-919)*, *Abhandlungen der Wiener Akademie*, 1887.

وراجع ايضاً يسكر - C. H. Becker, *Steuerpacht und Lehnswesen*, *Islam V*, 81-92.

وحسب ، بل في حواضر العراق ايضاً . والواقع ان حرب الزنج وغارات القرامطة عملت على شل حركة التجارة والمواصلات سنوات متطاولة . أما ترف الطبقات العليا فلم يكن يبدله من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع ، على الرغم من الاقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون ، وعلى الرغم من ان قوة النقد الشرائية كانت لا تزال على شيء من الارتفاع ، في ذلك العهد .

الصوفية والصوفيون

وكان مما يزيد في عنف الصراع الحزبي القائم بين الحكام ذلك التوتر الذي ساد علاقات الفرق الدينية والذي كان الدعاة يذكون ناره ، على غير انقطاع . ولم يقتصر ذلك على مجرد الشقاق بين الشيعة والسنة . فقد كان الحنابلة المتحرجون ما ينفكون يثيرون الخلاف بين جماعات السنة انفسهم . ومن هنا حاول اصحاب النفوس الاكثر صفاء وعمقاً الفرار بانفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية والقضايا المذهبية ، الى « طمأنينة المشاهدة » . والحق أن هذه النزعة إنما ترقى الى عهد الامويين في العراق ، حيث عمل في هذا الاتجاه كل من الحسن البصري (ت ٧٢٨) في البصرة ، وجابر بن حيان الكيمياي الشيعي ، وابو العتاهية الشاعر ، في الكوفة . حتى إذا اصبحت بغداد عاصمة الامبراطورية جمع المنصرفون الى حياة التأمل شملهم حلقات حلقات ، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها وفي الاوساط المختلفة الخاصة بهم ، وهم يحاولون ان يحركوا [في نفوسهم] الشعور الصوفي

ويصقاه بواسطة السماع (الموسيقى) . ليس هذا فحسب ، بل لقد استعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء ، التي عرفوا بسببها بالصوفية . كذلك يبدو الاثر النصراني واضحاً في شكل رياضات المشاهدة عندهم ، ولكن اصول الحركة كانت عربية و اسلامية خالصة . وانا تظهر اهدافهم الاساسية اوضح ما يكون الظهور ، في خطب الحسن البصريّ اولا ، ثم في اعترافات [وصايا] المحاسبي الذي ولد في البصرة سنة ٧٨١ ، ونزل بغداد في سن مبكرة ليموت فيها سنة ٨٣٧ . واذ قد أُلّفِي ان الاسلام في عصره ينشعب إلى فرق واحزاب متعددة فقد حاول باديء الامر ان يلتمس لهذه الامة زعيماً دينياً فلم يفلح . ثم انه ادرك — كما ادرك صاحب الشريعة الاسلامية — ان ليس في ميسور المرء ان يحظى بمخلاصه الروحي الا خارج نطاق المجتمع المحيط به ، وان الدراسة العميقة للقرآن خليقة بان تكشف له عن الطريق القويم الذي يقوده الى الله ، اذا ما اخذ نفسه اخذاً شديداً بتعاليم الكتاب [القرآن] وتأسى بالنبي في كثير من الدقة والصرامة . ذلك ان شعور المرء بانه قد حاز رضا الخالق من طريق اتباع او امره اتباعاً دقيقاً يغمر روحه بالشكران ، ويبعث في ذات نفسه حب الله . وانا يجوز الصوفي في طريقه هذا أحوالا ومقامات تقوده بالتوبة ، والصبر ، الى الانس بالله ، واخيراً الى مشاهدة الحق . ومثل هذه المحاولات لاتصال النفس بالله عن طريق غير منصوص عليها في السنة ما كان ممكناً ان تنجو من النقد والاعتراض . وعلى الرغم من ان ما ذهب اليه المحاسبي لم يكن قد اعتبر كفراً ، بصورة علنية ، فقد قال احمد بن حنبل بان صلة هذه

الآراء وثيقة جداً بالطرائق العقلية التي يتبعها المعتزلة. ثم ان الصوفية تطورت تطوراً جديداً على يد الجُنَيْد الذي تتلمذ، اول الامر، على خاله السريّ السقَطِي وتعرف بواسطته الى تعاليم معروف الكرخي الزاهد . ولكن هذه التعاليم البسيطة لم تستطع ان تحمل الى نفس الجنيد ارتياحاً باقياً الاثر. ليس هذا فحسب، بل لقد شجبت نزعة استاذة الجديدة الى ان يفرغ تعاليمه في الفاظ الفقهاء. والواقع ان نقطة الدائرة في عالمه الفكري كانت محبة الله محبةً تستولي على المرء استيلاءً كاملاً تتلاشى معه النفس كلها بالذات العليا. ثم جاء تلميذ الجنيد، الحسين بن منصور الحلاج، فطور هذه الفكرة التي كانت بمثابة النواة لكل حركة صوفية في ما بعد، من طريق التطبيق الصارم . وإنما ولد الحلاج في فارس، سنة ٨٥٨، من أب زرادشتي . وفي تسنته مجوزستان، دخل حلقة سهل التستري، وهو مفكر حرّ خلع على نظرية المحاسبي القائلة بضرورة الرجعة الى الله ثوباً من التقشف المستمر أمسى منذ ذلك الحين تقليدياً، وتحدثت عن حالة النور التي تحيط (بطريقة سرية سابقة الوجود) بأرواح جميع المؤمنين وتمتجهم الحق في أن يشعروا أنهم في اتحاد بالله، وهي صورة مستمدة من بعض المعتقدات الشيعية . ولم تلبث العاصمة، بغداد، أن اجتذبت الحلاج بزهوها ورونقها فقصد اليها ملتحقاً بالجنيد . حتى إذا صحبه نحواً من ست سنوات أغراه سهل بالانفصال عنه بما أدخله في روعه من أنه قد انتهى الى حال الاتحاد بالله، تلك الحال التي لا تزال هدفاً يتطلع اليه شيخه الجنيد . وهكذا انقلب داعياً يضرب في البلاد، وتقوده رحلاته حتى

الفند . ولقد اتصل خلال رحلاته هذه بالرازي ، أشهر اطباء
العصر ، فتخرج عليه في الفلسفة اليونانية . وتذهب بعض الروايات
إلى انه اتصل كذلك بزعماء القرامطة . وبعد ان أدى فريضة الحج
للمرة الثانية قفل الى العاصمة سنة ٩٠٨ . وسرعان ما ازداد عدد
تلامذته بسبب من عقائده الشطحية التي انتهت الى قوله بالاتحاد
بالارادة الالهية من طريق الأقبال على الالم والوصول الى الروح
الالهي بواسطة التقشف والزهد ؛ وهي حالٌ تسمح لصاحبها ،
وهو الشاهد الالهي ، بان يساوي نفسه بالحق ، ومن ثم يرتفع عنه
التكليف ويزول . والواقع ان نشاط العلاج هذا بدا خطراً جديداً
على النظام الاجتماعي المتهاافت ، ومن هنا لم يكن عسيراً على الفقهاء
ان يوغروا صدور الحكام عليه . فألقي في غياهب السجن حيث
قضى ثماني سنوات ذوى خلالها عوده وذهبت نضرتة . والحق ان
ثم المقتدر وحاجبه نصرأ سعياً في إنقاذه ، ولكن هذا الاهتمام
بالذات جلب عليه نقمة الوزير ، حامد [بن العباس] . وبعد
محاكمة دامت سبعة اشهر اصدر قضاة المذاهب كلها قراراً اجماعياً
بقتله ، فأعدم صلباً ، يوم ٢٦ آذار سنة ٩٢٢ ، في الباحة المنبسطة
امام سجن بغداد الجديد ، ثم حز رأسه وأحرقت جثته . وليس
من ريب في ان استشهاد هذا هو السبب الاول في ما تم لآرائه
بعد من ذبوع وخطر . اما مريدوه فقد فروا بأنفسهم الى خراسان
حيث مهدوا الارض لنشوء ثمرة من اطيب ثمرات الثقافة الاسلامية ،
فأعني الشعر الصوفي عند الفرس والأتراك .

امرة الامراء

كان الخليفة المقتدر عاجزاً عن تثبيت سلطته التي ما انفك القرامطة يتهددون بها بخطر شديد ، حتى بعد ان تخلص من وزيره ابن الفرات . والواقع انه التمس العون من يوسف بن ابي الساج امير آذربيجان ، فلم يعن ذلك عنه شيئاً . وفي شباط سنة ٩٢٩ اضطره هياج الجيش الى التنازل عن العرش لاختيه محمد القاهر . حتى اذا استشعر القاهر - او على الاصح ، صاحب الشرطة الذي رفعه الى العرش - عجزه عن اشباع رغبات الجند المطالبين بأرزاقهم ، استدعي المقتدر كرّة اخرى ، وكان قد لاذ بالفرار مع وليّه مؤنس . ولكن الوحشة لم تلبث ان وقعت بينها لان المقتدر استشعر انه لا يستطيع ان يثق بمؤنس الثقة كلها ، فاستعدى عليه صاحب شرطته الجلديد محمد بن ياقوت . وعلى الرغم من أن هذا الاخير قد وُفق الى اخضاع الرجال ، حامية بغداد المتمردة فقد اضطر الخليفة الى ان يبعده الى سجستان ، في تموز سنة ٩٣١ ، نزولاً عند رغبة مؤنس والحاجه . فلما كان شباط سنة ٩٣٢ استدعاه الخليفة وسيّره على رأس جيش لمقاتلة مؤنس ، الذي كان ينحدر الى بغداد من الموصل . ولكن محمداً لم يجرؤ على ملاقة مؤنس ، فانقلب الى العاصمة من جديد . وهناك لم يجد الخليفة بداً من ان يتقدم بنفسه على رأس الجند لقتال قائد جيوشه الأعلى ، الشاق عصا الطاعة . وكان المقتدر يدرك جيداً انه سيقضي في الميدان ، ومن ثم وضع السواد فوق قفطانه الفضي وارتمى فوقه البردة النبوية وشد على حقويه منطقة النبي الحراء وسيفه ، وجمال جولة قصيرة سقط على اثرها صريعاً

في ٣١ تشرين الاول سنة ٩٣٢ . ومع ان مؤسساً كان يرغب في
استخلاف احمد بن المقتدر ، الذي حارب الى جانب أبيه ، فقد
نجح محمد القاهر ، عم احمد هذا ، في الاستيلاء على ازمة الحكم التي
اقصي عنها من قبل . والواقع ان الوحشية والشح كانا ابرز خصاله .
ولقد تنافس في السيطرة عليه كل من الوزير ابن مقله ، وصاحب
الشرطة محمد بن ياقوت ، والامير مؤنس . حتى اذا حاول القاهر
التخلص من وزيره دبّر هذا الاخير مؤامرة خلعه وتنصيب ابن
المكتفي خليفة على المسلمين . ولكن المؤامرة لم تلبث ان اقتضت
فخلع الخليفة مؤسساً وامر بقتله . اما ابن مقله فلاذ بالفرار ، وطفى
بجوب البلاد ، في زي المكدين ، ليغري الناس بالثورة على الخليفة .
وكان من نتائج ذلك ان هوجم القاهر في قصره ، نيسان سنة ٩٣٤
فسمّت عيناه والقي في غياهب السجن بعد ان ابى التنازل عن
العرش . ثم ان احمد بن المقتدر رقي العرش متخذاً لقب الراضي .
ولكنه اخطر الى التخلي عن السلطة لمحمد بن ياقوت ، ثم لابن مقله
بعد ان زالت دولة محمد ، في نيسان سنة ٩٣٥ ، حتى اذا انقضى
على ذلك عام (نيسان سنة ٩٣٦) واستطاع المظفر ، أخو محمد ،
ان يلقي القبض على الوزير ، التمس الخليفة ظهراً جديداً يستند اليه [فوقع
اختياره] على محمد بن رائق وقلده لقب «امير الامراء» بعد ان عهد اليه
بقيادة الجيوش العليا . ليس هذا فحسب بل لقد عينه رئيساً
للحكومة وأمر بأن يُخطب له على المنابر ، وهو تشریف خاص
بالخلفاء واولياء العهد . وهكذا لم يعد للخليفة ، بادي الرأي ، أيما
سلطة خلا الزعامة الدينية العليا ، وهي كل ما تبقى خلفائه ايضاً .

ولكن ابن رائق اخفق في فرض سلطة الحكومة المركزية على شرق الامبراطورية ، في حين لم يوفق الى صد القرامطة عن بغداد الا لقاء جزية تعهد بادائها اليهم . وما هي الا سنتان حتى اضطر ابن رائق الى ان يخلي مكانه لـ « بَجَكَم » الديلمي الذي استطاع ان يكبح عنان الحمدانيين والبويهيين فترة من الزمان .

بنو حمدان في الموصل وحلب

في القرن العاشر للميلاد وقع عبء الحرب ضد الروم البيزنطيين على عاتق اسرة عربية النجارية الاسرة الحمدانية . وتفصيل ذلك ان حمدان مؤسس هذه الاسرة ، ورأس بني تغلب ، استطاع ان يستولي سنة ٨٩٠ على قلعة ماردين في الجزيرة العليا ، من طريق التحالف مع الخوارج . وعلى الرغم من انه وقع آنذاك اسيراً في يد الخليفة ، فقد حظي بعفو هذا الاخير عنه بعد ان هزم ابنه الحسين الخوارج . وفي سنة ٩٠٥ عين ابو الهيجاء اخو الحسين ، اميراً على الموصل من قبل المقتدر ، فظل يحكمها بقية حياته حتى توفي سنة ٩٢٩ يساعده في ذلك ابنه الحسن ابتداء من سنة ٩٢٠ . والواقع ان الحسن لم يلبث ان بسط سلطانه على الجزيرة كلها وشمال سورية . فلما كانت سنة ٩٤١ ، واضطر الخليفة المتقي الى ان يفر الى الموصل مع امير الامراء ابن رائق^{٢٤} ، بعد ان تعددت هجمات البريدي واخوته من خوزستان ، على العراق ، قتل الحسن [بن حمدان] ابن رائق وأكره الخليفة على ان يقلده إمرة الامراء ويخلع عليه لقب ناصر الدولة . ثم ان ناصر الدولة واخاه علياً الذي لقب

(٢٤) وكان قد وفق الى استعادة هذا المنصب بعد ان فقده .

في الوقت نفسه سيف الدولة ، اعاد الخليفة الى عاصمته ، بغداد .
 و ايّاماً ما كان ، فلم يكدمعز الدولة البويهبيّ يحتل بغداد سنة ٩٤٥
 حتى شن على الحمدانيين حرباً انتهت بسقوط دولتهم . وبقي ناصر
 الدولة [في امارته على الموصل وديار الجزيرة كلها والشام على ان
 يؤدي عنها جزية لمعز الدولة ويخطب فيها للبويهيين] . وعلى
 الرغم من محاولاته المستمرة للتهرب من القيام بتعهداته هذه فقد
 حافظ على مركزه الى ان قبض عليه [ابنه ابو تغلب] وحجر
 عليه بحجة عدم الكفاية وسجنه . وكان ذلك لسنة قبل وفاته في
 عام ٩٦٨ . والحق ان عهده كان اسوأ مثل للاستبداد الشرقي .
 ذلك بأن الضرائب الباهظة التي أنقضت ظهور افراد رعيته عجزت
 عن اشباع مطامعه ، فوجه همته نحو ضم الكثرة العظمى من اراضي
 البلاد الى ممتلكاته الخاصة . ولقد كان في وسع ابنه الاحتفاظ باستقلاله
 فترة قصيرة في الموصل ، حتى اذا توفي سنة ٩٧٩ فقد اخوته وذريته
 هذا الاستقلال ، بعد أن أخضعهم البويهيون والفاطميون لسلطانهم .
 بيد أن الشهرة التي حظي بها سيف الدولة ، اخو ناصر الدولة ،
 كانت اوسع وابقى . لقد ادرك ان من المتعذر عليه التمكين لنفسه
 في العراق ، بوصفه عامل الخليفة المقدّم ، ضد الاتراك والبويهيين ،
 فولى وجهه شطر سورية . فانتزع حلب سنة ٩٤٥ من ايدي الاخشيدية ،
 المتغلبين على مصر . ثم انه حاول ان ييسط سلطانه على دمشق
 ايضاً ، ولكنه اخفق ، ليفرغ من ذلك الحين المهمة التي وقف
 شبابه لها ، اعني النضال ضد البيزنطيين . وعلى الرغم من ان سيف
 الدولة اعلن الطاعة للفاطميين عندما نشروا سلطانهم على مصر ،

وبالتالي اتبع المذهب الشيعي ، فقد احتفظ بسيادته التامة في جميع ارجاء ملكه . وكان قوام الحرب ضد البيزنطيين ، في القرون السابقة ، غزوات صيفيةً ومناوشات حول الحصون والقللاع يُكتب فيها النصر للعرب حيناً وللبيزنطيين حيناً . والواقع ان أولى حملات سيف الدولة على البيزنطيين ، سنة ٩٤٩ ، انتهت الى الاخفاق . حتى اذا حال الحول أعاد سيف الدولة الكرة على الاعداء ، فكان له النصر ، وغنم مغانم عظيمة . فلما اراد العودة اوقع به الروم في مضيق صعب من جبال طورس فاستردوا الغنائم جميعاً ونجا سيف الدولة في عدد يسير ، وما كاد ونشأت على جانبي الحدود طبقة من الجنود المحترفين اقطعهم قوادم الاراضي فاستقروا فيها وتبادلوا في فترات السلم - وكانت هذه اطول من فترات الحرب - اسباب الثقافة والحضارة . والظاهر ان عامل الامبراطور البيزنطي المقدّم ، برزوس فوكاس * ، استشعر اشتداد الخطر على الامبراطورية سنة ٩٥٣ فقذف الى الميدان بجيشٍ عظيم شارك فيه الروس والبلغار والحزر ، ولكن سيف الدولة ظهر عليه بجنده وهزمه هزيمة شتعاء قرب مرّ عَش . ثم ان يوحنا تسيبتيس (الدمستق) ثار لقومه ، بعد خمس سنوات ، فاتصر على العرب في بلادهم بالذات ، غير بعيدٍ من حلب . كذلك مني سيف الدولة بهزيمة قاسية سنة ٩٦٢ على يديّ العامل البيزنطي تقفور . وسقطت حلب هي وقلعتها في ايدي الروم الذين كانوا يعيئون فساداً في الديار المحيطة بها . ومع ذلك فقد كان في ميسور سيف

* وتسمية المصادر العربية خطأ بالدمستق . [المرغان]

الدولة ان يصد هجوماً قام به الروم ، بعد عامين ، على الرغم من
فالج نصفي كان قد لحقه . وفي سنة ٩٦٧ توفي سيف الدولة في حلب ،
فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة اللذان احتفظا بحلب
حتى سنة ١٠٠٢ ، من طريق تحالف عقده مع الروم البيزنطيين
— وهم اعداء الحمدانيين القدماء — دفعاً لخطر الفاطميين المشترك ،
على الفريقين المتحالفين .

الحياة الفكرية في ظل سيف الدولة

ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله
الموفق ضد الروم ، في المحل الاول ، فليس من شك في انه مدين
بذلك ، في المحل الثاني ، لعطفه على الفنون والعلوم ورعايته لها .
وكان ابن عمه ابو فراس — الذي تولى اعمال منبج من قبله فحارب
الروم ودونها ، والذي اسره هؤلاء مرة فقتى في القسطنطينية سنتين —
شاعراً بارعاً في وسعه ان يتلاعب بالعواطف ، وخصوصاً في
قصائده الحزينة التي قالها وهو اسير [الروميات] . وله قصيدة
في مدح العاويين حظيت بمقام عظيم عند الشيعة وهي تدرس وتشرح
في اوساطهم حتى يومنا هذا . وفي سنة ٩٤٨ وفد على بلاط
سيف الدولة الشاعر المتنبى ، احد الكواكب اللامعة التي كانت
آخر ما ازدانت به سماء الادب العربي . وانما يدين المتنبى بلقبه هذا
الذي عرف به ، لهوس الشباب وطيشه اذ حاول ، بوصفه محرماً
قرمطياً ، ان يضرم نار الثورة بين الاعراب في بادية الشام بين
الكوفة وتدمر . والواقع ان مقاله من شعر حتى بعد تلك المحاولة
ظل مشرباً بالصور القرمطية ، على الرغم من شدة عنايته بتهديب

الفاظه الاعرابية التي اكتسبها من البادية. وقضى المتنبي تسع سنوات في حلب غنى فيها مآتي الامير الحمداني ، ثم فارقها بعد وحشة وقعت بينه وبين ممدوحه ، ليفزع بآماله اول الامر الى امير مصر التركي ، كافور الانشيدى ، ومن ثم الى عضد الدولة البويهى في فارس . وفيما هو عائد من تلك الديار لقي حنفة في هجوم شنه عليه نفر من اللصوص قرب بغداد . والواقع ان المتنبي التزم في شعره شكل القصيدة القديمة في كثير من البراعة ، ولكنه على تعلقه بالاساليب الكلاسيكية والتزامه اياها بشدة فائقة ، بارى القدماء ، في غنى مفرداته ، وبزهم باستعاراته الجريئة ، في كثير من الاحيان . وعلى الرغم من ان شعره كثيراً ما انتقد اعنف النقد من معاصريه — وبخاصة من المتعصبين لصفاء اللغة القديم — فقد نعمت قصائده المنبثقة عن روح عربية خالصة باعجاب العرب الاجماعي في جميع العصور ، بل انها ما تزال الى اليوم في ايدي المثقفين جميعاً ، حتى في عمان الواقعة في اقصى جزيرة العرب ، يتدارسونها ويحفظونها ، ولا يقدمون عليها اثراً ادبياً غير مقامات الحريري . وفي دمشق ، اشترك العالم العربي كله ، سنة ١٩٣٦ في الاحتفال بذكرى انقضاء الف عام على وفاته . ولم تقتصر الحركة الفكرية في بلاط سيف الدولة على الشعر والادب بل عدتها الى العلم ايضاً ، بروح ملؤها التفهم والادراك . فلمع في سماه احد تلامذة ارسطو الكبار [ابو نحر] الفارابي التركي الاصل ، الذي اتم دروسه في بغداد . ومع ان مؤلفات ابن سينا استطاعت بعد ان تخرج كتابات الفارابي من دائرة التداول الأدبي ، ومع ان النظام الفكري الذي قال به الفارابي لم يستطع

ان يحظى بسُلطان دائم في العالم الاسلامي ، فالواقع ان هذا الرجل
ليمثل ، بوصفه احد تلامذة الفيلسفة اليونانية الأكثر استقلالاً ،
ظاهرة بارزة جداً في تاريخ الحضارة الاسلامية .

البويهيون في فارس والعراق

في هذه الاثناء نشأت في شرق الامبراطورية ، وبين جمهرة من
الحكام الصغار ، أسرة جديدة كتب لها ان تمثل دوراً رئيسياً في
السياسة الاسلامية . وتفصيل ذلك ان رجلاً من الديلم اسمه
مرداويج [بن زيار] استطاع ان يقضي على الزيدية المتغلين في
طبرستان ليستقل بحكم تلك البلاد من دونهم . وكان يعمل في
خدمته رجل من مواطنيه يدعى بويه . وكان علي بن بويه حاكماً
على بلاد الكرج ، جنوب شرقي همدان . وهناك ثار على سيده سنة
٩٣٢ ، فاحتل إصفهان بعد ان أخرج منها حامية الخليفة القاهر .
ومع ان مرداويج كان لا يزال قادراً على الاقتصاص من الثاثرين
بطردهم من المدينة واعادتها الى الخليفة ، فقد وفق علي بالتحلف
مع اخوته الى بسط سلطانه في مناطق جديدة من فارس ، حتى
اذا كانت سنة ٩٣٤ استولى على شيراز ، وجعل منها مقره . وفي
سنة ٩٣٥ ، عندما تمرد جند مرداويج الاثراك عليه فقتلوه . استولى
[الحسن] اخو علي على بلاد الجبال ، في حين كان أخ له آخر اسمه
احمد قد فتح كرمان .

وكانت الاحوال في بغداد قد انتهت ، في الوقت نفسه ، الى
غاية من الفوضى يسرت عليه التدخل . ذلك ان المتقي (٩٤٠ -
٩٤٤) الذي تولى الخلافة بعد الراضي ، كان مجرد العوبة في

ايدي القواد المتنافسين على السلطة، من جهة ، وفي ايدي البريدي والي خوزستان ، وابن رائق ، والحمدانيين من جهة ثانية . حتى اذا حاول الدخول في مفاوضات مع إخشيد مصر اعتقله توزون الامير التركي وسمل عينيه . ولم يكن ابنه المستكفي احسن منه حالاً ، واكثر سلطاناً . فلما عجز الامراء المسيطرون عليه عن ارضاء الجند المطالبين بدفع ارزاقهم ، وعجزوا عن القضاء على شيخ المجاعة التي كانت تهدد العراق بالخطر رأى من الخير ان يرحب بأحمد بن بويه منقداً ومخلصاً ، وكان يزحف بجيوشه من كرمان ، في اتجاه الغرب . واستولى احمد على واسط بعد معركة نشبت بينه وبين البريدي والامير توزون . وفي كانون الاول سنة ٩٤٥ دخل بندگان ، ظافراً فقلده الخليفة إمرة الامراء وشرفه بلقب « معز الدولة » . ومهما يكن من شيء ، فلم تكد تنقضي فترة وجيزة حتى أورد المستكفي موارد اسلافه ، بسبب من انصالة في ما يقال ، بأعداء البويهيين . ثم جاء من بعده خلفاؤه المطيع (٩٤٦ - ٩٧٤) ، والطائع (٩٧٤ - ٩٩١) ، والقادر (٩٩١ - ١٠٠٣) فما زادوا على أن كانوا مجرد صنائع للبويهيين يطلقون عليهم الرواتب . والواقع انه لم يبق لهم من السلطة إلا مظاهرها كالكسوة والخطبة . اما [البويهيون] الذين تسلطوا على الخلفاء واستبدوا بهم فاقاموا في بندگان [حيث انشأوا «دارالمملكة»] فترة ، وفي شيراز [عاصمتهم] فترة اخرى . ولم يستطيعوا ان يحتفظوا بسلطانهم الا بمنازعات دائمة مع سكان الجبال الايرانية ، أمثال الديلم ، الذين ما فتئوا يظهرون نزعات متزايدة الى الثورة ،

ومع القبائل العربية في الجزيرة حيث قامت بين ظهرانيهم، بعد سقوط الحمدانيين، دويلات سرعان ما أصبحت أثراً بعد عين. وما لبثت ذرية هؤلاء الاخوة الثلاثة الذين انشأوا الدولة البويهية أن تنازعت غير مرة على الارث. فمُنذ سنة ٩٧٦ أخذ عضد الدولة، ابن الحسن بن بويه، يبتزغ من ابناء عمومه واخوته جميع ما كان في حوزتهم من البلاد ليضمّ العراق وفارس من جديد في ظلّ دولة موحدة. ولكن هذه الدولة لم تلبث ان انحلت سنة ٩٨٣ بسبب المنازعات التي نشبت بين ابناءه. وفي سنة ١٠٢٩ ظهر محمود بن سُبُكْتِكِين التركي على [مجد الدولة بن فخر الدولة البويهي] المتغلب على الولايات الشرقية، في حين قبض طغرل بك السلجوقي سنة ١٠٥٥ على [الملك الرحيم] الذي كان اليه حكم العراق. ولقد قضى كلٌّ من مجد الدولة والملك الرحيم آخر ايامه في السجن.

الاغالبة في افريقية وصقلية

كان المغرب قد تحرر منذ زمن طويل من سلطان الخليفة العباسي. والواقع ان إفريقية استقلت استقلالاً مطلقاً، في ظل الاغالبة، ابتداءً من سنة ٨٠٠ م. على الرغم من ان هؤلاء لم ينقطعوا عن تذكير الخليفة بفتوحاتهم وانتشار سلطانهم بما كانوا يوسلونه اليه من غنيمة. ففي الغرب امتدت دولتهم حتى بونة، وفي الجنوب الغربي امتدت حتى الزاب الذي كانت تحده بتملكات دولة الرُستَميين اصحاب تاهرت، وكان قد أسسها الاباضيون وهم فرقة من فرق الخوارج. اما في الشرق فقد بسطوا سلطانهم على طرابلس الغرب التي كانت، على كل حال، مهددةً ابداً من قبل

البربر في جبل نفوسة، وكانوا من الحوارج ايضاً. وكانت القيروان عاصمة دولتهم، آهلةً، بكليتها، بالمهاجرين العرب الذين لم يكونوا على صلاتٍ حسنة مع البربر. ولقد حاول البربر ان يلتسوا سناداً لهم يتقون به دعاوى العرب وصلفهم، فلم يجدوا خيراً من الاخذ بعقائد الحوارج.

والحق أن الغنى والقوة اللذين تسمّا للاغلبة ٦٥، بسبب من الموقع الممتاز الذي تتمتع به اراضيهم، ببقاعها الداخلية الحصبة ومراقفها المسيطرة على تجارة البحر الابيض المتوسط، لا يزالان حتى اليوم، يتجليان في جامع عاصمتهم، القيروان، الذي يعتبر من افخم المنشآت الدينية في الاسلام، وان يكن دون مساجد سامراء ومصر ضخامة واتساعاً. وعلى الرغم من انه يُدعى «سيدي عُقبة»، نسبةً الى الفاتح الاول، فالواقع ان ما بناه عقبة لم يبق منه غير المحراب القائم اليوم وراء المحراب الحالي الذي يرقى، هو والبناء جملةً، الى عهد زيادة الله الاول. ويشتمل الصحن الرئيسي على سبعة عشر رواقاً يمتاز اوسطها - وهو اوسعها جميعاً - بصفتين مزدوجين من الاساطين وتواكبه من جانبيه بلاطة معارضة تمتد بين حائط المحراب وصف مزدوج من الاساطين. ولقد زخرف [ابو ابراهيم] احمد الاغلي (٨٥٦ - ٨٦٣) هذا الجدار بالآجر القاشاني وتوج المحراب بقبة، وفي عهده اقيم المنبر الشهير المصنوع من خشب الدلب البغدادي. ويفصل الرواق الرئيسي عن

(٢٥) انظر فوندرهايدن M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou Aglab*, Paris, 1927.

الصحن ابواب خشبية رائعة ، وجميع اروقة الصحن تقوم على دعائم
مرتكزة على اعمدة مزدوجة تزيد في جمال البناء . وفي سنة ٨٧٦
عندما تعاطم نفوذ الفقهاء المالكية المعروفين بتحرجهم الشديد ،
في القيروان ، انشأ سابع امرأهم ابراهيم الثاني حاضرة جديدة في
رقادة ، على بُعد تسعة كيلو مترات من الساحل ، فعل العباسيين
من قبله .

وفي عهد زيادة الله ، ثالث الاغالبة ، (٨١٧ - ٨٣٨) بدأ
فتح صقلية ، فوقف العرب بعد معارك متعددة تراوحت فيها
حظوظهم بين الفوز والاختراق الى تثبيت اقدامهم في الجزيرة
بالاستيلاء على بلدرم في ايلول سنة ٨٣١ ، حتى اذا
دخلت سنة ٨٤٠ كان العرب قد فتحوا ثلث صقلية تقريباً .
ومهما يكن من امر ، فجيوش الاغالبة لم تحرز هذه الانتصارات
منفردة ، إذ كان يساعدها على ذلك جماعة من اهل الاندلس
المغامرين الذين نزلوا ارض الجزيرة سنة ٨٣٠ ثم توالى عليهم
الأمماد من الوطن . وفي سنة ٨٧٥ سقطت سر قوسة أيضاً في
ايدي الاغالبة . ولكن الشقاق بين مختلف القبائل العربية كان
هنا عظيماً بالغ الاثراً كما كان في الاندلس ، حتى لقد اضطر ابراهيم
الثاني الى ان يقصد بنفسه الى صقلية لإقراراً لسلطته دولته وهيبتها
هناك . ولكن وفاته لم تلبث ان تهددت هذا النصر المؤقت بالخطر ،
فاضطرّ العرب المتنازعون في ما بينهم الى ان يعقدوا معاهدة مع
الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع . وائماً ما كان ، فان
طبرمين التي تنازلوا عنها بموجب هذه المعاهدة ما عثمت ان

سقطت في ايديهم ككرة اخرى سنة ٩٦٥ . وفي الحق ان سنوات السلام الثلاث والسبعين التي قُدّر للعرب ان ينعموا بها في صقلية منذ ذلك الحين كانت كافية لنشر حضارتهم والتمكين لها في ربوع الجزيرة الى درجة بعيدة ، حملت النورمانديين الذين قضوا على الحكم العربي سنة ١٠٦٠ في عهد الكونت رُجار على ان يأخذوا عن العرب نظامهم الاداري ويقتبسوا العناصر الاساسية للثقافة الاسلامية في حياتهم الفكرية وفي فنههم ايضاً . وفي سنة ١١٥٤ الف الادريسي ، العالم العربي ، لرجار الثاني ، كتابه الشهير في صفة الارض [نزهة المشتاق في اختراق الآفاق] . ليس هذا فحسب بل ان فريدريك الثاني (١١٩٧ - ١٢٥٠) الذي خلف النورمانديين في حكم صقلية عني بتنمية هذا التراث اعجاباً منه بعلوم العرب وباساتذتهم اليونان .

الادراسة في مراكش

ولم تستطع هذه المستعمرة الغنية [صقلية] ، بسبب من تقلب احوال العرب فيها بين قوة وضعف ، ان تساعد على التمكين لسلطان الأغالة بأفريقية والقضاء على الاضطرابات الدينية السياسية الناشئة في الداخل . فبالاضافة الى الحوارج الذين لم ينقطعوا يوماً عن تأليب البربر على العرب ، بوزت الى الميدان السياسي ابتداءً من سنة ٧٨٠ قوة جديدة ، هي الشيعة ، وطفقت تعمل في سبيل الاستيلاء على السلطة . وتفصيل ذلك ان ادريس بن عبد الله بن الحسن كان قد فر الى مصر ومنها الى شمالي مراكش بعد ثورة محففة قام بها في المدينة . وهناك في مستقره الجديد بين قبائل

البربر ، اعترف به إماماً وتمكن من نشر سلطانه ، في نزاعه ضد
الاعالبة ، حتى تلهسان . ومات ادريس مسموماً ، وليس له من
عقب غير ولد كانت امه لا تزال حاملاً به ، فلما وضعته سمي
ادريس على اسم ابيه . ولقد قدر لادريس الثاني هذا ان يؤسس
عاصمة جديدة للدولة في فاس سنة ٨٠٨ . ولكن هذه الدولة ما
لبثت ان اصابها الانحلال بعد ان توزع ابناؤه إرث أبيهم فاستقل
كلُّ بجزء من البلاد . حتى اذا كانت سنة ٩٣٠ بدأ خلفاؤه
يفقدون ما في حوزتهم من البلاد ، شيئاً بعد شيء ، ليستولي على
بعضه الامويون في الاندلس ، ولينتزع الفاطميون بعضه الآخر .

الفاطيون في شمالي افريقية ومصر

وعلى الرغم من ان الادارة قد انشأوا دولتهم بقوة السلاح
من غير ان يمكنوا للعقائد الخاصة التي كان يقول بها مؤيدو اسرتهم ،
فقد مهدوا السبيل ، بما كانوا يمثلونه من مبدأ الشرعية [النص
والتعيين] ، لسلالة جديدة خلفتهم في افريقية فكانت اسعد منهم
حظاً . ذلك انه ظهر في سلمية قرب حماة ، حوالى سنة ٨٩٠
رجل اسمه محمد الحبيب * فادعى انه من اعقاب علي وفاطمة ،
وبث الدعاة للمهدي المنتظر ظهوره من هذه الاسرة . والواقع ان
صحة نسبه موضع خلاف شديد . وأياً ما كان ، فقد اعلن ولاءه
للشيعه الاسماعيليه الذين سخروا العقائد الاسلاميه لخدمة اغراضهم
السياسية — فإل القرامطة غير الغرابة عنهم — من طريق تفسير
القرآن تفسيراً مجازياً باطنياً (ومن هنا عرفوا كذلك بالباطنية) .
* يقابل عند الذين ينكرون نسب الفاطميين « ميمون القداح » [المغربان] .

وكان في جملة من اجتذبتهم هذه العقائد في جنوبي بلاد العرب رجل يدعى ابا عبد الله استطاع في احد مواسم الحج بمكة ان يحظى ببايعة جماعة من قبيلة كنانة الهمزية ، فأصره على انفسهم وسار معهم الى بلادهم . وهناك جمع من حوله جيشاً حارب به بني الاغلب ، فهزم سنة ٩٠٩ آخرهم ، زيادة الله الثاني ، هزيمة منكرة اكرهته على الفرار الى بلاد الجزيرة الفراتية . وهنا طلب المقتدر الى امير مصر ان يساعد زيادة الله على استعادة ملكه فتعاضد عن مجده . وهكذا استقرت الامور لابي عبد الله في رقادة ، عاصمة بني الاغلب ، وتولى زمام الحكم فيها فترة من الزمان . وبعد بركة ، توفي الفاطمي محمد ، ونجا ابنه عبيد الله من حبال الخليفة بالفرار الى افريقية ، وهناك ظهر . وعلى الرغم من ان امير سجلماسة اعتقله مدة من الزمان فقد وفق داعية والده ، أبو عبد الله ، الى انقاده سنة ٩١٠ ورفع الى عرش الخلافة ، في رقادة . ثم انه ابنتى عاصمة جديدة دعاها المهديّة ، وتقع على الساحل القريب . وفيما كان جميع من سبق من الامراء المسلمين ، والامراء الامويون في الاندلس انفسهم ، يحكمون البلاد الواقعة في حوزتهم باسم خليفة بغداد نجد الخليفة الفاطمي يدعي انه صاحب الحق الاوحد في الخلافة . وعلى الرغم من ان عبيد الله اضطر الى ان يجمع ثورة قام بها ابو عبد الله بعد ان اُصيب في آماله العراض فقد نجح خلال سنوات قليلة في التمكين لسلطته وثبتها الى درجة مكنته من ان يوجه همته نحو الفتوح . والواقع ان عساكره اخضعت المغرب حتى مراكش ، التي لم تلبث ان سقطت ، بعد

وفاته سنة ٩٢٤ ، في يد خنّاسه ، وإن يكن الخليفة الاموي عبد الرحمن الثالث قد اكرهه على ان يتوقف في الفتح عند سبّانة . ولكن ثورة اخرى ما لبثت ان شبت في وجه الفاطميين فتهددت دولتهم بخطر عظيم ، وذلك عندما قام في قبيلة زناتة ، وهي من البربر الخوارج ، رجل متعصب يدعى ابا يزيد ففاضل الفاطميين ، في جبل أورانس ، نضالاً ضارياً . وكان ابو يزيد يهدف الى التخلص من الحكم الفاطمي ، ويظهر في الناس راكباً حمراً على طريقة الانبياء القدماء . والواقع ان هذا الخارجي قد وفق الى ان يبسط سلطانه على البلاد كلها ويطوّق «القائم» الخليفة الفاطمي ، في عاصمته ، المهديّة ، عامّاً كاملاً . ولكن هذا الحصار استنفد قواه ، فاضطر الى رفعه . ثم ان الهزائم توالى عليه ، وسقط هو في يدي الخليفة الجديد [المنصور ابي طاهر] اسماعيل ، في ١٩ آب سنة ٩٤٧ ، بعد ان اجتاح الفاطميون آخر معاقله .

وكان عبيد الله نفسه يطمح الى فتح مصر ، فشنّ عليها هجوماً مبدئياً لم يلبث ان اخفق . ففي سنة ٩١٤ احتلّ جيشه الاسكندرية ومنطقة الفيوم ولكنه ما عم ان ارتدّ على اعقابيه . وفي عهد ابنه [القائم] ابي القاسم [محمد] اندفع الفاطميون سنة ٩٢١ حتى مصر العليا ، ولكن مؤنساً ، قائد جيوش المقتدر ، انزل بهم كذلك هزيمة حاسمة . فلما كانت سنة ٩٣٥ وما بعدها ظهرت في مصر دولة جديدة استطاعت ان تصدّ الفاطميين عن حدودها جيلاً بكاملاً . ففي ذلك الحين وفد الى مصر ، محمد بن طغّج ، بوصفه اميراً عليها ، وهو تركي سبق لجدّه وأبيه ان عملا في خدمة خليفة بغداد . وما

انقضت سنتان حتى استطاع أن يثبت دعائم سلطته الى حدّ ساعده
 على ان يلتصق من الخليفة الراضي تمييزه من سائر الأمراء بان يجمع
 عليه لقب الأخشيد الذي كان الأمراء من أسرته يجماعونه في موطنهم ،
 فرغانة ، قبل خضوعهم لسلطان الإسلام ، (كما فعل سنة ١٨٦٧
 السلطان العثماني عبد العزيز عندما ميّز عامله اسماعيل باشا من سائر
 أقرانه بلقب الخديوي) . ولقد كان عليه باديء ذي بدء أن يقم
 مركزه هذا في مصر من مطامع امير الأمراء ، [محمد] ابن رائق
 الذي اضطرّ بعد ، على كل حال ، إلى ان يتخلى له عن شبه جزيرة
 سيناء - وليس عنها من غنى للدفاع عن البلاد - وفلسطين الجنوبية حتى
 الرملة ، لقاء جزيةٍ يُعطيها . فلما توفي ابن رائق طمع ابن طعج نفسه
 في إمرة الأمراء وشرع يفاوض في ذلك الخليفة المتقي ، وكان في
 الرقة على الفرات . بيد أنه ما لبث ان تحقق ان الأمرة الراسخة ،
 على قطر غني ك مصر ، خيرٌ له وأبقى من منافسة القواد الاتراك
 ومنازعتهم على السلطان في عاصمة الامبراطورية المعدّمة . وهكذا
 انصرف الى توطيد مركزه في مصر من طريق تعزيز الثغور السورية . وكان
 لا بدّ له ، هنا ، من ان يصطدم بسيف الدولة بن حمدان الذي اضطر
 آخر الأمر ، الى ان يتخلى له عن دمشق . وفي سنة ٩٤٦ توفي ابن
 طعج ، فنهض باعباء الدولة نيابة عن ولديه [انوجور ، وعلي]
 خصي له حبشي يدعى كافوراً . حتى اذا مات علي استولى كافور على
 الملك وأقطع الخليفة مصر سنة ٩٦٦ ، فوفق الى ان يدفع عن مصر
 وسورية هجمات الفاطميين والحمدانيين . وفي سنة ٩٦٨ توفي كافور
 فخلفه ابو الفوارس احمد ، حفيد ابن طعج ، وهو بعد في اول

الصبا . وفي عهد ابي الفوارس هذا استأنف المعز [لدين الله] رابع الخلفاء الفاطميين ، خطه اسلافه الزامية الى فتح مصر . وكان للمعز قائد عظيم اسمه جوهر - وهو مولى رومي - استطاع سنة ٩٥٨ ان يوطد سلطان الفاطميين في الغرب حتى سبتة و طنجة . وفي ٥ شباط سنة ٩٦٩ خرج جوهر بجيشه من رقادة ، ووجهته مصر ، حتى اذا شارف ابواب الاسكندرية اقبل عليه وفد مصري يعلنه استسلام البلاد . ولكن الجيش المصري لم يلبث ان استجمع شتاته ليستأنف النضال في حزيران ، فهزمه جوهر ، من غير ما عناه ، في معركة نشبت بين الفريقين ، قرب اهرام الجيزة . وفي مطلع شهر تموز دخل جوهر العاصمة المصرية ظافراً . وكما انشأ الطولونيون من قبله قاعدة جديدة لحكومتهم في القطائع ، على ابواب العاصمة ، فقد شرع بدوره ، في ٩ تموز ، في بناء العاصمة الفاطمية المقبلة بين القناة القديمة التي كانت في يوم من الأيام تصل النيل بالسويس والتي طُمِرت بعد ذلك ، وبين جبل المقطم . وكما كانت المدن الاسلامية القديمة تنقسم إلى احياء مستقلة تنزل فيها القبائل العربية ، كلا على حدة ، فكذلك قسم جوهر المدينة الجديدة إلى حارات [خطط] لكل من الروم ، والارمن ، والبربر ، والاكراد ، والاتراك ، والزنج . ثم إنه دعاها المنصورية ، حتى إذا دخل المعز لدين الله البلاد بعد أربع سنوات خلع عليها اسم القاهرة المعزية ، أي مدينة المعز التي تقهر المدن .

الحاكم بأمر الله - الدرور

وفي ظل الفاطميين الذين دام حكمهم نحواً من مائتين وخمس

سنوات نعمت مصر بدرجة صالحة من الهدوء ، على الرغم من إرهاق البلاد الدائم بواسطة الضرائب . والواقع أن المعزّ وخليفته العزيز وضا الاساس ، بمساعدة الموظفين اليهود والنصارى ، لأدارة سليمة كان يرئسها الوزير ، ههنا أيضاً . فهنا ولي الأمر ثالث خلفاء مصر الفاطميين الحاكم ابو علي المنصور خلد لنفسه ذكراً يعود الى صفات مختلفة ، اساسها شذوذ نفساني ، اكثر مما يعود الى خدماته للبلاد . وليس من شك في أنه كان في السنوات الاولى من حكمه شديد العناية في أداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانياً في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها . فاستقدم من البصرة الحسن بن الهيثم ، العالم الطبيعي والرياضي الشهير ^{٢٦} الذي نقض في كتابه الرئيسي « كتاب المناظر » نظرية اوقليدس القديمة القائلة إن الابصار يكون مخرج شيء من البصر الى المصترات والذي انتهت اليه زعامة هذا العلم في اوروبة ايضاً ، حتى ظهور كبلر . والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدل فيضان النيل الذي كان اساس خصب البلاد المصرية ، حتى إذا اخفق في في إخراج حساباته النظرية مخرج العمل اضطر إلى الاستخفاء ، فراراً من غضب الحاكم ، بقية عمر هذا الأخير . وليس من شك في أن السلطات المطلقة التي تمتع بها الحاكم ، والتي كانت لا تزال معززةً بالهالة الدينية ، أفسدت آخر الأمر عقله . فقد كان ينزع إلى إحياء قوانين الاسلام التي افقدتها الحضارة فعاليتها من مثل تحريم الحجرة الذي انتهى منذ زمن طويل الى أن يكون حرفاً

(٢٦) المعروف في الغرب بـ Alhazen

بماتا؛ فلم يجد ما يتوسل به الى ذلك خيراً من استئصال الكرمة ،
وهي التي لم يكن ممكناً أن تكثر زراعتها في مصر نفسها ، وتحريم
استيراد جميع الأشربة المسكرة . ليس هذا فحسب ، بل لقد تغفل
في الحياة اليومية ، إلى حدٍّ أبعد ، من طريق القوانين التي قصد
بها إلى أن يجد من طلب رعاياه للذة . فحرّم الموائد والموسيقى ،
بل حرّم الشطرنج وبجرد النزهة على ضفاف النيل . وشنّ الحاكم
حرباً لا هوادة فيها على فسوق النساء ، اللواتي كان لا يزال في
ميسورهن أن يجدن في المدن الكبرى فرصاً سوانح لاستراق
لحظات الحب وانتهاج لذاته ، بالرغم من حياة الحریم . وانما
اصطنع في هذه الحرب سلاحاً يقوم على نظام من المنع والردع
على ايدي عيون من العجائز . حتى اذا بداله أن هذا السلاح غير
حاسم ، اصدر امره الى جميع النساء بالتزام بيوتهن ، وانزل
العقاب بكل من يضع الاحذية النسائية ليكون في ذلك
ما يساعد على إنفاذ أمره إنفاذاً محكماً . كذلك أحيا الانظمة
القديمة التي تكره اهل الذمة على ارتداء ملابس تميزهم من المسلمين ،
بل زاده هذه الانظمة عسراً بأن أجبر اليهود على ان يضعوا
الأجراس في اعناقهم ، كما ألزم [رجال] النصارى ان يتقلدوا في
اعناقهم صليباً خشبية زنة كل صليب منها خمسة ارطال . وكان
طبيعياً ان يأخذ ، في بلاطه ، بأشد النزعات الشيعية تطرفاً وهي
التي تعتبر الأمير الشرعيّ النسب تجسداً للذات الالهية ، وفقاً
للتقليد الفارسي القديم . والراجح انه هو نفسه كان قد اخذ في
ادعاء الالهية ، حتى اذا وافته المنية قام محمد بن اسماعيل الدرزي

وخليفته حمزة بن احمد الهادي في سورية يدعوان الى مذهب جديد عرف اتباعه بالدروز ، على اسم مؤسسه ، وطلقت فيه فكرة الحلول وبعض العقائد الوثنية القديمة ، بالاضافة الى الوهية الحاكم ، على الاسلام ونعمرته بالكلية . وفي لبنان بين سكان الجبال الشجعان المحبين للحرية ، وجدت هذه الفرقة اتباعاً متحمسين حملوا معتقداتهم خلال الاجيال ، ولايزالون ، واثروا في مجرى التاريخ السوري ، في كثير من الاحيان . وليس من شك في ان نهاية الحاكم لاتزال لغزاً ماضياً ، لا لأسباب دينية فحسب ، بل لاسباب سياسية ايضاً . والفروض انه ذهب ضحية لمؤامرة حاكتها سياسة عهده المتقلبة . ويقال انه قتل بتحرير من اعيان حاشيته في اوائل سنة ١٠٢١ فيما كان راكباً امام ابواب القاهرة .

نهاية الفاطميين

أما خلفاؤه فاستغرقوا ، على الجملة ، في منازع البلاط ، مثبتين عجزهم عن إخماد فتن المرتقة وتقويم مساويء البلاد الاقتصادية ، بعد ان اتتياها في هذا الوقت بالذات انخفاض هائل في مستوى مياه النيل . ولم يتم إقرار النظام في ارجاء البلاد إلا في النصف الثاني من عهد المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، حفيد الحاكم ، عندما استطاع بدر الجمالي - وهو أرمني برز اول الامر كقائد عسكري في سورية ثم خوّل سلطات واسعة سنة ١٠٧٣ - القضاء على استبداد القواد الاتراك وطغيان الامراء ، ولكنه لم يوفق الى تثبيت سلطان الفاطميين في سورية (حيث كان امراء الدويلات يتهددونه بالخطر الدائم) ، والمحافظة عليه من هجمات

السلاجقة الذين نهضوا في تلك الاثناء ، في الشرق . فما دخلت
سنة ١٠٦٥ حتى سقطت حلب في ايدي المرداسية الذين ظهر وا بن
اعراب سورية . وفي سنة ١٠٧١ سقطت القدس في ايدي السلاجقة ،
وتلتها دمشق سنة ١٠٧٦ . حتى اذا توفي كل من الخليفة وبدر
الجمالي سنة ١٠٩٤ لم يكن من الملك الافضل ، ابن الجمالي وخليفه ،
إلا أن نصب المستعلي ابن المستنصر ، خليفةً ، وسيطر عليه
سيطرة كاملة . والواقع ان الملك الافضل استطاع باءى الامر ان
يمكن للحكم الفاطمي في سورية باستخلاص المدينة المقدسة من
ايدي الدولة الأرثوذكسية ، الخاضعة لسلطان السلاجقة ، وكانت
قاعدتها في بيت المقدس . بيد انه تعين على الاسلام ان يجابه آتد
خصماً جديداً عظيماً الخطر ، اعني الصليبيين . ولم يظهر خطر هؤلاء
واضحاً في بادىء الامر بل استخف به ولم يقدر حق قدره ،
وسط الفوضى التي عمت البلاد من جراء النزاع الدائم على الرئاسة
بين الدويلات . ففي سنة ١٠٩٩ سقطت بيت المقدس في ايدي
الصليبيين الذين استطاعوا في العقد التالي ان يقصروا حكم
الفاطميين على منطقة صور وعسقلان الساحلية ، بعد سلسلة
من المعارك كان النصر فيها حليف الفاطميين حيناً ،
وحليف الصليبيين حيناً . وفي سنة ١١٢١ قتل الملك الافضل
اغتيالاً : فقد كان الخليفة « الأمر » كارهاً لوصايته واستبداده بالأمر
من دونه . عندئذ أدرك الدولة الاجل المحتوم . ففي غمرة النزاع بين
الامراء الصليبيين والأتراك في سورية والقواد المستبدين في العاصمة نفسها
لم تنهأ البلاد بفترة من السلام الاعلى يد امير كفو مقتدر [كالمملك
الصالح] طلائع ابن رزبيك الذي استدعته الى الحكم نساء الخليفة

« الظاهر » المقتول في سنة ١١٥٤. ولكنّ احدهم طعنه ، بعد ست سنوات ، بخرجه طعنة أردته قتيلاً . ولم يعد في طاقة العاضد ، آخر الفاطميين ، أن يدفع القوى المتفوقة ، التي كانت لقراد السلاجقة المتغلبن في دمشق . فاضطر الى ان يمين احدهم ، شيركوه ، وزيراً . وكان شيركوه هذا كردياً . وقد خلفه في الوزارة صلاح الدين الذي ازال ، كما سوف نرى ، آخر أثر من آثار سلطنة الفاطميين الاسمية ، بصورة رسمية .

وعلى الرغم من ضعف الفاطميين الذي أطلع رأسه ، في سرعة ، فقد استطاعوا ان يضمنوا لمصر عهداً متطاولة من الرخاء العظيم ، بفضل الادارة التي وضع اساسها الخليفان الاولان . والواقع ان ابهة بلاطهم ، المشفوعة بنظام للتشريفات دقيق إلى أبعد الحدود ، لم يكن لها نظير عند أي من منافسهم . وإن آثارهم العمرانية العظيمة ، من مثل جامع الحاكم والجامع الازهر الذي لا يزال مزدهراً الى يومنا هذا كاعظم المؤسسات المدرسية في الاسلام ، لتشهد للهمم العالية التي ابدعتها .

وأفلتت إفريقية ، وهي الولاية التي ظهرت فيها الدولة الفاطمية ، اول ما ظهرت ، من قبضة الفاطميين بعد استقرارهم بمصر مباشرة . فقد أعلن يوسف بُلُكِّين ابن زيوي ، أول ولائهم على افريقية ، استقلاله في سنة ٩٧٢ ، فلما كان عهد حفيده باديس اسس حمّاد ، عم باديس ، دولة جديدة في الجزائر . وفي غمرة من هذا الصراع المميت الذي استفد المسلمون خلاله قوتهم ، استولى النورمانديون على صقلية ، عهد رُجار ، واستولى الجنويون والبيزيون على كورسيكا وسرّدانية ، وكانت هذه الجزر كلها إلى المسلمين .

الفرس والأتراك

بين سكان التبت (بفتح الباء) والصين في الشرق، والجنس الآسيوي القديم (السيبيري) في الشمال، والشعوب الفنلندية الاوغرية في الغرب نشأ الشعب التركي، فوق سهول سيبيريا الشمالية الواسعة والبوداي القائمة بين بحر الخزر [قزوين] وجبال آلتاي، من جماعة عرقية ولغوية لهم كانت تنظم في العصور الاولية المغول والتشككت ايضا. وكان يتولى زعامة هذا الشعب، في العادة، شخصيات حاكمة كبيرة من مثل تلك التي نشأت بين ظهرا في الشعوب ذات الوضع القبلي الابوي والتي كثيراً ما نلتقي بها حيناً بعد حين في تاريخ تلك المناطق. حتى اذا دخل الاتراك في طور التاريخ، بعد ان شرعوا في الاندفاع من سفوح تيان شان الى بوادي آسية الوسطى، كانت قدمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الاجناس البشرية بالخصائص الطورانية. وبينما ظهرت الملامح المغولية بين اترك الشمال احتفظت الفروع الجنوبية بشكل جسدي متناسب الاعضاء يميل الى الكبر بعض الشيء، ووجه متوسط الطول، يتميز بانف مستقيم بارز، وجبهة عالية شديدة

الانحدار ، وشعر كئيف .

اقدم الممالك التركية في آسية الوسطى وآسية الغربية
وفي القرن السادس للميلاد اصبح الاتراك دولتان قويتان
امتدتا من منغوليا وتخوم الصين الشمالية حتى البحر الاسود . فاما
مؤسس الدولة الشرقية «بومين» فتوفي سنة ٥٥٢ ، واما اخوه «إسمحي»
الذي دانت له الاصقاع الغربية فعاش من بعده نحواً من ربع
قرن . ثم ان اسرة تانغ المالكة في الصين قضت على الدولة الشرقية
حوالي سنة ٦٣٠ ، وعلى الدولة الغربية حوالي سنة ٦٥٩ . بيد ان
اتراك الشمال ما لبثوا ان خلعوا زعيم الاجنبي سنة ٦٨٢ ليحفظوا
باستقلالهم حتى سنة ٧٤٥ . والواقع ان أقدم اثر حفظته الأيام من
آثار اللغة التركية تلك النقوش الطويلة التي اكتشفت على ضفاف نهر
أورخون في منغوليا ، على الضريح المشترك لاثنين من امراء هذه
الدولة ، بلانكا قاغان واخيه الاصغر كئلتيكين ، والتي ترقى الى
سنة ٧٣٦ وسنة ٧٣٤ ؛ وقد كتبت بخط شبيه بالخط «الرؤفي»
[الذي استعملته الشعوب الجرمانية حوالي القرن الثاني للميلاد]
اقتبسوه عن الفرس واستنبطوه من الخط الآرامي . ولقد كانت
كل من هاتين الدولتين البدويتين تنتظم بمجموعات قبلية غير
مُحكمة التنظيم ، على رأسها خانات [امراء] يخضعون جميعاً
لسلطة امير الحرب الاعلى ، ويدعى «قاغان» (خاقان) . وإنما
ظهر «الخانات» من بين «باكوات» الاشراف الذين لا تزال
عامّة الشعب تخضع لهم طوعاً . ويُستدل من تنظيم الاعمال في
هاتين الدولتين - هذا التنظيم الذي يمتاز بأوضاع والقاب ثابتة ،

والذي ظلَّ يُعمل بجزء منه في الدول التركية الاسلامية - أن
الأتراك القدماء خطوا خطوات أولية في سبيل وضع مجموعة من
القوانين العامة استعارها بعدُ خلفاؤهم في الحكم . كذلك نقل
الصقالبة * هذا القانون التركي القديم عن الآواريين . وكانت الحياة
القومية تتجلى عندهم ، أقوى ما يكون ، في الاعياد وما كانت
يرافقها من طردٍ ، ومن غزو وسلب . وكان من أهم واجبات
الامير أن يهيئ لها بسطاء .

أما حياتهم الدينية فكان يمين عليها « الشامان » [الفقير أو الكاهن]
الذي كان في ميسوره ، من طريق غيبوبة كثيرأ ما تكون مصطنعة ،
ان يطرد الارواح الشريرة المقيمة تحت الارض ، وان يستنزل البركة
من رוחي الارض والماء الحيرتين ، وارواح الاسلاف الطائفة في الجنة .
ولم يكن احد ليجرؤ على ان يتصل - من غير طريق « الشامان » -
بالذات العليا ، وهي الاله الذي برأ العالم ، والذي تخضع
لحكمه الطباق السبع عشرة العليا الآهة بالكائنات الصالحة .
ولقد انتشر بين الأتراك قبل ان يفجأهم الاسلام [بقواه وتعاليمه]
ايمان بقوة القضاء والقدر المتجسدة في العالم والزمان ، والتي كان
يعتقد ، بصورة شخصية خالصة ، انها تنضح بالحسد وبشهوة الانتقام
من عظمة الانسان .

والواقع ان دولة من هذا الطراز لا يمكن ان تعيش الا اذا
قدّر لها زعيم حازم يجمع شتاتها ويستغل حيرانه من طريق الغزو
وفرض الجزية . وحوالي سنة ٧٠٠ كان قدمت للعرب ، عهد
* وهذا هو الاسم الذي اطلقه العرب على الـ Slavs [المرغبات]

الامويين ، السيطرة على مراكز هذه الدولة الامامية المتطرفة في
 الغرب . وفي سنة ٧٤٥ سقطت المملكة الشمالية ايضاً في يد قوة
 تركية اخرى ، هي قبيلة أوغور ، وكانت تنزل ، اصلاً ،
 الى الشمال على ضفاف نهر سِلَنْغَه . والحق ان هذه القوة التركية
 الجديدة سمحت للنصارى السوريين من النساطرة وللمرسلين
 الممانويين الذين وجههم الصُّعْد الى تلك الديار ، بالتبشير في البلاد
 الواقعة في حوزتها . ولقد استعاضوا عن الاحرف القديمة بشكل
 مستحدث من الاحرف الآرامية التي سادت من بعد في الدولة
 المغولية ايضاً . وفي سنة ٨٤٠ ، عندما قضى القيرغيز
 على امبراطورية الأويغوريين في الشمال هاجر الاويغوريون الى
 المنطقة التي تؤلف اليوم تركستان الصينية ، والتي سبق للاتراك ان
 استقروا فيها من قبلهم . وهنا ظهرت بعثات التبشير البوذية ايضاً ،
 فتنافست والمبشرين النصارى والممانويين في إنشاء لغة قوية ومرنة
 لهؤلاء الاتراك ، على الرغم من ان هذه اللغة لم تُصنَع بآدىء ذي
 بدء الا في الكتب المترجمة . وفي سنة ١٠٢٨ قضى التتاركتسيون
 على احدى امارتي الاويغوريين ، تلك التي كانت قائمه في كانشو ؛
 في حين استطاعت الاخرى الاستمرار الى ايام المغول . وكان
 القيرغيز الذين سبق لهم ان اخرجوهم من ممتلكات اسلافهم قد
 خضعوا قبل ذلك لسلطة قبيلة بختاي^{٢٧} المغولية . وتذهب الروايات
 الى ان سيد [هذه القبيلة] قد طلب الى الاويغوريين - ذوي
 (٢٧) وهو الاسم الذي لا يزال يطلق على الصين ، في اللغة الروسية ،
 الى اليوم .

المكانة إذ كانت لهم حضارة اكثر تقدماً — ان يعودوا الى منازلهم الاولى ، فلم يفعلوا . وبينما كان صنائع المملكة التركية الغربية لا يزالون في اوائل القرن الثامن يسيطرون على تخوم ايران ، كانت هذه البلاد قد خضعت قبل ذلك لحكم الامويين ، وقدمت لاسواق الرقيق عدداً من ابنائها لا يقع تحت حصر . ولقد اظهرنا في موطن سابق كيف تم لهؤلاء الاستيلاء على الامر في بغداد ، ايام العباسيين ، وكيف استطاع افراد منهم ، ان يسيطروا سلطتهم فترة من الزمان على امصار اخرى ، ايضاً .

السامانية في خراسان

وكانت مراكز السامانيين السابقة — ما وراء النهر ، وبخارى وسمرقند — تتمتع بهدوء نسبي في ظل حكومتهم المستنيرة في القرن التاسع . وكان مؤسس هذه الدولة سامان خورداه (اي سيد قرية سامان في منطقة بلخ) فارسياً اعتنق الاسلام في خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) . وحوالي سنة ٨١٩ عين المأمون حفدة سامان الاربعة ولاة على سمرقند ، وفرغانة والشاش وهرارة ، وكانت ولايتهم اول الامر من جهة آل طاهر . ثم إن احمد ، أمير فرغانة ، سعى الى ان يبسط سلطته على سمرقند ايضاً . حتى اذا كانت سنة ٨٧٥ أقطع الخليفة نفسه نصر بن أحمد ، إقليم ما وراء النهر ، فولى أخاه اسماعيل بخارى حيث وضع حداً للاضطراب السائد فيها منذ نشبت الحروب مع الصفارية ، وأكره أشرافها على الاستسلام . وفي سنة ٩٠٣ وقق اسماعيل — بعد أن جرّد أخاه نصرأ من كل سلطة فعلية — الى ان ينزع

خراسان من عمرو [بن الليث] الصفاري ، ويستولي على طبرستان إثر انتصاره على محمد بن زيد العلوي . حتى إذا جاء خلفاؤه من بعده فتحوا سجستان وجرجان أيضاً ، ولكنهم خسروا طبرستان بعد ان استولى عليها آل بويه ، وتقلصت رقعة نفوذهم شيئاً بعد شيء في بلاد آباؤهم وأجدادهم على يد الدولة التركية القومية التي أنشأها الأيلك خانبة * في تركستان ؛ وكان هؤلاء قد ظهروا باديء الامر في المناطق الواقعة شمالي تيان شان وجنوبيها ، ثم اندفعوا من هناك في اتجاه الغرب .

الفرس الفارسي

وأياً ما كان ، ففي النصف الاول من القرن العاشر ، عهد نصر الثاني (٩١٣ - ٩٤٢) ونوح الاول (٩٤٢ - ٩٥٤) ، كانت البلاد الواقعة في حوزة السامانية مركزاً لحضارة زاهرة . فقد كانت أراضي ما وراء النهر المنخفضة [الاغوار] ومياهها الغزيرة تستغل من أمد بعيد وتدر محاصيل وافرة بفضل العناية المنظمة الحاذقة . وهنا تفتتح الوعي القومي عند الفرس من جديد بعد أن استعبدتهم سيادة العرب السياسية والدينية زمناً طويلاً . ومع أن الفرس تفوقوا على العرب في إدارة الدولة وفي النواحي الثقافية تفوقاً كبيراً ، منذ ابتداء الخلافة العباسية ، فقد كانت خدماتهم ومآتهم ذات فائدة للعرب في ما بعد ، إذ لم يعد من الممكن إقصاء لغة التنزيل عن الشؤون العامة وعن الادب جميعاً . بيد ان الفرس تذكروا ، هنا في الشرق ، لأول مرة ، شرف

* ويقال أيضاً « الابلق خانبة » و « الأفراسيابيون » . [المرغان]

لسانهم القومي وعظمته . وعلى الرغم من أن اشراف الفرس من أصحاب الاراضي لم ينقطعوا يوماً عن العناية بمفاخرهم القومية في سدير ماوكمهم وأبطالهم ، وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس ، غير شك ، فن إنشاد الشعر ، فالحق ان تلقيح هذا الارث الروحي ، من جديد ، لم يتم الا في بلاط السامانيين وعلى ايديهم . ففي ظل نصر الثاني لمع الروذكي * اول شاعر غنائي فارسي وصلتنا عنه اخبار على شيء من التفصيل . وعلى الرغم من ان شعره لم يخجل من الكلمات العربية ، وعلى الرغم من ان الاوزان التي اصطنعها كانت كاوزان جميع شعراء الفرس من بعده ، مفرغة في القوالب العربية ، فقد دعا في منظومه الى فلسفة في الحياة بعيدة عن الهمم والغم ، ناضجة بالحبور ، مستوحاة ، على الرغم من وصايا الاسلام ، لا من حب النساء والغناء فحسب ، بل من حب الخمر ايضا . وكان الروذكي ، الى ذلك ، مؤسس « الملحمة التعليمية » ** ، وهي اخصب فروع الادب الفارسي على الاطلاق . فقد سلك في نظام من الشعر الفارسي كتاب كليلة ودمنة الهندي القديم الذي سبق للامبراطور الساساني كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) أن أمر بوزويه ، طبيبه الخاص ، بتوجهته الى الفهلوية ، والذي نقله الى العربية ، في صدر الدولة العباسية ، عبد الله بن المقفع ، الفارسي . كذلك نظم الروذكي قصة السندباد والوزراء السبعة شعراً فارسياً . وفي عهد منصور بن نوح (٩٦١ - ٩٧٦) ترجم الوزير

* ويقال ايضا الروذكي [المعربات]

** epic - didactic

البلغمي الى الفارسية كتاب الطبري الكبير في تاريخ العالم *
واضعاً بذلك حجر الاساس في علم التاريخ عند الفرس ، هذا العلم الذي
قدر له بعد ان ينتهي الى غايات بعيدة من النمو والازدهار . اما
في حقول المعرفة العلمية الخالصة فالذي لا شك فيه ان العربية
احتفظت ، هنا في الشرق ايضاً ، بمقام الصدارة . وهكذا نجد
ابن سينا الفيلسوف والطبيب الشهير الذي بدأ انتاجه في عهد نوح
ابن منصور (٩٧٦ - ٩٩٧) ثامن الامراء السامانيين ، يضع بالعربية
مؤلفاته الفلسفية وكتابه « القانون » الذي كان المرجع الاساسي
في علم الطب بأوروية ، خلال القرون الوسطى ، والذي ساد فن
الشفاء برمته ، في فارس حتى وقت قريب .

نفأة علم الجغرافية

وفي بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلمي
ايضاً ، على الرغم من ان العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل
عن عناية خاصة بوصف البلدان يذكها في جنوبي بلاد العرب
بخاصة اعتزاز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الاسلام ، على
ما نرى في « صفة جزيرة العرب » الذي وضعه الهمداني المتوفى في
سجن صنعاء ، سنة ٩٤٥ . والواقع ان نظام البريد والاستعلامات
الذي اقتبسه الامويون عن ملوك الفرس الكبار ، وتعهده العباسيون
الأول بالتجويد والتوسيع ، كان قد قدّم للدولة منذ القرن التاسع
شبكة من المواصلات أفاد منها اصحاب الوظائف في الامبراطورية .
كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الحراج بالتنظيم الامبراطوري .

* تاريخ الرسل والملوك [المعربان]

وفي بغداد ، مركز التجارة العالمية في ذلك الحين ، نشأ اهتمام كبير بشؤون البلدان والامبراطوريات والشعوب الاجنبية ، برز بصورة خاصة في مؤلفات الجاحظ الجغرافية المفقودة . وفي بلاط اسماعيل الساماني (٨٩٢-٩٠٧) ألف الوزير الجيهاني كتاباً لم يصلنا ايضاً ، استطرده فيه من بحث الضرائب الى وصف البلدان المجاورة . ثم إن أبا زيد البلخي ، وكان في خدمة اسماعيل ببلخ ، وضع مصوراً جغرافياً وجعله ذنباً لأطلس إسلامي قديم موضوع على اساس كتاب اقتبسهُ الخوارزمي ، قبل عام ٨٤٦ ، عن جغرافية بطليموس . والواقع ان كتاب أبي زيد هذا عدل في ما بعد ليطابق الاحوال في الامبراطورية الفاطمية ، كما اضاف عليه احد الاندلسيين إضافات جديدة تلائم بلاده . كذلك كان هذا الكتاب اساساً لل اثر الكلاسيكي الذي وضعه المقدسي ، الفلسطيني ، الذي أشاع الحياة ، سنة ٩٧٨ ، في هذا المصور الجغرافي ، بما وضعه عليه من دراسة بارعة ، من الوجهة الادبية ، ومواد جمعها من رحلاته الشخصية ، حول البلاد الواقعة في حوزة كل من السامانيين والفاطميين . بيد أن السعودي المتوفى في مصر سنة ٩٤٦ كان اوسع منه أفقاً ، فقدادته شهوة الترحال ، بطريق الهند ، الى سيلان والبحر الصيني . ومع ذلك فلم يكن يعتبر نشاطه في ميدان الجغرافية إلا اساساً يقيم عليه مؤلفاته التاريخية المسهبة التي لم يصلنا منها غير نتف يسيرة ، مع الاسف .

انهار الدولة السامانية
وأخيراً انتهى امر السامانية نتيجةً للآفة نفسها التي قضت على

العباسيين . ذلك انهم انتهوا الى ما انتهى اليه العباسيون من
الاعتماد على الاتراك ، كمصدر لا يزال بعيداً عن النضوب ، في
إمداد جيوشهم بالعناصر الجديدة ، بل لقد ذهب السامانيون من هذه
الناحية إلى ابعد ، لما كان في حوزتهم من البقاع الشاسعة الآهلة
بالاتراك . والواقع ان الاتراك ما لبثوا ان نفذوا ، تدريجياً ،
شأنهم في بغداد ، الى الرتب العليا في الجيش الساماني ، ومن ثم
انتقوا الى الادارة المدنية حيث أمسوا بعد برهة وجيزة خطراً على
الدولة بسبب من السلطات الواسعة التي آلت اليهم . وكان عبد
الملك الاول الساماني (٩٥٤ - ٩٦١) قد عين المملوك التركي ،
ألبتكين ، قائداً عاماً في خراسان ابتغاء اقصائه ، في الدرجة
الاولى ، عن العاصمة ، بعد ان تعاضم فيها سلطانه الى حد بعيد .
حتى اذا توفي عبد الملك انسحب ألبتكين الى غزنة ، في جبال
سليمان بافغانستان ، وكان ابوه حاكماً عليها من قبل . بيد ان
المنية عاجلت ألبتكين هذا قبل ان يمسى خطراً على السامانيين .
ولكن مملوكه سبكتكين ، الذي صار صهره في ما بعد ، لم يلبث
ان طرد سائر ورثته وانشأ ينشر سلطانه من طريق الفتوح في
الهند . ولقد وفق بادية الامر الى الاستيلاء على مدينة بئست في
سجستان . وكان اميرها قد استعداه على رجل اغتصب عرشه ،
فاعاده سبكتكين وقام بنصره . حتى اذا تخلف هذا الامير عن
اعطاء الجزية التي وعد بها لقاء تلك الخدمة خسر عرشه بالكلية .
وكانت حملات سبكتكين اكثر نجاحاً في الهند ، حيث مهدت
منازعات الامراء السبيل امام قواته فانتقل فيها من نصر الى نصر ،

ورجع بالغنائم الوافرة . والواقع انه شنّ حملتين مظفرتين على ملك البنجاب ، جيبال ، فاكرهه على ان يتخلى له عن إقليم كابل الهامّ الواقع على الحدود والذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الحصب . وهكذا اشتهر ببطل الاسلام وهازم الكافرين .

محمود الغزنوي

وكان ابنه محمود ، الذي ولاه السامانيون خراسان سنة ٩٩٤ هـ وساعده الايمن في هذه الحملات كلها . وفي سنة ٩٩٧ هـ توفي بسبكتكين فخلفه ابنه الاكبر اسماعيل ، وكان مبذراً قليل الكفاية . فلم يكن من اخيه محمود الا ان طلب اليه التنازل عن الملك ، فأبى . فلما كانت السنة التالية حمله على ذلك بقوة السلاح ، وورق العرش متخدّاً لقب السلطان بعد سبعة اشهر من وفاة ابيه . وفي السنة نفسها مات نوح الساماني ايضاً ، وخلفه ابنه منصور . فأصدر محمود أمره اليه بوجوب التخلي له عن خراسان ، ولايته القديمة ، ولكن منصوراً خلع قبل ان يتم ذلك ، بعد ان سمل احد القواد الاتراك عينيه ، ورُفِع أخوه عبد الملك الى عرش السامانية . وهنا صار في استطاعة محمود ان ينتحل صفة المدافع عن مبدأ «الشرعية» فطرد الثائر وسيده الجديد من بلخ واتخذها دار ملك له . والحق ان عبد الملك فرّ الى بخارى حيث ظفر به أيلك خان المتغلب على تركستان واقتاده الى الجرجانية (كُرْ كَانْج) . وحوالى سنة ١٠٠٤ قُتِل المستنصر ، آخر السامانيين ، بعد عدة مغامرات مخففة قام بها . ومهما يكن من أمر فقد نال محمود اعتراف الخليفة الرسمي

بدولته ، وكانت لا تزال مفتقرة اليه ، ولقّب كذلك بيدين الدولة .

الفتوح في الهند

كانت حياة محمود الغزنوي حافلة بالمغازي المتواصلة . ولقد سار بجيوشه الى الهند مرة بعد مرة ؛ ففي سنة ١٠٠١ تم له فتح كابلستان وبعد ذلك بقليل فتح ملتان وقشمير وسعى إلى أن ينشر لواء الاسلام ويحله محل البرهمية في كل مكان . ثم انه اضطر سنة ١٠٠٦ الى أن يدفع عن ممتلكاته الشمالية هجوماً شتته عليها أيلك خان ، فهزمه محمود هزيمة منكرة في سهل بلخ . وعلى الأثر انقلب الى الهند يواصل فيها أعمال الفتح ، فأخضع البنجاب حيث استطاع اعقابه من بعده أن يثبتوا سلطانهم ، في عاصمتهم لاهور ، طوال مائة وخمسين سنة . ومهما يكن ، فقد اندفع محمود في فتوحاته هذه بعيداً إلى ما وراء نهر الكنج ، ليختم فتوحه في الهند سنة ١٠٢٥ باحتلال كجرات . وكان في الوقت نفسه قد بسط سلطانه في الشمال واستولى على خوارزم في الشرق والكُرُج [جورجيا] في الغرب . وفي سنة ١٠٢٦ انتزع الري من مجد الدولة البويهى واقتاده إلى عاصمته ، غزنة .

البيروني

ولكن ذلك الجندي الجافي كان أبعد ما يكون عن العداوة لفتون السلم . فقد زين عاصمته بالابنية الفخمة منزهة عتبات مسجده وقصره من اصنام هيكل سُومَنات البرهمي في كجرات بعد ان انتهبه سنة ١٠٢٦ ، وإذ قد حل الخراب بساحة المدينة ، بعد سقوط الدولة الغزنوية فلم يبق لنا من آثار محمود العمرانية

غير مؤذنة جامعه ، وغير ضريحه الذي أمر الانكليز بنقل أبوابه الخارجية الى الهند ، سنة ١٨٤٢ ، ظناً منهم أنها كانت هي ايضاً جزءاً من هيكل سُومَنات في وقت من الأوقات . والحق أن محموداً عرف كيف يجتذب الى بلاطه العلماء والشعراء ، ايضاً . ففي السنوات الأخيرة من حياته كان في خدمته عالمٌ عصره العظيم وأحد كبار العلماء في الدنيا الاسلامية بومنتها ، ابو الريحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة ١٠١٧ عندما استولى محمود على ممتلكات ولي نعمته سابقاً [أبي الحريص محمد بن علي بن] المأمون [آخر ملوك الدولة الخوارزمية الاولى] . ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية المفتوحة . ولقد تعلم السنسكريتية على بعض العلماء الوطنيين ، ففتحت له هذه المعرفة مغاليق الثقافة الهندية الغنية من الوجهتين العلمية والدينية . حتى اذا كانت سنة ١٠١٧ شرع في تأليف كتابه الشهير عن الهند * الذي يُعتبر ، بوصفه صورة كاملة عن عالمٍ ثقافي غريب ، نسيج وحده في الأدب العربي ، والذي ادى للدراسات الأوروبية خدمة جلي ايضاً . وكان البيروني قد أُلّف بجرجان سنة ١٠٠٠ ، وهو في ريتق الشباب كتاباً * استعرض فيه تاريخ الشعوب كلها ٢٨ . وكان محمود بوصفه تركيا ، غيوراً على السنة . ومن

* « تحقيق ما للهند »

[المعربات]

** « الآثار الباقية عن القرون الخالية »

[المعربات]

(٢٨) ترجم E. Sachan كتاب التاريخ الى الانكليزية ، واصدره في لندن سنة ١٨٧٩ ، كما ترجم كتاب [تحقيق ما] للهند في مجلدين صدرتا سنة ١٨٨٨ واعيد طبعها سنة ١٩١٠ . بلندن ايضاً .

هنا أثر الأدب العربي على الأدب الفارسي الذي كان حملة لوائه من الشيعة في الأمم الأغلب . والواقع أنه شنّ حرباً على أهل البدع جميعاً ، فلم يكتف باضطهاد الاسماعيلية ، وهم أكثر الشيعة تطرفاً ومغالاة ، بل عدا ذلك إلى اضطهاد الفقهاء من أصحاب النزعة الاعتزالية . والذي لا شك فيه أنه لم يفهم إلا قليلاً من كتاب « اليميني » الذي تغنى فيه العتبي ، صاحب البريد في كسج رُستاق ، بما تيه وُبطولاته . ذلك بأن هذا الكتاب يُعدّ من النماذج الأولى لذلك الاسلوب البلاغي ، التافه الى حدّ مُثير للاشمئزاز ، المثقل بالمحسنات البديعية ، الذي تطرّق ، في عصر الانحطاط هذا ، من كتابات دواوين الفرس إلى كتب التاريخ العربية ، والذي اورث الاطناب في الشرق سمعةً غير صالحة .

الفردوسي

ولم يكن محمود بقادر على ان يفهم شيئاً من شعر الفردوسي ، شاعر الفرس الملحمي الأكبر ، الذي سعى ، على غير طائل ، الى كسب عطفه ونيل الحظوة عنده ، وكان واحداً من رعاياه . والحق ان الاساطير المتصلة بماوك الفرس وابطالهم كانت حتى ذلك الحين تُنقل بطريق الرواية ، في المحل الاول ، وان تكن أساسها قد وُضعت قبل ذلك في المؤلفات النظرية الفهلوية التي نقلها ابن المقفع الى اللسان العربي ، جاعلاً اياها في متناول المؤرخين العرب ، وبخاصة الطبري . وفي سنة ٩٥٧ عهد موظف كبير يدعى ابامنصور المعمرى الى اربعة من الرجال في ان يعيدوا صياغة هذه الاساطير كلها في كتاب يضعونه نثراً باللغة الفارسية الحديثة لأبي منصور

ابن عبد الرزاق حاكم طوس ، في خراسان ، آنذاك . بيد ان
اولى المحاولات الى اخراج هذه الثروة الادبية في الثوب الفني
الجدير بها كانت محاولة الشاعر دقيقي الذي لمع في بلاط نوح
بن منصور الساماني (٩٧٦ - ٩٩٧) ، ولكنه قُتل بيد احد
الغلمان ، ولما ينظم لإلنحوّاً من الف بيت . وفي حوالي سنة ٩٩٠
نهض بالمهمة من بعده الفردوسي * ، الشاعر الطوسي ، وكان قد
تخطى الستين ، فأتمها في احد عشر عاماً . والواقع اننا نقع في
الشاهنامة (كتاب الملوك) على روح الاسلوب الملحمي الفارسي
في قمة اكتماله ؛ وانما لتكشف ، برغم نطيتها ورتابتها ، عن عبقرية
شعرية بارعة . ولقد رفع الفردوسي ملحمة هذه الى سيد بلاده ،
السلطان محمود ، بعد ان مجّده في مواطن كثيرة منها ، ذاهباً الى
انه أشد الملوك بأساً وأرأفهم بالعباد . وطال انتظار الشاعر للجائزة
المرجوة . حتى اذا تحرك السلطان للانعام عليه لم تجد كفه بغير
هبة حقيمة . فكان جواب الفردوسي هجاءً لاذعاً قدّم به للمحمة
الخالدة ، معارضاً آياتها التي تمتدح السلطان . ولكي ينجو الفردوسي
من غضب محمود اتخذ سبيله في اتجاه الغرب ، قاصداً بلاط بهاء الدولة
البويهبي في بغداد حيث نظم ملحمة « يوسف وزليخا » التي تداني
الآلياذة طول نفّس ، وتنهض دليلاً على النضارة النادرة التي يتميز
بها قلب هذا الرجل المشرف على الثمانين . وعلى الرغم من ان آياتها
تجري في سهولة ورشاقة ، من قاهه ، لما تيسر له من طول المزاولة
والاختبار ، فهي تعتبر ، عند الفرس ، دون الشاهنامة جودة

* « فردوسي » من غير تعريف ، عند الفرس [المعربان]

ومكانة . ولكن الشاعر العجوز لم يلبث ان ضاق ذرعاً بالعراق
وحياته التي تغاير كل المغايرة الحياة في بلاده ، ففقل الى بلده ،
طوس ، بعد ان استوثق من عفو السلطان محمود . وهناك توفي
بعد سنة ١٠٢٠ بقليل . والحق ان آثار الفردوسي التي تستغرق ،
في نظام شعري كامل ، جماع ذكريات الفرس الاسطورية
والتاريخية ، والتي لا تلتزم أبداً ، رغم ضخامتها (إذ تبلغ نحواً من
ثمانية أضعاف الألياذة) اسلوباً واحداً لا يتغير ، - إن هذه الآثار
ليعتبرها الفرس ، بحق ، اعظم الروائع الشعرية في أدبهم كله .
ولقد ظل اسلوب الفردوسي مثلاً يُحتذى في شعر الفرس الملحمي
برمه ، ثم في شعر الاتراك ايضاً . ومن هنا كان طبيعياً جداً
أن تحتفل الامة الايرانية ، وقد تفتح عندها الوعي القومي في ظل
الشاه رضا بهاوي ، بالعيد الالفى لشاعرها الاكبر سنة
١٩٣٤ . والحق أن هذا التاريخ قد اختير اختياراً تحكيمياً ،
او يكاد ، بالنظر إلى تضارب الروايات في تعيين السنة التي توفي
فيها الشاعر .

السلاجقة

وإذ قد أظهر البويهيون عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في
قلب الامبراطورية ، فلم يلبث الفرس ، هنا ايضاً ، ان تُطردوا على
يد الاتراك . ذلك ان عشيرة جديدة نجمت بين الدولة الأيلىكخانية
بتركستان وسلاطين غزنة ، ثم تعاظمت قوتها حتى لقد انتهت الى
السيطرة على الشرق الأدنى بكامله . فحوالى سنة ٩٧٠ خرج
سلجوق ، مقدم الغز ، مع عشيرته من بادية القيرغيز إلى جند ،

حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أرال) * ، ومن ثمّ
 انتقلوا إلى بخارى . ويتألف الغزّ ، الذي دُعوا ايضاً التتركان
 بعد دخولهم في الاسلام ، من مجموعة العشائر الكبرى التي أسست
 المملكة الشمالية في القرن السادس ، وما فتئت تنتقل منذ ذلك
 الحين في اتجاه الغرب . حتى اذا اعتنق هؤلاء الاتراك الاسلام
 انحازوا الى السنة التي كان فحوى معتقدها الواضح الرصين يتلاءم
 وعقولهم البسيطة ، فاقبلوا عليها واعتنقوها بكل ما في نفوسهم
 الفظة من قوة وحماسة . ثم ان عشيرة سلجوق شاركت في الحروب
 القائمة بين السامانيين والقراخانية ، كما شاركت بعد ذلك في الحروب
 الناشئة بين الدولة الأيلىك خانية والدولة الغزنوية . ليس هذا
 فقط ، بل لقد شنّ السلاجقة غزواتٍ مستقلة حملتهم في اتجاه الغرب
 حتى آذربيجان والعراق . وفي سنة ١٠٤٠ انتزع طغرلبك محمد
 وجغري بك داود ، حفيدا سلجوق ، خراسان من مسعود بن
 محمود الغزنوي بعد أن اخفقت محاولتها الى الاستيلاء على سمرقند
 وبخارى ، فخطب لداود في مرو ، وخطب لطرغلبك في نيسابور .
 واذا لم يلبث الخلاف ان نشب بين الغزنويين أنفسهم فقد وفق
 السلاجقة إلى بسط سلطانهم على حساب غزنة ، فاحتلوا خوارزم
 وطبرستان . وفي سنة ١٠٤٣ احتلوا عراق العجم (الجبال)
 نفسه . وبعد جهدٍ يسير استطاعوا القضاء على الدولة البويهية
 بفارس . وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب الى
 العراق ؛ ولقد وقع اختيارهم على الريّ اولاً ، وعلى إصفهان

* وتسمى ايضاً بحيرة الجند . (بفتح الجيم) [المرعبان]

بعد ذلك .

وكان طبيعياً أن يرغب الخليفة العباسي « القائم » (١٠٣١ - ١٠٧٥) في أن يستبدل حماية هذا السلطان ، المتغلب حديثاً على بلاد الشرق ، بحماية الملك البويهبي الذي كان أحد قواده الاتراك ، واسمه البساسيري ، قد جرّده من السلطة كلها . فلما كانت سنة ١٠٥٥ وانتهى طغرلبيك إلى حلوان ، استنجد به القائم وأمر بان يُخطب له في جوامع العراق . أما الملك الرحيم ، آخر ملوك البويهبيين ، فتوفي في سجن بالرّي سنة ١٠٥٨ . ولكنّ السلاجقة لم يستطيعوا إخطاع البساسيري في سهولة ويسر . وتفصيل ذلك أن البساسيري فرّ إلى الشمال فتعقبه طغرلبيك حتى الموصل . وهنا انفصل عنه أخوه لأُمّه ، ابراهيم بن ينال ، وانقلب إلى همّذان . فلم يكن من طغرلبيك إلا أن سعى إلى إخضاعه ، فلم يتمّ له ذلك إلا بعد أن أنجده ألب ارسلان ، ابن أخيه داود ، وكان حاكماً على سجستان . وهكذا بقي ابراهيم حتفه ، في ٣ آب سنة ١٠٥٩ ، جزء وفاقاً على خيانتته . وعرف البساسيري كيف يفيد من هذا النزاع فحازب قريش بن بدران ، أحد امراء الدولة العُقَيْلية العربية ، واستولى على بغداد بعد أن خلت بمن يحميها من الجند . [واستندم الخليفة من قريش بن بدران بدمام الله ورسوله ودمام العربية] فأعطاه ذلك وسار به إلى عانة في بلاد الجزيرة ، بينما خطب البساسيري للمستنصر الفاطمي [وهتف باسم آل البيت] على منابر المدن التي آلت إليه . ولم يكد طغرلبيك يقضي على حركة ابراهيم بن ينال حتى أعاد الخليفة إلى بغداد ، فخلع عليه ، جزء ما

اسدى اليه من خدمة، لقبَ ملك الشرق والغرب. وفر البساسيري الى واسط حيث قُتِل في معركة خاضها ضد جيوش السلاجقة، اوائل سنة ١٠٦٠.

وفي سنة ١٠٦٣ توفي طغرل بك فخلفه ابن اخيه، ألب ارسلان الذي كان في السنوات الاخيرة من حياة أبيه، داود، على رأس الحكم في البلدان الخاضعة له. ولقد كان عليه بادىء الأمر أن يجمع ثورة ابن عم ابيه [قُتْلُ مِش] الذي عارضه في الملك. حتى إذا تمَّ له ذلك شرع يوسع حدود مملكته من جهاتها جميعاً. ففي الشرق اخضع امارة سُبران بين بُست وكابل. وفي الغرب قاد بنفسه النضال ضد البيزنطيين غير مرة، وان لم يوفق الى تحقيق أي نصرٍ دائمٍ في هذه الجبهة. ذلك بأنه هزم جنود الروم في ملازُ كَرْد، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين، يوم ٢٦ آب سنة ١٠٧١. حتى اذا اطلق سراح رومانوس لم يكن في ميسوره انفاذ أحكام الصلح التي أقرَّها، لأنَّ عرش الروم كان قد آل، في الوقت ذاته، الى الامبراطور ميخائيل السابع. ولكن ألب ارسلان استطاع ان ينتزع من الفاطميين ما في يدهم من البلاد حتى دمشق. وفي كانون الاول سنة ١٠٧٢ عبر نهر جيحون في حملة أراد بها استرجاع موطن آبائه، فقتله احد الثوار الذين اعترم ان يُنزل بهم عقوبة الموت.

ملكشاه والوزير نظام الملك
وعهد ألب ارسلان في الوصاية على ابنه ملكشاه، ولم يكن

قد بلغ الحلم بعدد ، الى الوزير نظام الملك الذي سبق له ان خدم اياه *
كوال على خراسان . والواقع أن ملكشاه حاول غير مرة ان
يتحرر من نفوذ هذا الوصي ويضع حداً لسلطته المطلقة ، على الرغم
من انه مدين له بتثبيت عرشه واخضاع الثائرين من افراد بيته .
ولكن التوفيق لم يحالفه في ما قصد اليه . ولقد تفرد نظام الملك
ايضاً في تعيين الموقف الذي اتخذه من الخليفة ، ووضع قصر الخلافة
تحت مراقبة موظفين بمائتين له . حتى إذا اصطدم بمعارضة الخليفة ،
سنة ١٠٨٣ ، انتقم لنفسه بان عادي ابن مروان ، صاحب ديار بكر ،
آخر العمال الذين كانوا يخضعون للخليفة مباشرة . وفي ظل نظام
الملك نعمت فارس والعراق ، من جديد ، بفترة من الرخاء الى حد
ما ، وإن يكن الوزير - او الاتابك ، كما كان يدعى بوصفه وصياً على
السلطان - مديناً بشهرته ، في المحل الاول ، لما أسبغه من عطف
على الفقهاء والعلماء ، وما ضمنه لهم من موارد بانشاء المدارس في
جميع المدن الرئيسية ، في الامبراطورية . صحيح أن ثمة ما يدل
على أن فارس قد عرفت امثال هذه المنشآت ابتداء من آخر
القرن العاشر ، ولكنها انما حظيت بعطف خاص من هذا الوزير
السلجوقي الذي انشأ « النظامية » ، الحاملة اسمه ، في نيسابور ثم
في بغداد بين سنة ١٠٦٥ و سنة ١٠٦٧ . وبينما كان وزير طغرل بك
لا يزال يضطهد ، في حماسة ، فقهاء الأشعرية الذين عني زعيمهم [أبو
الحسن] علي الأشعري المتوفى سنة ٩٣٥ بالتوفيق بين منهج المعتزلة
الكلامي وبين تفكير السنة ، نجد نظام الملك يشجع هذه النزعة

* اي أبا « ألب ارسلان » .

الجديدة بالذات ، ويؤيدها دون غيرها .

الغزالي

وبرعاية نظام الملك أتمّ الغزالي ، آخر مفكّر ديني كبير في الاسلام ، رسالته في المدرسة النظامية بنيسابور اولاً ثم في نظامية بغداد . وإنما بدأ الغزالي حياته العلمية بدراسة عميقة لمذاهب علماء الكلام الشرعية الفقهية ثم بعرضها في سلسلة مشرقة من كتب التدريس . حتى إذا قُتل وليّه ونصيره ، نظام الملك ، بمنجر احد الاسماعيلية المتعصبين ، عكف على دراسة العقائد الاسماعيلية ليكتب بعدد عدداً من المباحث الجدلية في نقدها وتفنيدها . ولقد قادته هذه الدراسة إلى الاستبحار في عالم الفلسفة أيضاً . ولكن اياً من هذه المذاهب والمعتقدات التي « ناض غمراتها خوض الجسور » لم يروّ تعطشه الى « دَرَك حقائق الامور » ، فتخبّط برهته في دياجير شكوكية حادة ظهر استعدادها منذ شبابه الاول . وفيما هو يجوز هذه الازمة الروحية تمت له تجربة دينية حاسمة . فكما تحرك النبي لاداء رسالته بدافع الخوف من الحساب المرتقب يوم الحشر ، هكذا عصفت بالغزالي أعاصير من الاسئلة حول الآخرة والبعث . فلما كانت سنة ١٠٩٥ اعتزل منصبه السامي ببغداد وطفق يتنقل في البلاد ، ابتغاء إعادة النظر في معتقداته جميعاً ، بعد أن أمسى نهياً مقسماً بين الايمان والعقل . واجتذبه الصوفية إلى ساحتها ، شيئاً بعد شيء ، حاملة الى قلبه اليقين الديني من طريق التجربة الشخصية . والواقع أنه سلخ احدى عشرة سنة في عزلة هادئة ، كان معظمها في الشام ، كتب إبانها كتابه « إحياء علوم الدين » الذي أذاعه

في الناس في مستهلّ القرن الخامس للهجرة (حوالي ١١٠٦ م) .
ذلك ان بعض الاحاديث المروية عن الرسول تذهب الى أن الله
يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد للامة الاسلامية أمر دينها ؛
وقد استشعر الغزالي أنه مدعوّ لهذه المهمة ؛ فواصل ما كان
الأسعري قد بدأه من التوفيق بين علم الكلام والفقّه ، مهيباً لصرح
العقيدة الاسلامية اساساً قائماً على الاسلوب الجدلي . ثم إنه نزل
عند رغبة السلطان محمود السلجوقي (أخى بركيارق) الذي رقي
العرش سنة ١١٠٤ ، ووزيره فخر الملك بن نظام الملك ، فعاود التدريس
في نيسابور فترة يسيرة ، فزرع بعدها إلى العزلة في مسقط رأسه ، طوس ،
حيث توفي وليس له من العمر إلا اربعة وخمسون عاماً ، في ١٩
كانون الاول سنة ١١١١ . ومع أن معاصريه لم يفهموا آثاره
فهماً صحيحاً ، في جميع الاحوال ، (ففي الاخبار مثلاً أن المتعصبين
من اهل السنة في الاندلس أحرقوا كتبه) ، فالواقع انها حظيت
عند الاجيال التالية بمجلّ عظيم ، وكانت بمثابة خميرة أفاد منها
الاسلام في سيره بعد نحو التطور والتجديد .

عمر الحيام

والى جانب هذه العناية بالدراسات الفقهية في عصر السلاجقة
نجد اهتماماً بالغاً في العاوم الطبيعية والرياضية ايضاً . وحسبنا أن
نذكر في هذا المعرض الرياضي الشير ، عمر الحيام ، وهو مواطن
للغزالي توفي في أغلب الظن سنة ١١٣٢ . فقد كانت دراساته في علم
الجبر اول محاولة ناجحة لحل المعادلات التكميية (وقد ميز منها
ثلاث عشرة) ؛ ولم يحلها حلاً جبرياً فحسب ، بل حلاً هندسياً ايضاً .

والواقع أن شهرته البعيدة كرياضي حملت السلطان ملكشاه جلال الدين على أن يمهّد إليه في إصلاح التقويم، فوضع عمر التقويم الجلالى الذي لم يكتب له النجاح ويعم استعماله، على الرغم من انه، بلا شك، أدق من التقويم الغريغوري المألوف. أما شهرته في أوروبا فتقوم في المحل الأول على الرباعيات الفارسية الثاقبة، المقرونة باسمه، التي تدعو في خفة حيناً وفي جد حيناً آخر، الى الاستمتاع بمباهج الحياة، وتذيب أساس الاسلام في وحدة وجود صوفية. والحق ان رباعيات الحيام حظيت، سنوات طويلاً، بشعبية كبيرة في العالم الانكلوسكسوني، بعد ان نقلها فيتزجرالد*، بتصريف، الى الشعر الانكليزي، في حين كان الفضل في تعريف الالمان بها للرجل السياسي روزن** . وعلى الرغم من ورود كثير من هذه الرباعيات في دواوين شعراء آخرين فقد انقضى عهد طويل قبل ان يساور الباحثين الشك في صحة نسبتها الى عمر الحيام. أما وقد وقفنا اليوم على مؤلفات الحيام الموثوقة في الفقه وما وراء الطبيعة فلم يبق محل للريب في ان ما تمثله هذه الرباعيات من استشراف للحياة لا يمكن ان يعزى اليه.

التعصم والمغامات

وفيما فرغ الفرس في هذا العصر الى الخوض في مشكلات الدين والعلم، كان رجل من العرب يبذل كتاباً استغرق من جديد دقائق المعاني في اللسان العربي جميعاً. ذلك ان النثر العربي

Fitzgerald *

Fr. Rosen **

القصصي الذي استطاع ، في الجاهلية ، ان يصف لنا تلك المنازعات الصغرى الناشئة بين القبائل في صور غنية بالوقائع ، ولكن يعوزها التأسك ، انما تكشف عن براعة ايضاً في استعراض الاحداث الكبرى التي تمت عصر الفتوح الاسلامية ، وتصوير النزاع على السلطة بين الاحزاب الاسلامية نفسها . ولقد رأينا آنفاً انه لم يكن بد ، باديء الامر ، من المؤثرات الثقافية الفارسية لتحويل هذه الصور القصيرة النفس الى قصة مديدة مترابطة لتاريخ الامبراطورية . والواقع انه نشأت في العصر الاموي ، بالاضافة الى الاخبار المروية عن النزوات والحروب ، مجموعة من الاخبار عن اشهر العاشقين كانت اساساً لعهد من الحكايات القصيرة التي فصلت بعد احسن تفصيل وأروع . ولكن مهمة العناية بهذه الحكايات تركت ، على الجملة ، للقصاص من العامة ، باعتبار ان ذلك الصنيع لا يليق بالطبقة المثقفة من الأمة . والحق ان نماذج من هذا الفن نقلت الينا من طريق فقهاء اللغة دون غيرهم ، لما مسوا من فائدها في شرح القصائد التي كانوا ينقلونها من جيل الى جيل . كذلك ادخل الفرس ، في عهد مبكر ، شيئاً من ادب الهند القصصي الحُصَب الى الثقافة الاسلامية . ولكن كل ما نعلمه اليوم من هذه الآثار القصصية الوفيرة لا يعدو اسماءها المحفوظة لنا في كتاب الفهرست [للنديم] الذي يرجع الى اواخر القرن العاشر للميلاد . ولم يصلنا الا جزء من هذه المادة الواسعة في مجموعة الف ليلة وليلة التي لم تنشأ حتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وفي القرن التاسع كان الاحتفال باللفظة نفسها

لا يزال يطغى على كل اهتمام آخر في صناعة الادب . وانما يتمثل ذلك ، بخاصة ، في مؤلفات الجاحظ (وكان جماعته) المتوفى في بغداد سنة ٨٦٩ ، فهو لم يستطع ، حتى في كتاب « الحيوانات » الذي التمه في شيخوخته ، وعلى الرغم مما بذله فيه من جهد موفق لتشويق قارئيه الى المسائل العلمية ، ان يعلو على جمع غير منتظم للتفاصيل المختلفة ، فدون رسائل وكتباً عديدة حفلت بالذواجر الطريفة الهادفة الى تصوير مختلف الطبقات الاجتماعية ، وضروب الطبائع البشرية . وكما كان البيت الفرد اعظم شأننا عند الشاعر القديم من تماسك القصيدة وترباطها كذلك اعتقد الجاحظ وقراؤه ان فقرات الحكاية المفردة احق بالعناية من بناء الحكاية ككل . والواقع ان الاحتفال باللفظة البارة الصياغة كان قد انتهى بفن المناظرة الى غاية من الكمال بعيدة ، حتى عند الاعراب . وكان من نتيجة هذه الصناعة البلاغية ايضا الادب الفهاوي الدائر على محور التاريخ ، هذا الادب الذي زفّه ابن المقفع الى العرب بلسان عربي مبين . ولقد ازدهرت هذه الصناعة في المواعظ الدينية وكتابات الدواوين السياسية في ظل الخلافة العباسية ، وبخاصة في بلاطات الدويلات التي قامت على انقاضها . وعلى ايدي البروليتاريا الادبية التي نشأت في الحواضر ، وفي دوائر طلاب المناصب المخففين ، انحدر هذا الفن من تلك الدائرة الرسمية الى بلاغة مسجوعة كانت تساعد تلامذة فقهاء اللغة في تطوافهم من مكان الى مكان على ان يكسبوا عطف وليّ مثير ، او ان يجدوا في ظله راحة قصيرة ، على الاقل . ولقد دُعيت خطب الكندية هذه « مقامات » ، وهو اصطلاح كان

يطلق من قبل على المواعظ الدينية . فمذ النصف الثاني من القرن العاشر وفق بديع الزمان الهمذاني ، وكان يطلب الرزق عند صغار الامراء الفرس ، الى أن يسمو بهذا اللون من القول الى مرتبة الفن الادبي . فهو يُسمعنا على لسان راويته حكايات قصيرة تدفق تدفقاً مسرحياً في نثر بارع السجع ، عما وقع لاحد الادباء الضاربين في الارض من نوادر شهدها هو بنفسه . ولكن بينا اصطنع الهمذاني هذا الشكل الموحد ليعبر بواسطته عن اغراض متباينة الى ابعد الحدود ، نجد الحريري الذي جرى على آثاره بعد مائة عام تقريباً يأخذ نفسه بتصوير هذه المشاهد دون غيرها . والحق ان الحريري كان - على خلاف سلفه الذي عرف كيف يفيد من خبراته الشخصية كاديب متجول - بَرَّجاسيا * موسراً ، وكان « صاحب الخبر » بمسقط رأسه ، أمشان البصرة ، حيث توفي سنة ١١٢٢ . ولقد حظيت مقاماته التي تروي مغامرات ابي زيد السروجي بنجاح عظيم . وعلى الرغم من انه كان دون بديع الزمان في القدرة على التخيل فقد فاقه في اصطناع الانشاء البديعي المتكلف الذي امسى منذ ذلك الحين صفة لازمة لهذا الفن . ومن الخير ان نشير هنا الى ان مقامات الحريري وجدت من يقلدها في الآداب الاجنبية ، من مثل اليهودي الاسباني « الحريري » في العبرية ، و « عبد يشوع » ، أسقف نصيبين في السريانية ، كما وجدت خير مرآة لها في اللغة الالمانية على يد روكرت * في كتابه « مغامرات

bourgeois **

Rückert *

ابي زيد السروجي * ولقد ظل العرب يرون في مقامات الحريري وقصائد المنتبي أكمل تمييز عن روحهم ، حتى مطلع العصر الحديث .

الادارة في امبراطورية السلاجقة

ونحن مدينون للوزير نظام الملك برسالة رائعة كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية ، حتى في عهد نظام الملك نفسه . ولقد وضعت هذه الرسالة باللغة الفارسية تلبية لرغبة السلطان قبيل وفاته سنة ١٠٩٢ ، ولكنها لم تنشر الا بعد اثنتين وعشرين سنة . وإذ قد افترض المؤلف ان قارئه على علم بالاحوال السائدة آنذاك ، فلسنا نقع في الرسالة على ما يبصرنا كثيراً بتنظيم الدولة الداخلي . والواقع انه يحذر السلطان من تدخل اصدقائه الشخصيين تدخلاً غير مسؤول في شؤون الدولة ، مقترحاً في الوقت نفسه اعادة انشاء المؤسسة البريدية القديمة وحمل اصحاب البريد على تزويد الحكومة بالانباء (وكان الب ارسلان ، ابو السلطان ، قد الغاها) ، ومطالباً بتشديد الرقابة من طريق العيون ورجال الاستخبارات السريين . والذي يظهر ان القضاء كان في حال خطيرة : فقد حذر من انتداب احد بمالك البلاط للنظر في الدعاوى وإصدار الأحكام لأن هذا الملوك خليق بأن يستغل سلطته بابتزاز رسوم باهظة متباينة . وهنا نلمح اثر آخر من آثار القاعدة الفاسدة التي كان الاتراك القدماء يعملون بها ، فيعهدون في شؤون القضاء الى موظفين يعينهم الامير ، على الرغم من ان نظام الملك لم يستطع أن يحول بين القضاة

*Verwandlungen des Abu Said von Serug. **

المعدّين إعداداً شرعياً وتزويجاً الى استغلال مناصبهم . كذلك حدّر نظام الملك ، بحقّ من تضحّم الوظائف ، وهي حال كانت قائمة حتى في أيام العباسيين . وهو يعرفنا ، في الحقل العسكري ، بحقيقة هامة هي وجود الجيوش الاقطاعية الى جانب المرتزقة . والحقّ ان نظام الملك ، الذي لم يشغل نفسه ، على العموم ، بتحرّي الوقائع التاريخية ، قد أخطأ عندما اعتبر هذه النزعة ظاهرة جديدة بالكلية . فقد كانت قائمة ، على كل حال ، في عهد العباسيين ولو في شكل استثنائي . والمفروض أنها لم تُعرف في الدولة الغزنوية . أما في عهد الاتراك في الغرب وبخاصة العثمانيين ، فقد انتهت هذه الظاهرة بعدئذ إلى أن تكون اساساً لبناء الدولة كله . ثم ان نظام الملك أشار بضرورة تحديد الاراضي التي يُقطعها السلطان تحديداً دقيقاً ، وقال بأقطاعها الى أجل مسمى . واخيراً اضاف ، قبيل مقتله ، فضلاً جديداً نبّه فيه السلطان الى خطر الاسماعيلية على امبراطوريته .

ووسع ملكشاه حدود امبراطوريته أيضاً . وفي سنة ١٠٨٩ - ١٠٩٠ أخضع سمرقند وكاشغر . ليس هذا فقط ، بل لقد انتزع سورية من الفاطميين بالكلية ، فنشأت في دمشق وبيت المقدس إمارتان ثانويتان خاضعتان لسلطانه . وتوجه ابن عمه سليمان بن قُتلمش إلى آسية الصغرى ابتغاء الفتح . وسنعرض بعدئذ لما جرى هنالك من أحداث .

المشاهون

وفي عهد ملكشاه عرفت الامبراطورية عدواً داخلياً قُدّر

له ان ينشر الذعر في ربوع الشرق الأدنى ، سنوات طوالاً .
والواقع أن نظام الملوك لم يحدّر السلطان من مكائد الطوائف
الشيعة لغير ما سبب . ذلك بأن التشيع ، الذي بدأ اول ما بدأ
حزباً سلالياً خالصاً انضوى تحت لوائه الداخول حديثاً في الاسلام
ليناضوا ضدّ السيادة العربية ، كان في كثير من الاحيان ستاراً
يستخدمه الانتهازيون الذين لا ذمة لهم ولا ذمام ، لتحقيق اهدافهم
الانانية الصرفة ، المناهضة للحكومة . وكان في جملة دعاة الشيعة
المنتقلين في البلاد ، في عهد ملكشاه ، لاجتذاب الغوغاء من طريق
التبشير بقرب ظهور المهدي الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين ،
رجلٌ يدعى الحسن بن الصباح . والاسطورة تتحدّث عن الصداقة
التي كانت تربطه ، أيام الشباب الأوّل ، بالوزير نظام الملك
والرياضي الكبير عمر الحيام . ثم انه رحل الى مصر حيث استهوته
الدعوة الفاطمية وانحاز الى صف نزار ابن الخليفة المستنصر ،
ولكن نزاراً هذا لم يوفق الى ارتقاء العرش . ومن هنا عرف
اتباع الحسن بالنزارية ايضاً . وفي سنة ١٠٩٠ عاد الى فارس
كداعية من دعاة الفاطميين فعسكر مع عصبة قليلة من اتباعه
أمام قلعة أَلْمُوتِ الجبلية «ملجأ العقبان» ، وتقع في ناحية رُوذْبار
على مسافة ستين فرسخاً الى الشمال من قزوین ٢٩ ، ودعا قائده
حاميتها من قبل ملكشاه الى ان يُقسم بين الولاة له مستنصر . حتى

(٢٩) انظر إيفانوف W. Ivanow in *Geographical Journal*, 1931

L X X V I, 38 - 45.

وراجع ايضاً : *Islamic Culture* XII, 1938, 383 - 392 .

إذا رفض القائد ذلك هاجم الحسن القلعة واتخذها قاعدة لقواته .
 والواقع أنه نظم جماعته ، على الطريقة الفاطمية ، وجعل أتباعه
 درجات ، منهم المقربون ومنهم ما دون ذلك . وبينما كان أفراد الطبقة
 الأكثر اتصالاً به يحيون حياة إباحية لا يحد منها أي من قيود
 الاخلاق أو الدين ، كان أتباعهم ينشأون على أشد التعصب واغلظه .
 وكان المتقدمون في الجماعة يدخلون في روع هؤلاء الاتباع ان في قتل
 رجل من اعداء الايمان الحق ، اذا اشار به زعيمهم ، ما يكسبهم رضواناً
 من الله ، ويدخلهم جنات النعيم . وكان هؤلاء الفتيك يدعون « الفدائيين »
 او « الحشاشين » (ومن هنا اسمهم في اللغات الاجنبية assass ns)
 والحق ان تعاطي المنبهات كان فاشياً في الحلقات الصوفية في غير
 هذا الموطن ايضاً . ففي القرن السادس عشر استعملت القهوة لمثل
 هذه الاغراض في بلاد العرب الجنوبية . وهكذا فليس بعيداً ان
 يكون ما نقله سائح البندقية العالمي ماركو بولو عن هؤلاء الحشاشين
 - وقد مرّ في منطقة الموت بعد مائتي عام تقريباً (١٢٧١ او ١٢٧٢)
 مجرد خرافة . فقد اورد هذا السائح ان الفدائيين كانوا يجامون
 اثناء تناولهم الحشيش ، الى جزء من حدائق الموت الغناء الغاصة
 بالكواعب الحسان ، ليكون في ذلك ما يدفعهم الى إنفاذ ارادة
 الزعيم ، بعد ان يتذوقوا طعم اللذات التي تنتظرهم ، في العالم الآخر
 حيث يتبدلون بهذه الحدائق والكواعب جنات خالداً تزهو بالحور
 العين . ومن قلعة الموت وفقت هذه الجماعة الى الاستيلاء على حصون
 اخرى في فارس وسورية خلال فترة قصيرة من الزمن . واخفقت
 جميع محاولات الدولة السلجوقية الى القضاء عليهم . حتى اذا

كانت سنة ١٠٩٢ انفذ الحشاشون حكم الموت في نظام الملك ، وان
يكن ثمة مجالاً للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة
بعد أن بلغ سن الرشد وضاق ذرعاً بنفوذ وزيره المتعاضم ، وسلطانه
المطلق . وايا ما كان ، فقد توفي للسلطان ، بعد مصرع الوزير
بشهرين ، إلا قليلاً .

في ظل بركيارق واخيه محمد

وكان على السلطان بركيارق ، الذي سماه ملكشاه خلفته ،
ان يحامي عن حقوقه ، بادىء الامر ، ضد ام اخيه ، محمود ، وليس
له من العمر غير اربع سنوات ، وضد عمه تُتُش [بن ألب ارسلان]
صاحب دمشق . وفيما كان هذا الصراع قائماً اظهر الخليفة المقتدي
استعداده للاعتراف بمحمود سلطاناً ، ولكن بركيارق لم يلبث أن
احرز النصر على اشياخ اخيه سنة ١٠٩٢ ، وانقم من المقتدي
بقتله . أما نضال بركيارق ضد عمه تُتُش فتطاول سنةً اخرى ،
ولم ينته إلا بعد معركة قتل فيها هذا الاخير قرب الري بفارس ،
وكان قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الفراتية ، واكره
المستظهر العباسي على اقامة الخطبة باسمه [اي باسم بركيارق] في
المساجد . بيد أن الأمر لم يستقم لبركيارق ، فخرج عليه نفرٌ
آخرون من ذوي قرباه . وتفصيل ذلك ان عمه ارسلان أرغون
اعلن استقلاله بخراسان ، ولكن مملوكاً من مماليكه اغتاله سنة
١٠٩٦ فانتظمت البلاد في الامبراطورية ، كرتةً اخرى . وفي
سنة ١٠٩٩ خرج عليه اخوه محمد ، وكان اميراً على آذربيجان ،
يسانده اخوه الثالث سنجر ، وكان بركيارق قد عينه اميراً على

خراسان ، واكراهه على الفرار الى جبال دامغان بعد معرفتين
كتب النصر فيها للثائرين . ثم ان المعارك تعاقبت سجلاً بسين
الفربيين ، حتى اذا كانت سنة ١١٠٣ عُقد بينها صلح اعترف
بركيارق ، بموجبه ، باستقلال اخيه محمد ، وعين اخاه سنجر اميراً
من قبله على خراسان . فلما توفي بركيارق ، بعد عام واحد ،
تاركاً وراءه ولداً صغيراً ، استبد محمد بالأمر كله .

وفي عهد محمد (١١٠٥ - ١١١٨) نعم الشرق بهدوء نسبي ،
كرةً اخرى . ذلك بانه افرغ الجهد في تقويض اركان الدولات
الطيفية التي ما انفكت تبرز في المناطق النائية . فهزم سنة ١١٠٨
الزعيم العربي ابا صدقة ، رأس بني مزيد ، وكانوا قد ظهروا في
الحلة ، قرب بابل ، وبسطوا سلطانهم على القبائل النازلة في الجزيرة .
بيد انه لم يوفق ، على كل حال ، الى القضاء على سرطان
الامبراطورية العسال ، الحشاشين ، على الرغم من انه اجتاح
حصونهم في مواطن عدة ، وانتهى سنة ١١١٨ الى حشد محاصرة
الموت نفسها . ولكن محمداً توفي ، في ١٨ نيسان ، وسنة سبع
وثلاثون ، قبل أن تستسلم القلعة . ولعله مات بسبب دسه له احد
انصار الحشاشين . والواقع ان جنده ما كادوا يتسامعون بنبأ وفاته
حتى رفعوا الحصار في الحال ، اذ لم يعرفوا المن سيكون
ولاؤهم بعد .

وعقب وفاة الحسن بن الصباح ، سنة ١١٢٤ ، تمكن اتباعه
لانفسهم في سورية ايضاً ، واشتركوا في النضال ضد الصليبيين

مرات عديدة . وفي سنة ١١٤٠ احتلوا قلعة مصياد * ، على السفح
الشرقي من جبل النصيرية . وكانت قبل ذلك مقر النائب زعيمهم
الاكبر [داعي الدعاء] في الموت . وسنلقي بهذا النائب بعد ،
بوصفه شيخ الجبل ، وكان ذا أثر كبير في النزاع على السيادة
في سورية .

وتجزأت الامبراطورية السلجوقية في سرعة بالغة . وفقد
الامراء من هذا البيت سلطاتهم بالكلية بعد ان استبد بها من دونهم
الاتابك ، الاوصياء عليهم . والحق أن بعض هؤلاء الاتابك استطاعوا
من طريق الادارة الحازمة ، أن ينهضوا بمقاطعاتهم الصغيرة
ويحسّنوا من أحوالها ، فترة من الزمان .

* وجاءت أيضاً على « مصياب » و « مصيات » و « مصيف » .

[العربات]

الاسلام في الاندلس وشمال إفريقيا

في هذه الأثناء كان الاسلام قد تخطى - منذ زمن طويل - الأوج الذي انتهى اليه في بلاد الاندلس . ففي عهد [مروان بن محمد] ، آثر الخلفاء الامويين ، توقفت الحروب الظافرة ضد النصارى بسبب من الخلاف الناشب بين البربر والعرب ، وبسبب من انشقاق العرب انفسهم ، في تلك الديار ايضاً ، الى قبسبة وكنيسة . حتى اذا اخذت سلطة الامويين ، في سورية ، تضعف وتتضاءل عبر خمسمائة عربي على رأسهم بلنج بن بشر من إفريقية الى الاندلس واستقروا في منطقتي البيرة وجبان . وكان حفيد الخليفة هشام ، عبد الرحمن الملقب بصقر قریش ، قد فر قبل ذلك ، إبقاءً على نفسه من بطش العباسيين ، الى شمالي افريقية حيث وجد الأمن في بلاط الرستميّين في تاهرت . وإذ لم يكن ثمة مجال لأن يحتل مركزاً جديراً بنسبه الرفيع ، فقد تطلع الى الاندلس التي كان اميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري بعيداً عن رقابة العاصمة ، وليس له من نصير غير زعيم القبسبة الصمّيل الكلابي . وبالانفاق

مع موالي المروانية استطاع الامير الاموي ان يظأ الأرض
الاندلسية عند مرسي المنكب (بفتح الكاف) في ايلول سنة ٧٥٥ ويمتدق
الحسام في الحال ضد يوسف الفهري. وفي ١٥ نوار سنة ٧٥٦ جعل قرطبة
قاعدة لدولته بعد ان بايعه الناس بالامارة. وما لبث ان وُقق
الى جمع شتات القوة الاسلامية ووسع من نطاق سلطانه بمحاربة
النصارى، على الرغم مما حفل به حكمه الطويل (٧٥٦ - ٧٨٨).
من ثورات داخلية متواصلة. وحاول يوسف الفهري،
امير الاندلس السابق، ان يستعيد قرطبة، ولكنه
سقط في الميدان، سنة ٧٥٩، قرب طليطلة. ولم ينقطع
عرب الجنوب [اليانية] والبربر عن معارضة الأموي والانتقاض
عليه كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. والواقع أن شارلمان [قارله]،
مؤسس الامبراطورية الفرنجية القوية، أسهم مرة في هذه الحروب.
وتفصيل ذلك أنه فيما كان في احد ايام شهر نوار سنة ٧٧٧ يجتقل
في مدينة بادربورن بانتصاره على السكسون وفد عليه الشيخ
سليمان العربي، من زعماء اليانية، يصحبه نفر من اقرباء الامير
يوسف، فاستعدوه على الامويين. ولما كان شارلمان يرى أن من
اخير أن تقوم علاقاته بالقوة الاسلامية النامية، على اساس من
الود، ولما كان عبد الرحمن قد صور له في الظاهر، كمغضب
للسلطة الشرعية فقد وعد ذلك الوفد بنصره وتأييده. وكان
التدبير يقضي بأن يبعث شارلمان بجنده عبر جبال البرانس
[البرت] فيلتحق بهم في الحال يوسف امير برشلونه، في حين
يملن اقرباء يوسف وافراد قبيلته، فهر، العصيان على الامويين

في الجنوب الشرقي من البلاد . ولكن نيران الثورة اندلعت قبل
مقاتلتها المتفق عليه فأخمدها عبد الرحمن ، تسانده اليبانية . حتى اذا
ظهر الفرنجة امام ابواب سرقسطة ، سنة ٧٧٨ ، ابى اهلها ان
يقسموا بين الطاعة للشيخ سليمان العربي ، وكان في مدينتهم ،
واوعدوا الابواب في وجه النصارى . وفي أثناء الحصار جاء
شارلمان نبا الثورة الجديدة التي قام بها السكسون بعيد خروجه
لقتال الامويين . فاضطر إلى التخلي عن مشروعه الاسباني في
الحال . وفيما هو يجتاز جبال البرانس راجعاً ، انقض البشكنس *
على مؤخرة جيوشه (وكانت تحت قيادة رتلانند حاكم الساحل
البريطاني ** في باب الشزري *** وانزلوا بها هزيمة سارت
بذكرها الاساطير . لم يكد الفرنجة ينسحبون حتى اندفع
عبد الرحمن في اتجاه الشمال . فوفق سنة ٧٨٠ الى احتلال سرقسطة ،
والحاقها بأمارته ، ولو إلى حين ، والى اخضاع البشكنس أيضاً .
وفي سنة ٧٨٨ توفي عبد الرحمن تاركاً لابنه هشام دولة حسنة
التنظيم يدعمها جيش قوي . ولقد كانت هذه الدولة محتاجة - لكي
يقبض لها البقاء حيناً من الدهر - الى حكام من طبقته ، مستعدين
ابداً لبذل كل شيء في سبيل اقرار سلطانهم وتثبيتته . والواقع أن
همته القمءاء استطاعت ان تحول دون انتشار جرائم الشقاق
المنفسية في البلاد ، ولكنها عجزت عن ان تبحث أصولها بالكلية .

* أو البشكنس . (بضم الكاف وفتح النون)

** نسبة الى بريطانية الصغرى في الشمال الغربي من فرنسا .

*** Roncevaux

ذلك أن الاستورراطية العربية لم تخضع لسلطانه القوي إلا على كره ، وان مقاومة الداخلين حديثاً في الدين [وهم المولدون] ضد دعاوى الزعماء المسلمين كانت قد اطلعت رأسها ، هنا في المغرب ايضاً .

النضال ضد النصارى في شمالي اسبانية

كذلك عجز خلفاؤه عن مصاولة الدول النصرانية ، التي كانت ما تزال قائمة في شبه الجزيرة ، بالسهولة التي كانت في ميسور مؤسس الدولة نفسه . فلم يكد ألفونس الثاني [إذْ فُونْشْ أو الازْ فُونْشْ] يرانقي عرش أستوريش حتى ظهرت في البلاد روح جديدة لم تكن من قبل . فقد تحالف الفونس مع البشكنس وفرنجة أقيتانية فتم له بذلك انتزاع بَرِّ شاونة من ثالث الامراء الامريين ، الحكم الاول ، سنة ٨٠١ ، بل لقد عدا ذلك الى احتلال أشبونة (لسبون) فترة قصيرة من الزمن ، في غزوة قام بها باتجاه الجنوب . اما في داخل البلاد فكان الحكم الذي رقي العرش عندما توفي ابوه ، هشام ، سنة ٧٩٨ ، بعد حكم لم يطل اكثر من سبع سنوات ، منهمكاً في التمكين لدولته والنضال دونها ، مُبدياً في هذا الميدان عزيمته كالتي عرف بها جدّه من قبل . وكان مذهب الازواعي ، في الفقه ، سائداً حتى ذلك الحين في الاندلس ، سيادته في سورية . ولكن مذهب مالك الذي كان قد ساد افريقية الشمالية برّمتها ، ما لبث ان حل محله ، حتى في ايام ابيه [هشام] على الارجح . وكان فقهاء هذا المذهب يتميزون منذ البدء بالحرص على السنّة والتعصّب في انفاذها . فكان طبيعياً ان ينقموا من الحكم انغماسه في المذات شأن اجداده من خلفاء الشام ، واستخفافه بأحكام الشريعة ، وأن

يثيروا عليه غضب المولدين ، يساعدهم في ذلك الحائقون من طبقة
الاشراف . وهكذا اضطر الحكم مرتين ، الاولى سنة ٨٠٥ والثانية
سنة ٨٠٦ ، الى ان يطفيء نيران الفتنة في عاصمته ، قرطبة . اما في طلبيلة ،
فقد تحالف المولدون مع مواطنيهم من النصارى الذين لم يسلموا
واستقلوا بمدبنتهم ، غير آبهين بالامير . والحق انه لم يوفق الى
اخضاع المدينة الثائرة الا بعد ان عين حاكماً عليها أحد المولدين
المتفانين في الاخلاص له ، عمروس بن يوسف ، الذي اقام كمينا
للزعماء المنشقين وذبحهم واحداً بعد واحد عند حفرة * اعدّها في فناء
قصره المشيد حديثاً . وكان عبد الرحمن قد اضطر الى ان يتخذ
حرساً من الماليك الاجانب يقبضه شر الناقلين من رعيته ، فعلى
خلفاء بني العباس . ولقد دعي هؤلاء الاجانب « الحرس » . وفي
اواخر ملك الحكم سنة ٨١٧ ، حرّض الفقهاء سكان ضاحية
قرطبة الجنوبية عند الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير ، على
العصيان فاندفعوا يريدون قصر الامير . فلم يكن من حرسه إلا
ان اعملوا السيف في رقاب الثائرين ، حتى اذا قضوا عليهم اصدر
امرهم بذلك تلك الضاحية دكاً ونفي أهلها منها ، وعددهم نحو من
ستين الف نسمة ، ليُثْثروا في البلاد . وفي حين نزل عشرون الفاً
منهم في فاس حيث ظل الحي الذي قطنوه يعرف في ما بعد
بـ « عدوة الاندلسيين » ، اتجه الآخرون نحو مصر ايمكنوا
لانفسهم بادى الامر في الاسكندرية . والواقع انهم استطاعوا ،
بالاتفاق مع جماعة اخرى من المغامرين ، ان يحتفظوا بالمدينة طوال

* وتعرف « بوقمة الحفرة » [المرابان]

عشر سنوات ، على الرغم مما بذله عمال العباسيين من جهود بسبيل استردادها . حتى اذا تم لهؤلاء العمال اخضاعهم ، أبعدهوا الى جزيرة إقريطش .

النصارى والمولودون يثرون الاضطرابات

وفي عهد عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) ، الذي خلف الحكم - وكان [اي عبد الرحمن] مستضعفاً - اعلنت طليطلة استقلالها عن الدولة ، ككرةً اخرى ، في حين عانت الحكومة مصاعب جديدة في قرطبة ايضاً بسبب من النصارى الذين آثروا حتى ذلك الحين النزول على حكم المسلمين المتسامح ، وتأثروا تأثراً قوياً بالثقافة الاسلامية المتفوقة . وأياً ما كان ، فقد هبّ الآن غلاة المتعصبين من النصارى ، من مثل الراهب بولوجيوس ، فجر كوا في نفوسهم كامن الايمان ، حتى لقد اشتاق كثيرٌ منهم الى التحقق بشرف الشهادة من طريق لعن الرسول . والواقع ان رئيس الاساقفة «ريكافرد» دعا ، بتحريض من الامير ، الى عقده مؤتمر يشجب فيه هذا الازدراء الطائش بالموت . ومع ذلك فقد ظل نفوذ رجال الدين الصغار مصدر ازعاج للحكومة ، لا يكاد ينقطع . وعجز الامير عن وضع حدٍ لهذه الحركة بالقسوة التي اصطنعها ابوه . صحيحٌ ان الفقيه يحيى بن يحيى ، تلميذ مالك بن أنس نفسه ، لعب دوراً كبيراً في البلاط ، ولكنه كان معنياً في المحل الاول بأن ينشر لواء المذهب المالكي في اسبانية كلها . والحق ان الامير كان خاضعاً لسلطان زوجته ، طروب ، الاثيرة عنده ، ومولاها نصر ، الحضيّ الاسباني ، باكثر مما خضع لسلطان يحيى . ولقد

شارك طروباً ونصراً في نفوذهما هذا ، الموسيقيّ زرياب ، تلميذ اسحق الموصلي ، الذي غادر العراق بعد ان استشعر حسد استاذه له . وكانت له شهرة واسعة تسامع بها اهل الاندلس انفسهم ، فلم يكديطاً ارض قرطبة حتى قصد الامير لاستقباله ، سنة ٨٢٢ . وما هي الا فترة يسيرة حتى وفق زرياب الى ان يعين الاتجاه الموسيقي في البلاط . ليس هذا فحسب بل لقد حرك طموح الأمير الى مضاهاة الخليفة البغدادي في الاغراق في الترف والاختداباسباب اللذات . وكانت القلاقل الداخلية ، التي اضطرت الامير الى اخضاع ماردة وطليلة بقوة السلاح ، لا تزال آخذة في الازدياد عندما أغار النورمانديون على اسبانية سنة ٨٤٤ واحتلوا إشبيلية . ولقد بعث الامير بشاعر بلاطه ، يحيى ابن الحكم الغزال ، الى مقر زعيم النورمانديين ، باحدى الجزر الدائرية ليفاوضه في الصلح . حتى اذا اتم مهمته حمل الى الاندلس ، لأول مرة ، صورة عن الشعوب الشمالية واحوالها .

فلما رقي العرش بعد عبد الرحمن الامير محمد الاول (٨٥٢ - ٨٨٦) الذي نُشِّيء على روح التعصب الديني المتمثلة في الفقهاء ، وسع مسافة الخلف بين عنصري السكان ، بعد ان اخذ عقلاء النصارى ومعتدليهم بذنب المتعصبين منهم . فلم يكن من نصارى طليطلة ، لشدة ما حل بهم من ضيق ، إلا ان التمسوا الفوث من أردون الاول ملك ليون . وفي سنة ٨٥٤ غزا قائده «كونت بيرزا» ديار الاسلام ، وهزم جند الامير في وادي سليط . وعلى الرغم من ان المسلمين لم يلبثوا ان اتزلوا بأهل طليطلة ثلاث هزائم قاسية فقد

تردد محمد في القاء حصار متواصل فعمال ، على المدينة ، وبذلك استطاعت ان تحتفظ باستقلالها ثمة في سنوات اخرى . والحق ان المثل الذي ضربته طليطلة كان له صدها الموحى في قرطبة ايضاً . فعلى الرغم من ان موجة الاستشهاد كانت قد انتهت هنا الى الحور والانقطاع بعد وفاة كل من يولوجيوس وليو كريسبا (٨٥٩ م) فقد ظلت مآثر هؤلاء الشهداء ذات أثرٍ بين في طول البلاد وعرضها . حتى اذا انقضت عشرون سنة وسعى محمد الى عقد صلح مع ألفونس الكبير ، تعين عليه ان يسلم اليه رفات يولوجيوس ، وكان قد نوذي به قديساً . واذ كان محمد معنياً بأصلاح مالية الدولة بعد ان افسدها تبذير أبيه ، فقد غالى في الشح الى حد التفريط بشؤون الدفاع العسكري عن مملكته . ومن هنا فكثيراً ما وجد نفسه ، في نزاعه مع أستوريش ونبرة (نافار) ، في مأزق حرج . وفي أرغون أعلن موسى المولود وأبناؤه استقلالهم عن الحكومة المركزية ، بينما ثار في بطليوس سنة ٨٧٥ مولد آخر يدعى [عبد الرحمن بن مروان] ، يسانده ألفونس الثالث ملك استوريش . أما في الشمال فقد طفئ التعارض القائم بين الوعي القومي عند الاسبان وبين الحكم العربي الاجنبي على الصراع الديني بين النصرانية والاسلام ، حتى لقد جاز لابن مروان ان يتطلع الى مزاج من الدينين جديد يصطنعه لشعبه . كذلك كان للانتصارات الاسبانية في الشمال اثرٌ حافزٌ في اهل الجنوب الذين التزموا ، حتى ذلك الحين ، جانب الهدوء . ففي سنة ٨٨٤ خرج المرتد عمر بن حفصون في جبال تاكرونتا ، بين رنדה ومالقة ، على الحكم

الأموي ، واعتصم سنوات عديدة في قلعة بُبَشَّةَ رُبَعْدَانِ عجزت
السلطة المركزية الإسلامية عن إخضاعه ، حتى في عهد الأمير
منذر الذي خلف محمداً واشترك في حرب ابن حفصون ، وهو
وليُّ للعهد . ولم تكد تنقضي على ارتقائه العرش سنتان حتى دس
له السم اخوه عبدالله (٨٨٨ - ٩١٢) الذي سارع الى عقد الصلح
مع الثائرين .

والواقع أنه لم يضطر الى اتخاذ هذا الموقف عن ضعف او
عجز ، بل بسبب الاضطراب السائد ارجاء دولته . ذلك بان كبار
اصحاب الاراضي من العرب ، من مثل الأمير نفسه ، اعتادوا
منذ زمن طويل ان يجمعوا حولهم كتائب من العبيد مسلحونهم في
بعض الاحيان للدفاع عن اقطاعاتهم . وكان احد هؤلاء الاقطاعيين ،
كُرَيْبُ بن خلدون قد استولى بمثل هذه الكتائب على إقليم
الشَّرَافِ بكامله ، بعيد ارتقاء عبدالله عرش الامويين . حتى اذا
نقض المولدون في إسبيلية ، بالاشتراك مع البربر النازلين في الجبال
المجاورة ، عهد ولائهم للامير ، وقف كريب الى جانب الامير في
الدود عن السيادة العربية ، فتم لها اخضاع اهل اسبيلية . بيد ان
الامير لم يلبث ان اختلف مع زعيم عربي آخر يدعى ابراهيم بن حجاج ،
فما كان من هذا الاخير الا ان تخلص من كريب بن خلدون
وتحالف مع ابن حفصون . واذا كان رجال الاقطاع يتحدثون
الامير في سائر الاقاليم ، فقد اضطر الى ان يقر بسيادة ابراهيم
على اسبيلية ، على الرغم من ان الهزيمة حلت بساحة ابراهيم ،
في النهاية . ليس هذا فحسب ، بل لقد تحالف نصارى قرطبة

بزعامة شريكند (سرفاندو) ، مع ابن حفصون ، وعندئذ تعين على
عبدالله ان يحشد قواته لمعركة فاصلة . فهاجم الثائر في قلعة بلاي ،
جنوبي قرطبة ، واکرهه على الانسحاب الى بيشتر . وهنا ازداد
موقف ابن حفصون حرجاً . ذلك بأنه ارتد عن الاسلام الى
النصرانية فاكتسب عداوة رعيته ، وكان معظمهم قد اعتنقوا
الاسلام عن إيمان به وانسراح له ، من غير أن يكون في ميسور
النصارى إمداده بمساعدة ما . ثم ان عبدالله أفرغ الجهد في القضاء
على خصومه الكثير فواقعهم في معارك متصلة الحلقات . ومع أن
الغلبة كتبت عليه في بعض هذه المعارك فقد وفق آخر الامر الى
أن يحفظ على الدولة هيبتها ويمكّن لها في البلاد .

عصر الزهو في ظل عبد الرحمن الثالث

وفي تشرين الاول سنة ٩١٢ ، توفي عبدالله فخلفه حفيده
عبد الرحمن الثالث ابن محمد الذي سبق لعبدالله أن قتله . ولقد
قدر لعبد الرحمن هذا أن يصبح أعظم الامراء الامويين في اسبانية
الاسلامية ، وأن يحكم نحواً من خمسين سنة (٩١٢ - ٩٦١)
عمل في أوائلها على أن يتم ما بدأه جده من إقرار السلام في
ربوع البلاد ، وسط مصاعب هائلة ، ليفرغ بعد لتوطيد
سلطانه في الخارج . والحق انه استطاع بما أبداه من حزم
وكياسة أن يكتسب ولاء المقدمين من رجال الارستوقراطية
العربية في مقاطعتي جيان وإلبيرة ، على الرغم من أن ابن
حفصون ظل محتفظاً باستقلاله في معقل تاكرنا الجبلية حتى
وفاته سنة ٩١٧ . فلما كانت السنة التالية ألقى احد ابنائه ،

سليمان ، السلاح ، في حين حاول ابنه ، جهنم ، ان يلمس النجاة من طريق الدخول في الاسلام ، من جديد ، فكان جزاؤه القتل من أتباعه النصارى . أما ابنه الاصغر حفص ، فقد واصل النضال في بُبْشَتَر - حصن الثوار الرئيسي - ليضطر سنة ٩٢٨ الى الاستسلام . وكانت الحصون الأخرى قد وضعت السلاح قبل ذلك ، فدكها جند عبد الرحمن دكاً واستاقوا وجره البلاد الى قرطبة . وفي سنة ٩٣٠ كانت طليطلة وحدها لا تزال محتفظة باستقلالها . ولكن هذه المدينة الجمهورية التي تمتعت بالحرية ثمانين عاماً لم تلبث ان انطرح بدورها على قدمي الأمير بعد حصار دام سنتين . وفي سني ٩٢٠ - ٩٢٤ هزم عبد الرحمن أردون الثاني ، ملك ليون ، الذي سبق له ان تحالف مع سانشو (سانشو) ملك نبرة (نافار) فرد المسلمين الى ما وراء ماردة في الجنوب ، وحتى تُطِيبَلة ، و « فَلَائِيَرَّة » في الشمال ، وتعقبهم خلف الحدود .

ولم يغفل عبد الرحمن ، وهو يوطد دعائم الامبراطورية الأموية في الداخل ، عن سياسة الفاطميين الذين كانوا يعمدون ، في ذلك الحين ، على بسط سلطانهم في المغرب وغيره . وفي سنة ٩٢٩ عارض عبد الرحمن دعوى الفاطميين فتسمى ، مثلهم ، باسم امير المؤمنين وخلع على نفسه ، تبعاً للتقليد الشرقي ، لقب « الناصر لدين الله » . ليس هذا فحسب ، بل لقد انشأ في الوقت ذاته اسطولاً يدفع به عدوان الفاطميين . وفي سنة ٩٣١ سبق خصومه الى احتلال سببته في مراكش على الطرف الشرقي من مضيق جبل طارق [على الشاطئ الافريقي] . ولم يلبث صغار الامراء ، في افريقية ، أن

التمسوا حمايته ، مخافة الفاطميين ، وبذلك استطاع ان يبسط سلطانه على شمالي افريقية حتى تاهرت ، التي احتلها الفاطميون سنة ٩٠٨ .

واقتمدى عبد الرحمن بخلفاء بني العباس فأنشأ جيشاً من المماليك الأجانب يوطد بواسطته حكمه . وبينما اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم هذه ، العناصر التركية نجد الأمويين في الاندلس يعتمدون الصقالبة - اي السلاف - وهو اسم جامع كانوا يطلقونه على أسرى الحرب من جميع البلاد الاوروبية . ذلك بأن أوروبا الغربية عرفت في هذا العصر ازدهاراً كبيراً في تجارة الرقيق . وكان اليهود ، في الأعم الأغلب ، هم القابضين على زمام هذه التجارة التي كان يذهب ضحيتها ، في المحل الاول ، أسرى الحروب الناشئة على طول المستنقعات الالمانية الشرقية المأهولة بالسلاف ، بعد ان يُباعوا في اسواق الرقيق بأسبانية ، من طريق فرنسا . وكانت « فردون » مركزاً رئيسياً لأعداد الحصيان الذين كان اهل الاندلس يصطنعونهم في خدمة النساء ، تبعاً للعرف السائد في بغداد . وكانت بيزنطة تقدم انواعاً أخرى من الرقيق تغنمه من غزواتها لشواطئ البحر الأسود . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان القرصان الأسبان أنفسهم يغذون سوق الرقيق بشمرات غاراتهم على الشواطئ الفرنسية والأيطالية . وحظي هؤلاء الصقالبة ، في الاندلس ، بعطف كبير من سادتهم الأمويين حتى لقد انتهوا في كثير من الاحيان الى درجة عالية من الغنى والنفوذ شأن الأتراك في بغداد ايضاً . والواقع أن عبد الرحمن كان يثق

بهم اكثر مما يتق بأفراد الارستوقراطية العربية الذين تهددوا
 اسلافه ، في احوال عدة ، بخطرٍ عظيم . ومن هنا نجده في بعض
 الأحيان يعهد في قيادة جيش برومه ، الى أحد الضباط من الصقالبة .
 ففي سنة ٩٣٩ مثلاً قاد نجدة الصقليين الجيش الذي وجهه الخليفة
 لقتال رُدْمِير (راميرو) الثاني ملك لِيُون ، وحلفائه النبشرويين
 (النافارين) ولكن هذا الصنيع لم يرق للعرب فوقفوا في
 معركة الحندق موقفاً سلبياً أدى الى أشنع هزيمة مُني بها عبدالرحمن
 في حياته . وفي اواخر سني حكمه ، انضغ عبد الرحمن خصومه
 النصراري ايضاً . وكان رُدْمِير الثاني قد استنك في نزاع مع كونت
 قشتالة . حتى اذا توفي ، اصطرع ابناه أردون الثالث وشانجه
 على العرش . وإذ كان القشتاليون يؤيدون شانجه فقد عقد اردون
 الصلح مع عبد الرحمن ، والزم نفسه بأداء الجزية اليه . ولم
 يلبث شانجه أن خلف اردون سنة ٩٥٥ ، فنقض هذه المعاهدة .
 ولكن ابن اخيه خرج عليه وطرده من دياره ، فاضطر الى ان
 يلتمس الأمن في حضرة الملكة طوطه العجوز صاحبة نبرة . ثم
 إنه قصد والملكة الى قرطبة يسأل عبد الرحمن ان يعينه على عدوه .
 ولقد اجابه عبد الرحمن لما طلب ، مقابل تنازله له عن مجموعة من
 الحصون القائمة على الحدود ، فرجع بفضل الجيوش الاسلامية ملكاً
 على بلاده السليبية .

وفي عهد عبد الرحمن الذي تميز ، على تطاوله ، بالاستقرار
 الداخلي ، شهدت الاندلس تفنح حضارة زاهية أثارت إعجاب
 أوروبا في العصر الوسيط . ذلك أن الزراعة والبستنة ، والتجارة ،

والصناعة انتبت كلها الى درجة من الازدهار بعيدة . فقد زرع العربُ الحبوب وادخلوا الى أوروبا زراعة النخيل . ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة الى اليوم في حقول النخيل في ألبس ، جنوبي مقاطعة بَلَدْرَسِيَّة . وامتازت الاندلس بصناعاتها اليدوية ، التي تعتمد المعدن والجلد ، بصورة خاصة . وحتى اليوم ، لا يزال الجلد القرطبي يخلد اسم العاصمة الاندلسية في السوق العالمية . والحق أن دخل الدولة السنوي ، من طريق الضرائب والمكوس بلغ ، عهد عبد الرحمن ٦٢٤٥,٠٠٠ دينار . وفي بعض الروايات ان ثلث هذا المبلغ كان يُرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية ، في حين كان الخليفة يدخر ثلثه الثاني في خزائنه ، ويقف الباقي على مشروعات البناء التي أحلتها منزلة جديدة بأعظم رجال العمران في الاسلام .

جامع قرطبة الكبير

واتجهت همه الحكام هنا ، في جملة ما توجهت اليه ، نحو إنشاء المساجد الفخمة وزخرفتها ، كما كانت الحال في المشرق ، سواء بسواء . والواقع ان الفاتحين الاول اجتزأوا في قرطبة بنصف كاتدرائية القديس فينسنت محلاً لعبادتهم . أما اقدم جوامعها فهو الذي رفع قواعده مؤسس الدولة الاموية بالاندلس سنة ٧٨٥ - ٧٨٦ . وانما تم بناؤه في اثني عشر شهراً ليس غير ، وهي سنة الجأت عبد الرحمن الى الاستعانة بأعمدة بعض الكنائس التي كانت ، في أغلب الظن ، أطلالاً دارسة ، سواء أكانت تيجانها متساوقة مع اساطينها أم لم تكن . كذلك نقل المسلمون ، عن

المعماريين القوط الغربيين ، تلك العقود المشيدة على صورة نعال الافراس والتي تربط الاعمدة بعضها ببعض بواسطة اقواسها المكرونة من تعاقب حجارة وقطع من الحجر إسفينية الشكل بيضاء حيناً ، وملونة حيناً آخر . ولقد نهض على هذه ، وفي مستوى اعلى من مستوى العقود الاولى ، صف ثانٍ منها ينتهي إلى سقف كان في الاصل من الحشب المنحوت الملوّن . حتى اذا توفي عبد الرحمن أفرغ خلفاؤه جهدهم في خدمة هذا الجامع ، فشيّد هشام الاول مؤذنته ومدد عبد الرحمن الثاني أروقته الاحد عشر بان اضاف الى طولها سبعة عقود اخرى ، وأقام محراباً إضافياً . أما محمد الاول فرفع المقصورة . ثم جاء عبدالله ، وكان ، من غير شك ، شديد الحرص على ان يحيط نفسه باسباب السلامة ، حذر الاعتداء ، فأنشأ ممشى مظلالاً [ساباطا] يربط ما بين الجامع وقصره الذي يحاذيه من جهة الغرب ، فاذا هما يؤلفان كلا واحداً ، كما كانت الحال على عهد الامويين في الشام . ثم انزلت الآصاف مؤذنة الجامع فأخرتها ، فاستبدل بها عبد الرحمن الثالث ، سنة ٩٥١ ، مؤذنة جديدة فخمة شيّد على طرازها في ما بعد برج جبرالدا الشهير في اشبيلية ، وعدد آخر من المآذن في المغرب ، وزاد خلفه الحكم الثاني في امتداد أروقته الاحد عشر بأن اضاف الى طولها اربعة عشر عقداً امتدت نحواً من مائة متر الى الجنوب ، كما اقام محراباً جديداً (على ما جاء في نقش يرقى الى سنة ٩٦٥) . وشيّد داراً ذات ثمانى زوايا (وهي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تضم كنيسة «زنكرون») تعلوها قبة معقودة بوخامات على هيئة الخازون مضلعة ، ومقصورة جديدة «تحتوي على ثلاث غرف تمثل

باقواسها المتقاطعة المفلطحة وقببها الفريدة ذات الاضلاع ، القمة التي بلغها فن البناء في هذا الجامع « ٣٠ . واخيراً اضاف الحاجب المنصور الى الاروقة الأحد عشر الطوال ثمانية أروقة أخرى وسبعة صفوف من الاعمدة . وهكذا انتهى الجامع الى ان ينتظم تسعة عشر رواقاً * في كل منها خمسة وثلاثون عموداً . وعزل الصحن المركزي المؤدي الى المحراب عن الصحن الرئيسي .

وكان يحيط بالجامع سورٌ يتراوح ارتفاعه ما بين مترين وثلاثة امتار . وكان يمتد في شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب ، وقد توجهت شرفات عالية . وإذ كانت الارض التي قام عليها منحدرة نحو النهر فقد تعين ان تكون أساسه ضخمة جداً . وكان المصلون يدخلون الجامع من واحد وعشرين باباً تزدان جميعاً بالنحاس الاصفر المحرّم . اما اليوم فهي موصدة ، في الغالب . وكانت النوافذ والكوى الموصدة التي تشبه المحارِب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط التي تشبه الابراج تزين واجهة الجامع . والواقع ان عدداً قليلاً من ابواب الجامع قد خصص للنساء ، فمن يلبسها الى مقاصير رفعت هن . فالاسلام لم يقتبس المقاصير النسائية التي كانت تميز الكنائس البيزنطية في البلاد الاخرى . أما ساحة الجامع (وكانت محوطة بشرفات عفت آسارها) فقد اكتمل بناؤها في سنة ٩٥٧ . وكان في وسطها حوض قامت حوله اعمدة تحمل عقوداً من الصخر المنحوت . وكان المؤمنون يتوضؤون

(٣٠) راجع ديز *E. Diez, Die Kunst der islamischen Völker*, p. 50.

* ويسمى ايضاً بلاطاً وجمعها بلاطات .

بمياه هذا الحوض ، قبيل أداء الصلّاة .

الزهراء

وازدهت العاصمة الاندلسية، عهد عبد الرحمن ، بمنشآت دينوية فخمة لم يبق لنا منها غير اوصافها في كتب التاريخ . وليس من شك في أن اعظم هذه المنشآت مدينة الزهراء التي اسمها باسم جارية أثيرة لديه . وإنما شرع في بناء هذه المدينة سنة ٩٣٦م، عند سفح جبل العروس ، القائم على ثلاثة أميال عربية تقريباً ، الى الشمال من قرطبة . هناك حشد عبد الرحمن عشرة آلاف عامل لم ينفصوا أيديهم من البناء إلا بعد خمسة وعشرين عاماً بطولها . والواقع ان «الزهراء» انشئت طبقات ثلاثاً ، بعضها فوق بعض ، على منحدر جبلي . ففي الطبقة الدنيا انبسط الجنائن والبساتين ، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل الموظفين في البلاط ، أما قصر الخليفة فكان يُشرف على ذلك كله . وكانت قاعته الرئيسية تتألف بكاملها من الذهب والرخام ذي الألوان المتعددة ، وقد اشرفت في وسطها جوهرةٌ أهداها [الى عبد الرحمن] الامبراطور ليو البيزنطي ، [صاحب القسطنطينية] . ونهضت الابواب الثمانية على قواعد من الرخام الملون والبلور ، علتها أرنبجةٌ مقوّسة من الأبنوس المذهب والماج المطعم بالجواهر . وكان في بيت منام الخليفة حوض ماء يزدهي باثني عشر تمثالاً على صورة الحيوان من الذهب الاحمر . والواقع ان القصر امتدّ على مسافة ٢٠٧٠٠ ذراع من الشرق الى الغرب ، و ١٤٥٠٠ ذراع من الشمال الى الجنوب . وكان له الف وخمسمائة باب يزينا الحديد المذهب والنحاس . اما الاعمدة

البالغ عددها اربعة آلاف وثلاثمائة عمود فقد جلب بعضها من افريقية ، وجلب بعضها الآخر من ارض الفرنجة . بيد أن خلفاء عبد الرحمن عجزوا عن صيانة هذا البناء الفخيم . فلم يبق قائماً منه ، عند النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، غير اجزاء قليلة . أما اليوم فليس يُهتدى الى موقعه السابق إلا من أردام من الاوساخ قائمة في ما يسمى « قرطبة القديمة » على مسافة ميل من المدينة الحالية ، على سفح الجبل [جبل العروس] .

الحياة الفكرية في الأندلس

ونعمت الأندلس ، الى جانب هذا الازدهار المادي ، بحركة فكرية ناشطة . ويميزنا ان يكون ما نعرفه عن حال الشعر الاندلسي في هذه الفترة الزاهية ليس شيئاً بالنسبة لما نعلمه عن تطور هذا الشعر خلال عهود الانحطاط السياسي في اسبانية الاسلامية ، بعد . ولكن الذي يخيّل اليانا ان الشعر في الاندلس كالشعر في الشام دار ، اول ما دار ، على محور العصبية القباية التقليدي ، فهو في معظمه مدح وهجاء . ففي بلاط الأمويين تفتحت ، تحت تأثير الفن البغدادي المعاصر ، براعم المديح المثقل بالاطراء الغريب المستهجن . ولكن المزاج الاندلسي استطاع ان ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة كمثل تلك التي نفخها الفرس في هذه القوالب عتيقا ، بالمشرق . والحق أن ما تقع عليه في شعر الاندلسيين من رقة خاصة في الأحاسيس ، وعمق في العواطف ، وما نلمسه عندهم من استجابة ، تكاد تكون عصرية ، بلفاق الطبيعة والفن وتصويرها في كثير من التلطف والتبصر ، كل اولئك ليس الا

ارثاً ايبيرياً ورومانياً ميس في غلالة من لغة الفاتحين العرب ، كما لاحظ الكونت فون شاك * من قبل . اما في الحقل العلمي فقد عني اهل الاندلس منذ البدء بالفقه واللغة عناية خاصة . وليس من شك في أن التزام المذهب المالكي ، السائد في الاندلس ، لعمود السنة قد جنب هذه البلاد شرور الاختلاف الذي نشب عنيفاً صاحباً ، في بغداد والمشرق حول اساليب الدراسة الدينية وطرائقها . وهكذا لم يلبث الاهتمام بالماضي أن فاق ، في بلاد الاندلس ، التفكير الديني الحاصل . ولسوف نجد ان الصوفية قد بلغت ، هنا ، صورتها النهائية ، هذه الصورة التي سادت ، آخر الأمر ، المشرق ايضاً . وإنما يرجع الفضل في اثارة اهتمام الاندلسيين بمسائل الفلسفة الى ابن مَسْرَةَ القرطبي ، الذي كان يرئس ، حوالى سنة ٣١٩٠٠ ، حلقةً من الطلاب والمريدين تجتمع اليه في احدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل قرطبة [جبل العروس] . حتى اذا اهتم بالزندقة أدى فريضة الحج ، ليعود الى الوطن بعد ارتقاء عبد الرحمن الثالث عرش قرطبة ، فيواصل نشاطه التعليمي حتى وفاته سنة ٩٣١ . ولا يزال من المتعذر علينا ان نقرر كيف وصلت الى علمه الميتافيزيقية المنسوبة الى أميدقليس ، والملقحة بالافلاطونية الجديدة . والحق ان نظرية الفيض التي تقول بصدور العالم عن

Count A. von Schack *

(٣١) اما سنة ٩١٢ التي نص عليها آسِين بالاسيوس Asin Palacios في ملحق دائرة المعارف الاسلامية فهي في الواقع سنة ارتقاء عبد الرحمن [الثالث] عرش الاندلس .

عن الموجود الاول، اي الله، بواسطة العقل والنفس الكلية والكون
قد قادته الى الاعتقاد بانه يتعين على النفس الانسانية ان تعاود
سلوك هذه الطريق، ككرة اخرى، ومن هنا لا يختم الموت مصيرها.
ولما كانت هذه الطريق الى الكمال تسلك، احسن ما تسلك، جماعة
فقد نشأت في عدد من المدن الاندلسية حلقات على غرار حلقة
قرطبة، ذلك تنعقد، رغم اضطهاد السنة، حتى القرن الثالث عشر.
ونزع أهل الأندلس الاصليون إلى الافتخار بفضائل آباؤهم
واجدادهم وتقديمهم على العرب، فعلى الفرس في المشرق. وفي
عهد عبدالرحمن الثالث اشتدت هذه النزعة حتى لقد اجترأ على
التبشير بها القاضي ابو محمد عبدالله بن الحسن، وكان من عظم المنزلة
بجيث كان الخليفة نفسه يحضر مجالسه^{٣٢}. وفي سنة ٩٤٢ عرفت
قرطبة فقه اللغة على يد [أبي علي] القالي، الذي وُلد في إرمينية
وتلقى دروسه في بغداد. أما علم التاريخ، وهو من العلوم التي
حظيت باحتفال كبير في الشرق الاسلامي والاندلس، سواء
بسواء، فكاد يقتصر على المتصلين بالبلاط، ومن هنا لم يكن في
طوقه قط ان يتحقق بالنزاهة، والتجرد في رواية الاخبار. ولقد
عني مؤرخو الاندلس، فوق كل شيء، بوقائع الفتح الاسلامي؛
وبلغ ذلك أوجه في التاريخ الشهير الذي صنّفه محمد ابن القوطية^{٣٣}،
احد معاصري القالي، كما عُنوا بالتاريخ للعلماء والاعيان شأن

(٣٢) راجع جولديزهر - *GoIdziher, in Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, 53, 605.

(٣٣) أي ابن المرأة القوطية.

المشاركة . أما في حقلي الطب والعلوم الطبيعية فقد حاول المغاربة
التجسس من سلطان التقليد المشرقي . والواقع ان الاندلس عرفت ، عهد
عبدالرحمن الثالث ، ترجمةً جديدةً لنظريات ديسقوريدس في الادوية
المفردة ، ووضعت على اساس نسخة يونانية أرسلت اليه من القسطنطينية .
وكان ولده ، الحكم الثاني ، نصيراً صادقاً للعلم والعلماء . وكان
يبعث الى بلاد الشرق بمن يشتري له نفائس المؤلفات ، حتى لقد
اجتمع في خزانة كتبه ، في ما يقال ، اربعمائة الف مجلد . ليس
هذا فقط ، بل لقد عمل على نشر المعرفة في ربوع البلاد ، فابنتي في
قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة ، وادخل اليها الفقراء من الطلاب
مجاناً .

الحكم الثاني

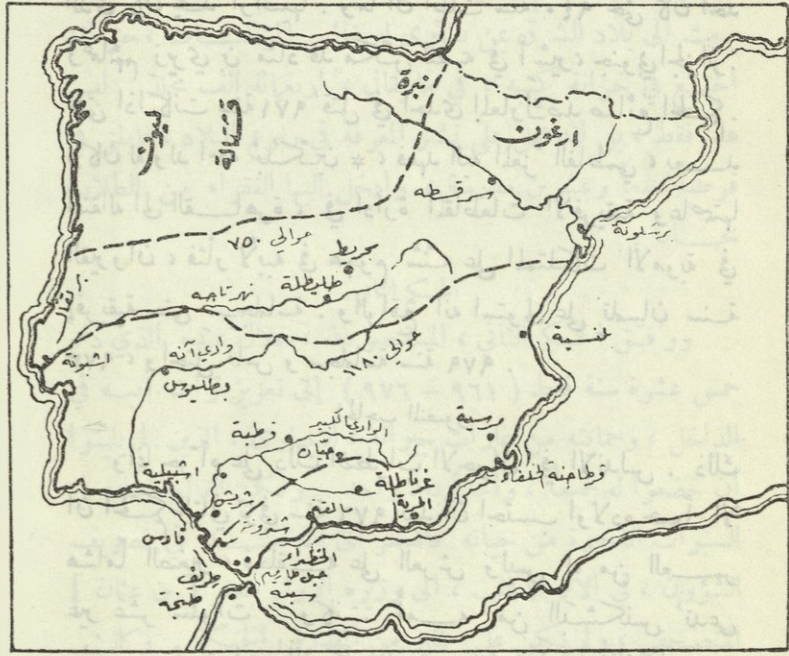
ووفق الحكم الثاني ، المستنصر بالله ، خلال عهده الذي دام
خمس عشرة سنة فقط (٩٦١ - ٩٧٦) إلى تعزيز تراث أبيه في
الداخل ، وحمايته من غارات جيرانه ، النصارى ، الذين لم يلبثوا
ان خضعوا له جميعاً ، واحداً بعد واحد . ولكن الفالاج اصابه في
السنوات الاخيرة من حياته فاضطر الى ان يعهد في تصريف
الشؤون ، في الأعم الأغلب ، الى وزيره الاول جعفر [بن عثمان]
المصحفي ، ولم يكن على كثير من القدرة والحكمة . وكان
كبير الوزراء يُعرف ، في الاندلس ، بالحاجب ، وهو الاسم الذي
سبق للامويين ، في دمشق ، ان اطلقوه على ضابط الاتصال بين
الخليفة و افراد رعيته ، هذا الموظف الذي كان يتمتع ، من هذه
الطريق ، بنفوذ كبير في الدولة . وفي افريقية ، كان ضغط

الفاطميين على الممتلكات الاموية قد خفف كثيراً بعد انتقالهم الى مصر . ولكن مصاعب جديدة لم تلبث ان نشأت عن الصراع بين مجموعتين كبيرتين من البربر هما زناطة التي اخضعها الامويون ، وصنهاجة التي لا يزال اسمها خالداً في السنغال ، في اسم النهر الذي كان يُحدِّد اراضيها . وما ان اطلت سنة ٩٤٠ حتى كان احد زعمائهم زيري بن مناد قد مكَّن لنفسه في أسير ، جنوبي الجزائر . حتى اذا كانت سنة ٩٧١ قتل في احدى المعارك ضد صنائع الحكم . وكان له ولد اسمه بُلُكَّين * ، فعهد اليه المعز الفاطمي ، بعد انتقاله الى القاهرة ، في ادارة المقاطعات الافريقية وعاصمتها القيروان ، فأثار لأبيه في هجوم شتته على الممتلكات الاموية في إفريقية حتى سجلماسة . والواقع انه استولى على تلمسان سنة ٩٧٣ ، واحتل فاس وسجلماسة سنة ٩٧٩ .

الحاجب المنصور

وانما جرَّأه على ذلك اضطراب الاحوال في الاندلس . ذلك ان الحكم الثاني توفي سنة ٩٧٦ بعد ان احتسب اولاده جميعاً الا هشاماً الصغير ، فخلفه على العرش وليس له من العمر غير عشر سنوات . وكانت أمه من البشكنس تُدعى « صبح » ، فتولت الاحكام باسمه ، يساعدها في ذلك احد سرة العرب ، محمد بن أبي عامر المنصور . والواقع ان مجدداً هذا كان في أوّل امره وكيلاً على املاك صُبح . وكانت له منزلة في نفسها ، فرفعته الى منصب وزير المال . ولقد وُفق في وزارته * ووردت ايضاً : بلجين (بالجم المضعفة) .

هذه إلى ان يخفف من نفقات الجيوش الموجهة الى افريقية في مهام خاصة ، وكانت ثقيلة باهظة ، من طريق مفاوضات بارعة قام بها مع القائد ، غالب ، الذي تزوج محمد من ابنته في ما بعد . ولم يكدهشام يرتقي عرش قرطبة حتى ازاح محمد الحالب جعفر



اسبانية الاسلامية

المُصحَّفِي عن منصبه ، يساعده في ذلك غالبُ صاحب مدينة سالم ، و حَدَّ من سلطان امراء الجيش الصقالبة الذين انتهوا الى ان يمثلوا في قرطبة دور الاتراك في بغداد . وسرعان ما حقق قلبُ

محمد مجبّ صبح ، وخفق قلب صبح مجبّه ، فتعاونوا على أقصاء
 الخليفة الحدّث عن دفعة الحكم وحجباؤه عن الناس فلم يكن احد
 يراه او يصل اليه . وفي سنة ٩٧٨ شرع محمد في انشاء عاصمة جديدة
 على أبواب قرطبة ، دعاها المدينة الزاهرة ، وما هي إلا فترة حتى
 اصبحت « الزاهرة » قاعدة الحكومة الفعلية . ورماه الفقهاء -
 وكانوا الايزالون اصحاب نفوذ وخطر - بتهمة الزندقة ، فلم يجهم
 عن التزلّف اليهم بتحريق الكتب الفلسفية والعلمية التي جمعها
 الحكم الثاني في خزانته . وكانت سياسة الأمويين في إفريقية
 تقتضيهم نفقات ثقيلة وتهدد مكانة الاندلس بالخطر ، من غير ان
 تعود عليها بفائدة ذات غناء ، فانتهج محمد في سياسة افريقية نهجاً
 جديداً قوامه الاحتفاظ بالسيطرة القوية على سببته دون غيرها ،
 وترك الامراء الوطنيين يحكمون الأقسام الداخلية من البلاد ،
 كتابعين للدولة الاموية في قرطبة . وفي سنة ٩٨٥ حاول ابن جتّون
 الأدريسي حبس الجزية المفروضة عليه ، واستعادة الممتلكات التي
 كانت لأبائه من قبل . فاضطر محمد الى اصطناع العنف ، وحرص
 ابن عمّ الامير الثائر على خلعه وقتله . أما سياسته في ما يتصل
 بالدول النصرانية في الشمال فكانت تقوم على أساس القوة . فلم
 يكد يقضي على معارضة حميه ، غالب ، حتى أعاد تنظيم الجيش ،
 مستعيناً بالمرتقة من البربر والنصارى من افريقية وشمال اسبانية ،
 بدلاً من الصقالبة الذين لم تكن له ثقة بهم . والحق ان سلطانه
 على هؤلاء المرتقة النصارى كان من الشدة والأحكام بحيث اجترأ
 على أن يسيرهم لقتال اخوانهم في الدين . فجرد حملة مظفرة على

ليُؤن اكسبته لقب « المنصور بالله » . ولكنه لم يوفق إلى إخضاع تلك البلاد إخضاعاً كاملاً إلا سنة ٩٨٧ . وفي حملته الثالثة والعشرين ، سنة ٩٨٥ ، اقتحم برشلونة واستولى عليها . وفي سنة ٩٩٧ أخرج كنيسة القديس يعقوب « شانت ياقو » ، * أشهر الاماكن النصرانية المقدسة في الاندلس ولم يبق منها إلا قبر القديس نفسه ، ليس غير . وكان المنصور قد نزل عن منصب الحجابة لابنه عبد الملك ، سنة ٩٩١ ، حتى اذا كانت سنة ٩٩٧ تسمى بالسيد والملك الكريم ، وبذلك امسى الخليفة بمثابة الاسير في قصره ، كزميله العباسي ببغداد . وفي ١٠ آب سنة ١٠٠٢ توفي المنصور فيما هو عائد من حملته الثانية والثمسين التي اخضع فيها فلانس .

الدولة العامرية تستمر

ووفق ابنه عبد الملك ، بادىء الأمر ، الى ان يخلفه في منصبه ، من غير ما معارضة ، فواصل حملاته في شمالي الاندلس . ولكن أخاه عبد الرحمن ائتمر به فمات مسموماً بعد ست سنوات ليس غير . وبلغت الحماقة بعبد الرحمن هذا - ويُعرف باسم سنجول نسبةً الى امه ، وهي احدى بنات شانجه ملك نبره - مبلغاً جهله يطلب من هشام ان يوليّه عهده ، [ففعل] . فبينما هو غائب يوماً في حملة على نصارى جليقية أعلن الامويون الثورة عليه - بعد ان حرّموا حقهم في ولاية العهد - وخلعوا هشاماً لبياعوا ابن عمه محمداً الثاني ، الذي تلقب بالمهدي . فلما جاء عبد الرحمن نبأ

* ويقال « شنت ياقو » و « شنت يعقوب » اي القديس يعقوب .

[العربان]

الانقلاب قفل الى قرطبة لحرب المهدي ، ولكن المرتقة خذلته ،
فقتل على ابواب المدينة .

الصراع بين المهدي وسليمان

ودمر الخليفة الجديد مدينة الحاجب المنصور «الزاهرة» وسعى
الى ان يكسر شوكة المرتقة البربر بعد ان انضم اليهم جماعة من
صنهاجة ، احدى القبائل الافريقية التي كانت من قبل معادية للدولة
الاموية في الاندلس ، فحذف اسماءهم من سجل الاعطيات . واذ
لم يستطع ان يعتاض منهم بجند آخرين فقد ائتمروا به وخلعوه في
السنة نفسها ، مبايعين سليمان [بن الحكم] حفيد عبد الرحمن الثالث .
وكان سليمان هذا قد قاد البربر في حرب النصارى في قلعة رباح *
ووادي الحجاره ، ثم احتل قرطبة . ولكن المهدي استعدى
على خصمه القائد « واضحاً » ، امير مدينة سالم ، والكونت ريموند
[راي موند] صاحب برشلونه ، والكونت ارمنغول صاحب « ارغل » ،
فهزموا البربر على ابواب قرطبة ، وكفرت العاصمة البائسة عن
اختلافات المطالبين بالعرش ، بما انزله بها الفاتحون من سلب ونهب .
ومهما يكن من امر فقد ظل البربر يسيطرون على البلاد المجاورة ،
عازلين قرطبة عن العالم الخارجي . وضافت المدينة ذرعاً بهذه
الجال ، فدبرت مؤامرة للتخلص من المهدي - وكان اضعف
من ان يدفع عن نفسه شراً كهذا - فقتل سنة
١٠١٠ ورفع هشام الثاني الى العرش ، تزله اخرى . ولكن
واضحاً عجز عن ان يقر السلام بينه وبين البربر . وَاخِيْرًا

Calatrava *

أكره هؤلاء أهل قرطبة على تجديد ولائهم لسليمان . وإذا تخلى
سليمان عن السلطة كلها للبربر فقد استنجد أهل قرطبة بعلي بن حمود
حاكم سبته السابق ، وينتسب إلى الإدارة امراء مراکش القدماء .
ولم يكذب حمود يقضي على سليمان حتى ثار به أهل قرطبة
وقتلوه . ثم إن اثنين من الإدارة تنازعا السلطان وسبعة من
الأمويين المطالبين بالعرش . وإذا لم يستطع احد منهم ان يبسط
سلطته المطلقة على المدينة ، بعد سقوط آخر الامويين ، فقد استولى
هشام الثالث على زمام الامر في قرطبة ، وانشأ جمهورية ارستوقراطية
كالتى انشئت من قبل في طليطلة .

ملوك الطوائف
وتفستخت الأندلس ، منذ اليوم ، وتفرق أهلها شيعاً ، ففي
كل ناحية أمير ودولة . وعلى الجملة فقد استبد البربر بالسلطان
في كل من المدن الجنوبية ، في حين استبد الصقالبة بالسلطة في
كل من المدن الشرقية . وإذا كان الاسلام قد استطاع ان
يثبت في شبه الجزيرة بعد أن توزعت هذه الدويلات الهزيلة
ترائه الواسع العريض ، فالفضل في ذلك ، من غير شك ، لاختلاف
النصارى وتناحرهم . وليس في هذه الأسر واحدة تستحق ان
نقف عندها وقفة عاجلة غير بني عبّاد أصحاب اشبيلية . وكان
الامر في هذه المدينة قد انتهى إلى الطبقة الأرستوقراطية ، شأنها
في ذلك شأن قرطبة بعد انحلال الخلافة الأموية . وكان قاسم
بن حمود [الادريسي] ، اخو علي الذي شارك في النزاع على
قرطبة ، قد مكّن لنفسه في مالقة وسعى لبسط سلطانه على

اشيلية أيضاً . ولكن القاضي محمد بن عباد ، من [بني كُحْم]
 اليانين ، تصدّر للدفاع عن استقلال مدينته ، فوفق على الرغم من
 انه لم يكن يحمل اكثر من لقب القاضي ، إلى أن يتوك لذريته
 'ملكاً حسناً' بعد أن تغلب على عدد من صغار الأمراء المجاورين .
 فلما نهض بالأمر من بعده سنة ١٠٤٢ ابنه عباد جرى على نخطه
 أبيه هذه ، فنجح نجاحاً ملحوظاً . وبينما كان محمد حريصاً على أن
 يخضع على 'حكمه صفة' شرعية من طريق اعتراف امويي ، على
 يد هشام ، بسلطته ، نجد ابنه عباداً يؤانس من نفسه القوة على
 قبول البيعة والتسبي بالمعتضد ، على طريقة الخلفاء . والواقع أنه
 قضى على خصومه جميعاً بقساوة لا داعي لها وتجنب ، من طريق
 المفاوضة البارعة ، ضربات فرديناند (فردلند) الأول ملك قشتالة
 وليون الذي استأنف نضاله ، عنيفاً قاسياً ، ضد المسلمين . حتى
 اذا توفي المعتضد ، سنة ١٠٦٩ ، ترك لابنه محمد المعتمد دولة
 عريضة ، نسيباً ، تكاد تنتظم القسم الجنوبي الغربي من الاندلس
 برمه . وفي سنة ١٠٧١ وفق المعتمد إلى فتح قرطبة أيضاً ،
 ولكنه اضطر إلى التراجع عنها بعد أن استولى عليها أحد المطالبين
 بالعرش ، يؤيده أمير طليطلة . وكما سبق للمعتمد نفسه أن قاد احد
 جيوش أبيه ، ولما يتجاوز الثلاث عشرة من عمره ، كذلك تولى
 ابنه عباد زمام الأحكام في قرطبة ، حيث قضى نجه . ولم يُقدّر
 للمعتمد أن يثار لابنه حتى سنة ١٠٧٨ عندما استرد قرطبة وانتزع
 من أمير طليطلة الجزء الجنوبي من مملكاته . وإذا كان المعتضد
 قد استطاع ان يتقي عدوان فرديناند ملك قشتالة بجزية أدائها

إليه ، فقد تعين على ابنه المعتمد أن يرى إلى الخطر يتهدد مملكه
من جانب الفونس السادس ، ابن فرديناند ، ذي المطامح الكبيرة .
ففي سنة ١٠٨٠ سار الفونس يريد طليطلة ، فلم يوفق الى فتحها إلا
بعد حصار دام خمس سنوات . وفي هذه الاثناء غزا بلاد المعتمد
(سنة ١٠٨٢) ليغسل إهانةً وجّهت إلى [ثقته] الذي كان
يأخذ الجزية ، وكان يهودياً ، فاندفع في هذه الغزوة حتى بلغ
جزيرة طريف . فلما اتّم الفونس فتح طليطلة طالب بالأراضي التي
سبق للمعتمد أن انتزعها من أمراء تلك المدينة . فلم يكن من
المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ، وقد تحقّقوا عظم الخطر
النصراني عليهم ، إلا أن استجدوا بالمرابطين ، الذين سنتحدث عن
ظهورهم في شمالي إفريقية ، بعد قليل . والواقع أنه دفع وزملاءه
عن هذه المساعدة غالباً . فما ان تزلت الهزيمة بالعدو حتى فقدوا
عروشهم جميعاً ، واحداً بعد واحد . أما المعتمد فاقْتَسَدَ إلى إفريقية
حيث مات في سجن أعنّات ، بمراكش ، سنة ١٠٩٥ .

تطور الحركة الادبية

وحفل هذا العصر الذي انتهت فيه الاندلس إلى هوةٍ سحيقة
من الانحطاط السياسي ، بمحصار ثقافي عظيم . ومردّ ذلك الى أن
ملوك الطوائف كانوا كلما ضعف سلطانهم ، ازدادوا تنافساً في
اجتذاب الشعراء الى بلاطاتهم ، وشراء مدائحهم الطنانة ، الجارية
على الأسلوب القديم ، بالجوائز السنوية . وإنما نبغ اعظم رجال هذه
الصناعة ، احمد بن درّاج القسطلبي ، في قرطبة ، أيام الحاجب
المنصور . ولقد كان لقلم ابن درّاج هذا جولات في الميدان السياسي ؛

ذلك بان الاندلس جرت منذ البدء على السنن المشرقي من حيث الاحتفال بالرسائل الرسمية المتبادلة بين الأمراء وإفراغها في قوالب فنية مجودة . أما معاصره الاصفهاني ، ابن شهيد ، الذي قعد به الصمم عن المشاركة في حياة البلاط ، فقد طارت له شهرة واسعة من طريق منظوماته الطريفة المرححة . والواقع أنه صنف رسالة رائعة * نقد فيها أدب معاصريه واسلافهم ، وأخرجها مخرج رحلة إلى وادي الجن . والواقع أن هذا الأطار الفني ، إطار الرحلة الى ما وراء العالم المنظور ، إنما استعاره بعد عشرين سنة ، على وجه التقريب ، أبو العلاء المعري ** الشاعر السوري ، واصطنعه وسيلة لنقد مشاهير الشعراء في [الجاهلية] والاسلام . وكان الشاعر ابن زيدون قد انتهى ، بعد سقوط الامويين ، الى مكانة مرموقة في جمهورية قرطبة الارستوقراطية . ولكن حبه للشاعرة ولائدة [بنت المستكفي] ، التي يجري في عروقها الدم الاموي ، لم يلبث ان خلق خصومة ادبية بينه وبين منافسه في حبها ، ابن عبدوس ، اكبر وزراء ابن جهور ، صاحب قرطبة . والواقع ان الرسالة التي كتبها [على لسان ولائدة] الى الوزير ابن عبدوس هجوه ويتهكم به - وهي ملاءى بالاشارات التاريخية - أورثته شهرة طبقت آفاق البلاد ، ولكنها افقدته في الوقت نفسه حريته ، إذ اتهمه خصمه بموالاة الامويين . ثم انه عمل الحيلة في فراره من سجنه ليقتضي فترة صالحة ، بعيداً عن مسقط رأسه . ولم تقدر له

[المعربان]

* رسالة « التوابع والزوابع » .

[المعربان]

** في « رسالة الغفران »

العودة الى قرطبة إلا بعد وفاة ابن جمهور . وسرعان ما اصطنعه
 ابنه [ابو الوليد] ، واتخذته سفيراً له . ومن هنا تمت
 لابن زيدون صلوات وثيقة بملوك الطوائف جميعاً . حتى اذا تغير
 عليه صاحب قرطبة خلاص الى المعتضد بن عباد ملك اسبيلية فقرّبه
 [والقى اليه مقاليد وزارته] . ولما مات المعتضد وتخلّفه ابنه
 المعتمد كان له كما كان ابوه ، فخدمه ابن زيدون خدمات جلّي ،
 وبخاصة إبان فتح قرطبة . والحق ان رسائله الهزلية ، التافهة على
 كل حال ، لتمثّل كالمقامات التي اخرجها الحريري في الشرق بعد
 نصف قرن ، محاولة اخيرة من جانب الروح العربية الى التماس فنّ
 ملائم من القول ، خارج نطاق الشعر التقليدي . وانما بزّة في
 رشاقة الاسلوب منافسه في بلاط المعتمد ، [ابو بكر محمد] بن
 عمّار الذي اكتسب عطف الملك منذ ايام ولايته على سلب من
 قبل أبيه . وما هي الا فترة حتى استشعر ابن عمّار ان ابن زيدون
 يوشك ان يتقدم عليه عند المعتمد ، بسبب من خدماته في فتح
 قرطبة ، فاتخذ من فتنة اليهود في اسبيلية ذريعة الى التخلص منه
 فسيّره الى تلك المدينة لاختضاع الثورة فيها ، وهناك توفي بعد
 برهة يسيرة . واخيراً سوّل الطموح لابن عمّار أمراً . فلم يكن
 منه إلا ان استقلّ بمُرسيّة بعد ان فتحها ، وخلع طاعة المعتمد .
 فقبض عليه المعتمد وقتله سنة ١٠٨٦ . أما مبلغ إعجاب البربر
 بالادب العربي واقبالهم عليه ، بالرغم من نزوعهم الى تعزير شخصيتهم
 القومية فيتجلّى لنا من قصة بني الأفطس ، ماوك بطليّوس . فقد
 كان جدهم [الاعلى] من المرتقة البربر الذين استقدمهم الحاجب

المنصور الى اسبانية ، واصطنعهم لنفسه . وفي سنة ١٠٢٢ وُقتق واحد من ذريته الى ان يخلف الامير الذي كان يعمل هو في خدمته كوزير ، متخذاً لنفسه بعداً ، وفقاً لسنة العصر ، نسباً عربياً . اما ابنه المظفر الذي خلفه سنة ١٠٤٥ فقد اعتزل السياسة ، بعد ان استسلم لفرديناند [فردلند] الاول من غير مقاومة ، ليلتمس الشهرة الادبية كمؤلف لمجموعة طريفة من النوادر والايخبار سماها باسمه « المظفري » . وكان ابن عبدون الشاعر وزيراً لابنه عمر المتوكل الذي استطاع بعد وفاة اخيه يحيى سنة ١٠٨١ ، ان يفرض سلطانه على الاراضي التي كان حكمها الى آباءه من قبل ، ويحتفظ بها حتى سنة ١٠٩٤ عندما غلبه عليها المرابطون . والواقع ان قصيدة ابن عبدون التي بكى فيها على دولة بني الافطس ، 'مكتوراً' من الاشارات التاريخية الى مصائر الدول ومصارعها منذ عهد دارا ، قد جعلت لهذا البيت شهرة ، في الادب العربي ، لا يستحقها .

الموشحات والازجال

وتعلق هؤلاء الشعراء ، وكثير غيرهم من نشأوا في ظروف اشد عسراً وقنعوا بجوائز اقل قدراً ، تعلقاً وثيقاً بأساليب الشعر ولغته الكلاسيكية التي فقدت ، منذ زمن طويل ، كل اثر من آثار الحياة . بيد ان نفوذ المولدين الجدد ذوي الاصل الاسباني كان عظيماً الى درجة ساعدهم على ان يكون لهم تأثيرهم في حقل الادب ايضاً . ففي بلاط الأمير عبد الله [بن محمد] الأموي (٨٨٨-٩١٢) اجترأ الشاعر الأعمى المقدم [بن معافى] القبري *

* وترد خطأ في كثير من المصادر الحديثة « ابن معافى » ، وهو تصحيف .

[المعربات]

على تحطيم وحدة الشكل الرتيبة التي تمتاز بها القصيدة ، ونجزئتها
الى أسماط متعددة . والحق أنه اصطنع في ذلك اللغة العامية
تتخللها العناصر الاسبانية ؛ ومن هنا نستطيع أن نفترض انه قد ،
اسلوب الشعر الاسباني من حيث تعدد الاسماط والأجزاء ، ايضاً .
ونجح هذا التجديد الشعبي نجاحاً عظيماً ، حتى لقد فرغ لممارسته
نفرٌ من جلة العلماء ، من مثل ابن عبد ربّه الذي أطلق عليه
لقب اول شاعر كبير في المغرب والذي وضع في « عقده » كتاباً
من كتب الأدب التزم فيه عمود التقليد المشرقي أشد ما يكون
الالتزام ؛ ومن مثل الرمادي ، اول شاعر كبير في الاندلس ،
الذي لمع إبان سقوط الامويين ، وكان بوصفه تلميذاً للقالي اللغوي
الكبير ، مالكاً لناصية العربية الفصحى بمحاسنها جميعاً . ثم إن
ابن قزّمان ، الذي اتصل أيام شبابه على ما يقال بأخر ملوك بني
الافطس في بطليوس ، ادخل الى الادب العربي فناً شعرياً جديداً
كان شائعاً في اسبانية من قبل ، هو الزجل الذي لم يعد يخضع
لاوزان الشعر المتعارفة بل لهقاطع . بيد ان حالة وطنه التعسة
(وسأتي على ذكرها في ما بعد) حالت دون تقلبه في النعمة ،
في بلاطات الامراء ، شأن غيره من قبل . فهو يتنقل في البلاد
منكسباً بشعره مستعيناً على ارضاء الناس بقرد يلاعبه ، حتى إذا
بلغ سنّاً عالية استقر في احد مساجد قرطبة ، وقطع الايام في خدمته .
ولقد كان عليه ، في الواقع ، أن يروض نفسه على الغرائز الدنيا
التي كان مستمعوه يخضعون لسلطانها ، فاذا هو يستثير فيهم نزوات
الحب الشاذ . وهكذا طُوّيت صفحة هذا الفن الذي ازدهر يوماً ،

في اسبانية ، ازدهاراً عظيماً .

التصنيف في الحب

وحق في عصر العباسيين ، زهوا الغزل ، وكان في اليهود
العربية السالفة رهن الاساليب التقليدية المكروورة . فلئن كانت
نظام الحريم قد حال دون الاتصال بالحرائر من النساء ، لقد كانت
الحياة بما تحفل به من الأماء والمغنيات والجواري تساعد كثيراً
على إذكاء العواطف واستثارتها . ولم يستحي اتياء الفقهاء انفسهم
من هذه العواطف ، ذاهبين في ذلك الى حد تبويبها في ضرب
من النظام المتناسك . وتفصيل ذلك ان داود بن علي (ت ٨٨٤)
كان قد انشأ في بغداد مذهباً فقهياً جديداً تنكّر للاجتهاد بأكثر
مما تنكر له الخنابلة انفسهم ، ولم يأخذ بغير المعنى الحرفي الخالص
لنص القرآن والحديث ؛ ومن هنا دُعي تلامذته بالظاهرية ، على
سبيل المقابلة بينهم وبين الباطنية . ثم ان ابنه محمداً خلفه في زعامة
المذهب ، وليس له من العمر غير ستة عشر عاماً ، فصنف في شبابه
مجموعة من المختارات الشعرية جعل الجزء الاول منها ، وقد وصلنا
دون غيره من الاجزاء ، وفقاً على الحب ، وشفعه بدراسة تحليلية
لمظهره كما تجلّى في الشعر . * كذلك ألف ابن حزم الفقيه الظاهري
الاندلسي ، في شبابه ، كتاباً تناول فيه بالبحث المفصل مختلف
الرغبات الحبيبة ، وظواهرها ، بمثابة ذلك كله بطائفة من المقطوعات

* « كتاب الزهرة » ، نشره لويس نيكول و ابراهيم طوقان (شيكاغو
وبيروت ، ١٩٣٢) .

الشعرية ، معظمها من نظمه . ٣٤ . وههنا تقع ، في حال من النضج الكامل ، على جميع الاغراض الشعرية التي راجت بهد في الغرب ، في اناشيد التروبادور البروفنساليين ، واغاني الجرمان الغرامية * . واغلب الظن ان فن هؤلاء جميعاً قد خضع للمؤثرات الاندلسية ، وان يكن متعذراً من غير شك ، تعيين السبل التي انتقلت بواسطتها هذه المؤثرات عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية ، بسبب من ان علمنا بحضارة الشمال في تلك الايام ضئيل الى ابعد الحدود .

الحركة العامية

ونشطَ البحث العلمي في الاندلس في حرية تفوق تلك التي تمتع بها الشعرُ نفسه . ذلك بأنه ، على خلاف الشعر ، لم يكن يعتمد اعتماداً عظيماً على عطف الامراء ورعايتهم ، ومن هنا استطاع أن يتابع أداء رسالته ، غير متأثر بضعف المسلمين السياسي إلا قليلاً . ومن الممتع رجال العلم الاندلسيين ابن حزم الذي ذكرنا آنفاً ، والذي كان جده الأعلى اسبانياً من أصل قوطي أو كلتي إيبيري ، ثم أسلم . وُلد بقرطبة سنة ٩٩٤ وكان أبوه وزيراً للحاجب المنصور ، فشب في اقطاع أسرته في منتم ليشم في كورة لبسة موكلًا بالاضافة الى تحصيله العلمي ، باتتباع الحب ، والغزل . بيد أن سقوط الدولة العامرية (التي رفع الحاجب

(٣٤) طوق الحماسة (في الالفه والالاف) . وقد نقله (الى الانكليزية)

لويس نيكل ، باريس سنة ١٩٣١

Minnesingers

المنصور قواعدها) طوّح فجاءةً بمجد أسرته وجاهاها . والواقع
 أن الحرب الأهلية التي قضت عليها قذفت به ، بأدى الامر ، الى
 المسريّة ، حتى إذا غلب سليمان على امره اُتهم بالتواطؤ مع
 الامويين ونفي بعد اعتقال دام عدة شهور . وفي بلنسية اتصل
 بعبد الرحمن الرابع ، الاموي ، الذي استطاع أن يحتفظ بخلافته ،
 فترة من الزمان ، هناك . فلما كانت سنة ١٠١٨ تمكن ابن حزم
 من العودة إلى مسقط رأسه ، حيث وزر لعبد الرحمن الخامس
 الخليفة الاموي ، سبعة اسابيع تقضت هنيئة سعيدة بين أواخر
 سنة ١٠٢٣ واولئ سنة ١٠٢٤ . وفي ١٠٢٧ نجده في شاطبة
 حيث اختتم صفحة شبابه برسالته في الحب ، الآنف ذكرها .
 وما هي إلا فترة يسيرة حتى شرع في وضع مؤلفه الديني التاريخي
 العظيم ، « الفصّل ، في الملل والاهواء والنحل » . وهو كتاب لم
 يسبق الى مثله في الادب العالمي ، عرض فيه لمختلف الفرق
 الاسلامية ، وللدينتين اليهودية والنصرانية ، ايضاً ، بأقصى النقد
 والذم ، طاعناً عليها ومنمّداً بأصحابها جميعاً . ومع انه كان في
 اول أمره من الشافعية ، الذين حظوا في قرطبة بتأييد عبد الرحمن
 الثالث ، كسدّ في وجه فقهاء المالكية ، فقد انقلب الآن إلى
 صمد الظاهرية الرافعين لواء الاسلام كما كان عليه منذ نشأته
 الاولى ، وشاركهم في حربهم ضد تعنت الاشعرية ، ضد الصوفية ،
 وتقديس الاولياء ، والخرافات جميعاً . ولسنا نعرف شيئاً دقيقاً
 عما قام به في النصف الثاني من حياته ، هذه الفترة التي وضع فيها
 عدداً ضخماً من المؤلفات التاريخية والفقهية . والواقع أنه اخفق ،

إبان تلك الفوضى التي طغت على هذه الحقبة ، في انشاء مذهب خاص به . ثم إنه وجد الامن عند حاكم جزيرة ميورقة طوال عشر سنوات (١٠٣٨ - ١٠٤٨) تمكن في ختامها احد المالكية المتعصبين من إبعاده عنها بسبب من خلاف نشب بينهما . ومهما يكن من أمر ، فقد قضى ابن حزم آخر سني حياته في إقطاع اسرته حيث توفي سنة ١٠٦٤ . وعلى الرغم من أنه لم ينجح في التمكن لمذهبه ، فليس من شك في أنه قد كانت لهذا المذهب آثار مستهضة في وسط التججر الذي استولى على الحياة الدينية في الاندلس .

وكان الطب يُعتبر في بلاطات الاندلس ، شأنه في المشرق ، ارفع العلوم اليونانية شأناً واسماها مقاماً . ولقد التفت ابو القاسم الزهراوي^{٣٥} ، المنسوب الى الزهراء صاحبة قرطبة ، والمتوفى حوالي سنة ١٠٢٣ ، كتاباً * جامعاً لأبواب الطب كلها . والحق ان الاجيال التالية احتفلت احتفالاً خاصاً بالجزء المفرد للجراحة ، في هذا الكتاب ، بما يشتمل عليه من وصف مفصل للالات الجراحية ، فنقل الى اللاتينية في القرن الخامس عشر ، ونشر في طبقات عددة .

اليهود في الاندلس

وشارك اليهود في هذه الحياة الثقافية مشاركة فعالة . والواقع انهم كانوا [قبل الفتح الاسلامي] منبئين في طول البلاد وعرضها

(٣٥) ويسميه الفرنجة Abulcasis

* « التصريف لمن عجز عن التأليف » .

[المرين]

بين القوط ، وانهم عملوا في خدمة أمراء النصارى كموظفين ماليين . فلما آلت مقاليد الدولة الاموية الى عبدالرحمن الثالث عهد الى طبيبه اليهودي ، حسداي بن شبروط بشؤون المال ايضاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد استطاع احد اليهود ، اسماعيل بن نغزالة * ان يبلغ منصب الوزارة في ظل الامير البربري حبّوس الذي استولى على الامر في غرناطة حوالى سنة ١٠٢٤ - بعد ان اعتزل الحكم عمه زاوي بن زيدي - والذي دام عهده حتى سنة ١٠٣٨ . وهكذا خلعت عليه الجالية اليهودية ، وكانت كثيرة العدد هناك منذ العصور القديمة ، لقب « ناجد » الخاص بالامراء . وكان المؤلف الذي صبا الى ان يجلد به اسمه في عالم الادب مقتصرأ على دراسة القصة اليهودي الذي عني في الاندلس - كالتخصص العربي - عناية خاصة بالابحاث اللغوية . أما سليمان بن يحيى بن جبيرول ، الذي حظي فترة برعاية ابن نغزالة وتأييده ، فمدین بشهرته عند اليهود لقصائده العبرية التي تنكشف ، في وضوح ، عن أثر الشعر العربي في الادب العبري . ولكنه فرغ ايضاً لدراسة فلسفة ابن مسرّة ، دراسة عميقة ، ضمّن كتابه « ينبوع الحياة » الذي نقله الى اللاتينية اليهودي المنتصر ، يوحنا الاسباني الطليطلي ، فاكسب صاحبه شهرة بين فلاسفة اللاهوت المدرسين في الغرب حيث حُرّف اسمه فصار Avicebrol او Avicebron . والذي لا شك فيه ان يهود الاندلس لم يكونوا دائماً في نجوة من الاضطهاد . ولقد سبقت منا الاشارة الى الثورة

* « صمويل بن مجدله » . ما رأينا تنبيهه فيما بحثنا مثلاً

التي اندلعت ضدهم في اسبيلية ، والتي عُهد الى الشاعر ابن زيدون في اخمادها . فلما تمّ السلطان المرابطين انتهى اليهود الى حال من العسر بالغة ، حتى لقد اضطر والد الطبيب والفيلسوف الشهير ، ابن ميمون ، الى ان يغادر قرطبة حوالى سنة ١١٥٠ الى إفريقيا اولاً ، ثم الى فلسطين . اما ابن ميمون نفسه ففزع الى مصر حيث نعم باستقرار موصول الحلقات ، ساعده على الدرس والانتاج .

البربر في شمالي افريقية

في ذلك الوقت كانت إفريقيا الشمالية الغربية ، التي تأثرت ديولتها المختلفة حتى تلك الآونة ، بالاندلس من ناحية والجزائر من ناحية ثانية ، تتمخض بجرعةٍ قدّر لها بعدد ان تسيطر على كامل الجزء الغربي من العالم الاسلامي . ومع ان قبائل البربر ، من اهل الصحراء الكبرى ، شرعت تدخل ، شكلياً ، في الدين الاسلامي منذ القرن التاسع وما بعده ، فالحق ان وضعهم الديني كان لا يزال على مستوى منخفض جداً . إننا نعرف من النقوش الرومانية ، في شمال إفريقيا ، مثلاً ، ان الاله « باكه » ظل يحتل عند قبيلة برعّة واطة مقام « الله » حتى الربع الاول من القرن الثاني للهجرة . ليس هذا فحسب . بل اننا نجد الى اليوم ان بعض قبائل البربر في شمالي افريقية لا تزال أمينة للدين الذي وجدت عليه آباؤها ، ولعاداتهم وتقاليدهم ، على الرغم من اعتناقها الاسلام اسمياً . والواقع ان جميع الاديان العالمية قد اضطرت الى ان تتساهل مع معتقدات معتنقيها الجدد السابقة . ففي مصر والشام نفسيهما ، حيث كانت النصرانية قد مهدت السبيل للإسلام ، استطاعت بقايا

المعتقدات الشعبية الوثنية ان تعيش في تقديس الاولياء وفي بعض العادات المتصلة بالاعباد . وبما تحسن ملاحظته ان الجهود التي بذلها الأعاجم المنضون تحت لواء الدين الجديد ، في جميع البلدان الاسلامية ، لانتزاع المساواة السياسية والاجتماعية التي انكرها عليهم العرب بادبيء الامر ، انما كانت على أشدها في شمالي إفريقيا ، على الخصوص . ذلك بأن روح البربر الديمقراطية كانت تأبى ، على الدوام ، الخضوع للعرب والاستسلام لمشيئتهم . فمنذ ايام الفتح الاولى والارض الافريقية مرتع خصب للشورات التي يعزوها المؤرخون المسلمون الى الحوارج . وليس من شك في ان ما لقيه هؤلاء الحوارج من أذن مضغية ينهض دليلاً على ثورة الروح القومية ، عند البربر ، في وجه سيادة العرب . ومن هنا كان في ميسور أيما داعية يتوجه في دعوته الى مشاعر البربر القومية ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة ان يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة .

المرابطون

وفي قبيلة لمتوكة ، احدى قبائل صنهاجة الضاربة في اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال والمسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة ، ظهر يحيى بن ابراهيم الجدالي وانتهى الى مقام الزعامة بعد ان دبت الفوضى في جسم المملكة القبلية القديمة . وحج يحيى هذا سنة ١٠٤٨ - ١٠٤٩ الى مكة ، فاستشعر حاجة قومه الى اصلاح ديني ، واعتلجت في نفسه نزعة عارمة الى تحقيق هذا الاصلاح بعد الفراغ من حجه . وفيما هو عائد الى بلاده لقي في نيفيس ، من

أعمال الاقليم الذي عُرف بعد براكش ، فقيهاً عالماً اسمه عبد الله
 بن يس الجزولي . واعجب الفقيه يحيى ، فصحه ليعلم قومه
 أحكام الدين الحنيف . ولكن دروس ابن يس لم تثر بادي الرأي ،
 غير رجوع ضئيل بين البربر ، فما كان منه إلا ان جمع فئة قليلة
 من اتباعه المخلصين واعتزل بهم في جزيرة بالسنگال حيث ابنتى لهم
 رباطاً ، أي قاعدة أمامية يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ،
 ويفرغون فيها كذلك للعبادة والتأملات الروحية . والحق انه لم
 يهدف من اصلاحه الى محاربة المساويء المتصلة بحياة الافراد
 الخاصة ، بل عدا ذلك الى مساويء الحكم كأرهاق الرعية
 بالضرائب الفاحشة . وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثرت فيها
 مريدوه . حتى لقد صار في ميسوره ان يوجههم للنضال ضد الامراء
 المستبدين في الطرف الشمالي من الصحراء . وترك ابن يس قيادة
 « المرابطين » العسكرية ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في لمتونة .
 حتى اذا توفي [يحيى] سنة ١٠٥٦ خلفه اخوه ابو بكر وابن عمه
 يوسف بن تاشفين . وكان ابو بكر قد بنى بزينة ارملة امير انجمات
 بعد استيلائه على هذه المدينة ، فقدّر لها ان تمثل دوراً حاسماً في
 ظلّ ابي بكر وظلّ يوسف جميعاً . وفي سنة ١٠٥٩ قضى ابن
 يس نجبه في معركة خاضها ضد قبيلة برغواطة البربرية ، على شاطيء
 الاطلسي - وكانت تتبع رسولاً منها ، وتعتبر في جملة الكافرين -
 فتولى زمام الحكومة من بعده القائدان : ابو بكر ويوسف . حتى
 اذا ذرّ الشقاق قرنه بين ابناء العشيرة الذين لم يبرحوا ديارهم في الجنوب
 اضطرا الى الافتراق . فانقلب ابو بكر الى الصحراء الكبرى ليقرّ فيها

النظام ، في حين تابع ابن عمه - وكان ابو بكر قد تخلى له عن امرأته - فتوجه في الشمال . وفي سنة ١٠٦٢ بنى يوسف مدينة مراکش وجعلها داراً له . ثم استولى على فاس سنة ١٠٧٠ وعلى طنجة سنة ١٠٧٨ ، وبسط سلطانه بين سنة ١٠٨٠ وسنة ١٠٨٢ على افريقية الشمالية حتى بلاد الجزائر . وعندما حاول ابو بكر ان يمكن لنفسه في الشمال ايضاً رده يوسف الى الصحراء الكبرى حيث توفي سنة ١٠٨٧ . وبذلك تمت ليوسف زعامة المرابطين العليا من شاطيء افريقية الشمالي الى السنغال .

وكانت دولة المغرب التابعة للفاطميين قد خسرت بملكها في جزر البحر المتوسط ، بعد ان استولى عليها النصارى ؛ كما كانت قد اضعفها قبل ذلك ايضاً اقتسام الدولة الزيرية بتونس ، والدولة الحمادية بالجزائر لاراضيها . ثم ان تهور المستنصر الفاطمي عجل في سقوط هذه الاقاليم . ذلك بأن اعراب بني هلال وسليم المشهورين بشدة البأس وقوة الشكيمة كانوا قد استقروا في مصر مع غيرهم من ابناء القبائل العربية ، منذ اكثر من مئة عام . وكان الخليفة العزيز الفاطمي قد اكرههم ، بعد قتال شديد ، على الانكفاء من الدلتا الى مصر العليا . وهناك اتصلوا بالقرامطة وامسوا خطراً على الخلافة الفاطمية . فلما كانت خلافة المستنصر وغب في التخلص منهم فوجههم الى القيروان سنة ١٠٥٢ حيث التمسوا لانفسهم مراكز جديدة في شمالي افريقية . وإنما قصد من وراء ذلك ايضاً الى الاقتصاص من المعز بن باديس الزيري الذي خلع طاعته ، وحارب التشيع في البلاد الواقعة في حوزته . وما لبث البدوان

اجتاحوا الاراضي السهلية وعانوا فيها فساداً . فاضطر المعز الى
الاعتصام بمقره في المهديّة ، بينما نشأت في المدن الأخرى جمهوريات
أرستوقراطية . وقضى الغزاة على الحركة الثقافية التي كانت ناشطة
في تلك الديار ، قضاء مُبرماً ، وبذلك مهدوا السبيل لانتصار
المرابطين .

المرابطون في الاندلس
وفي الوقت نفسه كان الفونس السادس ملك قشتالة وليون
قد أفاد ، اعظم ما تكون الافادة ، من ضعف ملوك الطوائف
في الاندلس . فبعد سقوط طليطلة استشرع المعتمد بن عباد ،
صاحب اشبيلية ، أن الحُظر يتهده مباشرة . وهكذا اتفق
مع صاحبي بطليوس وغرناطة ، وهما اقرب جيرانه إليه ، فوجهوا
بعثة قوامها قضاة مدنهم الرئيسية الى يوسف بن تاشفين لتلمس منه
أن يبعث الى الاندلس بجيش يدفع عنها غارة النصارى . وكان
ابن تاشفين قد وُفق قبيل ذلك الى انتزاع سبتة من بني حمود .
ومن هنا اعلن استعداده لاجابة الوفد الى ما طلب ، واحترامه
لممتلكات حلفائه ، شريطة ان يُمنح الجزيرة الخضراء لتكون
مركز انطلاق لجيوشه . وإذ كانت البعثة غير محمولة حق البت في
مثل هذا التنازل فقد فارقت ابن تاشفين وهي لا تحمل جواباً منه
حاسماً . ولكن ابن تاشفين لم يلبث ان استصدر من فقهاء قنوى
تبييضه احتلال الجزيرة الخضراء ، برغم ارادة حكامها الشرعيين ،
في سبيل الجهاد ضد النصارى ، فوجه اليها سنة ١٠٨٦ اسطولاً لم
يجرؤ الراضي ابن المعتمد وعامل الجزيرة من قبله ، على مقاومته .

وما هي الا فترة قصيرة حتى جاز ابن تاشفين نفسه الزقاق الى الجزيرة الخضراء ، ونظم شؤونها واتم تحصينها ، ومن ثم سار إلى اشبيلية فأقبل عليه المعتمد والامراء المجاورون ، مرحبين خاشعين . وكان الفونس يحاصر سرقسطة ، فما ان جاءه نبأ قدومه حتى ارتد للقاءه إلى ان بلغ الاقليم المحيط ببطليوس . وطلب ابن تاشفين الى الفونس أن يلقى السلاح فأبى . فنشبت بينهما ، في الزلافة ، (٢٣ تشرين الاول) معركة هُزم فيها النصارى هزيمة شنيعة . فاضطر الفونس من جراء ذلك الى ان يُخلي إقليم بلنسية ويرفع الحصار عن سرقسطة . ولكنه اصطنع حصن اللبيط * بين مرسية ولورقة ، قاعدة للهجوم على اراضي المعتمد . ورجع ابن تاشفين الى المغرب ، بعد ان توفي ابنه الذي كان قد اقامه نائباً عنه في سبتة . وعجز الثلاثة الآلاف بوبري الذين ظلوا في الاندلس عن صد القشتاليين . وكان السيد رذريق * قد اقام نفسه وصياً على الملك القادر الذي عوضه الفونس من مدينة طليطلة بمدينة بلنسية . فاستنجد الامراء من جميع اطراف الاندلس بيوسف بن تاشفين ، حتى إذا فرغ المعتمد بن عباد الى بلاطه مستصرخاً ، عزم على القيام بحملته العسكرية الثانية على بلاد الاندلس . وفي ربيع سنة ١٠٩٠ أجاز جيشه الزقاق الى الجزيرة الخضراء ، فانضم اليه أمراء مالقة وغرناطة

* اسمي العرب Alédo ايضاً « ليط ولبيط » . [المغربان]

* * Rodrigo el Campeador « رذريق القتيطور » وهو صاحب الاسطورة التي بنى عليها الشاعر الفرنسي كورني مسرحيته الشهيرة « السيد » Le Cid [المغربان]

والمرية ، فضلاً عن المعتمد ، وتقدموا جميعاً الى حصن الليط فثبت
 لهجومهم الاول ، فلم يكن بدءاً من محاصرته مدة تطاولت الى ما
 بعد حلول الشتاء . ومهما يكن من شيء ، فقد ذر قرن الشقاق ،
 في معسكر المسلمين ، خارج حصن الليط ، بين ملوك الطوائف ،
 وبخاصة بين المعتمد صاحب المرية والمعتمد صاحب اشبيلية ،
 وبلغت منهما الجبهة مبلغاً جعلها يحتكمان الى ابن تاشفين .
 وفي مطلع الشتاء سار الفونس الى حصن الليط بجيش قوي ،
 ابتغاء انتزاعه من المسلمين . فما كان من ابن تاشفين إلا ان
 انسحب الى لورقة اجتناباً للالتحام بقوات الفونس في معركة
 لا يدري نتائجها ، بسبب من عدم ثقته بحلفائه الاندلسيين . ولم
 يكن الفونس نفسه راضياً عن سحب حاميته من حصن الليط الى
 قشتالة بعد أن تركه - وقد اشرف على الحراب من فعل ضرب
 [المنجنيقي] المتواصل - طعاماً للنار . وحتى في اثناء الحصار جاء
 القضاة ابن تاشفين يشكون اليه عجز ملوك الطوائف وضياع هيبتهم
 فأعار الفاتح شكواهم اذناً مصغية . والحق ان مؤازرة الفقهاء قد
 مكنته في تلك الآونة من تحقيق خطة رسمها ، غير شك ، منذ
 زمن طويل ، للاستيلاء على البلاد كلها . وكان اول ما قام به ،
 لهذه الجهة ، ان استصدر من قاضي غرناطة وقاضي مالقة فتوى
 تقول بان ملوك الطوائف ليسوا اهلاً للحكم بسبب من خروجهم
 المتواصل على أحكام القرآن . ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى
 استطلاع رأي اشهر فقهاء المشاركة في هذا الحكم ، زيادة في
 الاطمئنان ، فأيدوه جميعاً ، وفي جملتهم الفقيه الكبير ، الغزالي .

ثم ان يوسف عهد الى نسيبه سير ابن ابي بكر في انفاذ مشروعه هذا ، مؤثراً ان يعود هو الى المغرب . وعجز ملوك الطوائف عن الصمود في وجه الجيوش البربرية . ولم يوفق الى الاحتفاظ بالعرش غير صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكتب رضا الفاتحين بالهدايا السنية . حتى اذا توفي سنة ١١١٠ نحي ابنه عن العرش في الحال .

وفي سنة ١١٠٦ توفي ابن تاشفين تاركاً لابنه عليّ اقوى امبراطورية عرفها الغرب الاسلامي حتى ذلك الحين . بيد ان التنظيم الداخلي لهذه الامبراطورية المتزامية الاطراف كان ابعده ما يكون عن الأحكام والتاسك . ولم يلبث عليّ ان انصرف بكليته الى اشواقه الدينية فاذا بالفقهاء الذين أسهموا بنصيب عظيم في تأسيس الامبراطورية بالذات ، يصبحون الآن وكلمتهم هي العليا في الدولة . ولكن التعصب التقليدي استغرق حياتهم الدينية كلها ، فهم لا يتساحون بأيما نزعة ، ولو طفيفة ، الى التدين الفردي . والواقع ان كتاب احياء علوم الدين للغزالي اثار عند انتشاره في الاندلس عاصفة من الاستياء وكان من حقه ان يثير نزعة الى محاسبة النفس . ليس هذا فحسب ، بل لقد أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى اتهموا فيها مجدد أمر الدين الاسلامي [الغزالي] بالابتداع والمهرطقة . فأحرق كتابه في قرطبة ، على مشهد من جماهير الشعب ، وفرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها . ومن هنا لم يكن عجباً ان تكون وطأة رجال الدين اشد على غير المسلمين وأثقل . فاضطر يهود أليسانة ، وهم أغنى اليهود في الاندلس ،

الى أن يشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة ، في حين آثر غيرهم ان
يبرحوا البلاد ، فعزل والد الفيلسوف ابن ميمون . ولم يكن
النصارى المستعربة * الذين اتخذوا العربية لغة لهم في كل مكان ،
أحسن حالاً ، وانعم بالأ . ولعلمهم من اجل ذلك رحبوا بالمهجرات
المتكررة التي كان امراء النصرانية يقومون بها على الديار الاسلامية
والتي عجز البربر عن مقاومتها ، مقاومة فعالة ، بعد ان انغمسوا في
متارف الحضارة الاندلسية ومناعها . ففي ١٩ كانون الاول سنة
١١١٨ تم لألفونس الأول ملك أرغون فتح سرقسطة ، معقل
الاسلام الامامي في الشمال ، وكانت محل نزاع بين ملوك المسلمين
والنصارى زمناً طويلاً . وفي سنة ١١٢٥ اندفع الى ابعد من ذلك
في اتجاه الجنوب . ومع انه لم يوفق الى تحقيق ما رمى اليه
من الاستيلاء على غرناطة فقد انزل بالمسلمين هزيمة مُنكرة قرب
مدينة ألبانة اليهودية . عندئذ أصدر ابن رشد ، أشهر قضاة ذلك
العصر ، وجدّ الفيلسوف الشهير ، فتوى بضرورة اجلاء النصارى
الذين ألقبت عليهم تبعة هذه الهزيمة ، الى مراکش ، حيث أنزلوا
في سلا ومكناسة . ولكن الاستيلاء من حكم المرابطين لم يلبث
أن تعاضم في المدن الإسلامية ايضاً ، لأن جيوش البربر عاثت في
الارض بضراوة لا تقل عن ضراوة المرتقة من جنود الامراء من
قبل ، وشلت حركة العمل والتجارة .

الموحدون

ومهما يكن من شيء ، فسرعان ما اختمرت بين قبائل البربر

mozarabs *

في شمالي افريقية جرائم حركة جديدة ٣٦ . ذلك بأن النزاع
 الفقهي قد دعا الى ظهور خصم خطير حمل راية الثورة على حكم
 المرابطين . فألى جانب مذهب مالك الذي استعاد سلطانه في
 افريقية ايضاً ، بعد تحررها من سلطان الفاطميين سنة ١٠٤٩ ، طفت
 على المغرب من أقصاه الى أقصاه موجة عارمة من التعصب للسنة
 تذهب الى تفسير جميع الآيات القرآنية المجسّمة للذات الالهية تفسيراً
 حرفياً ، وتعد كل مناقشة فيها بدعة او هرطقة . والواقع ان
 ممثلي هذه النزعة كانوا يعتبرون ان محاكمتهم المبينة على اساس
 المتون المعترف بها هي وحدها العلم ، وكل ما عداها هراء لا طائل
 تحته . وكان مذهب المعتزلة الةلاني * قد تجاوز في وجه هذه
 النزعة كما رأينا ، حتى في قلب العالم الاسلامي حيث نعم فترة من
 الزمان بحماية الدولة . وائياً ما كان ، فقد لمع في بغداد ، مطلع القرن
 العاشر ، ابو الحسن علي الاشعري (ت سنة ٩٣٥) ، الذي بدأ
 حياته معتزلياً ثم انقلب ، في سن الاربعين ، الى السنة وعمل في
 سبيل تطويرها جدياً ** وإقامتها على اساس علمي . ولقد كانت
 على تلامذة الاشعري ان يجاهدوا دهرأ طويلاً لانتزاع الاعتراف
 الرسمي بطريقة هذه . فقد كانت هذه الطريقة حتى في السنوات
 الاولى من حكم ألب ارسلان تُشجب ، من على منابر المساجد ،
 كبدعة من البدع . ولكن الوزير السلجوقي الكبير ، نظام

R. Millet, *Les Almohades, Histoire* (٣٦) راجع إليه
d'une dynastie berbère, Paris, 1923 .

rationalist *

dialectically **

المُلك ، لم يلبث ان ايدها بنصره داعياً الجُويّني ، المشهور بأمام
الحرّمين ، والفُشيري الى التدريس في الكلية التي انشأها في بغداد
[المدرسة النظامية] . وعلى الرغم من معارضة الخابطة الرجعية
— هذه المعارضة التي كانت تتمثل بين الفينة والفينة في شعب
الغوغاء — فقد تمت السيادة ، آخراً الامر ، للمذهب الاشعري في
بلاد الشرق . ثم جاء الغزالي فأتم ما بدأ به الاشعري ، جاعلاً
العودة الى القرآن والسنة العمود الهادي في الفقه عنده ؛ ولكنه
اعترف ايضاً ، بالاضافة الى عقيدة اهل السنة ، بحقوق الصوفية
المعتدلة .

وحوالى سنة ١١٠٧ رحل الى بغداد محمد بن تومرت من قبيلة
مضمودة البربرية ، ومن ابناه جبل السوس في الجنوب الغربي
من مراكش الحالية ، بعد ان قضى فترة يسيرة في قرطبة
حيث شهد احراق مصنفات الغزالي ، وحيث اثارت كتب
ابن حزم في نفسه كثيراً من التأمل والتفكير . وانما قصد
ابن تومرت من رحلته هذه الى اتمام تحصيله الفقهي من معينه الفياض
في بغداد . وهناك وقف على تعاليم الاشعري ؛ وسرعان ما اعتنقها
بالغيرة التي امتاز بها بنو جنسه البربر . فلما رجع الى المغرب اعلن
حرباً شعواء على مفاهيم الفقه المجسّمة ، السائدة هناك ، داعياً
الناس الى طريقته التي تؤكد في الدرجة الاولى جانب التوحيد ،
ومن هنا عرف أتباعه بالموحدين . اما في صعيد الفقه العملي فقد
وضع اعظم التأكيد على السنة كنموذج يجتدى في الحياة ، بينما
كان لاجتهادات الفقهاء التشريعية المحل الارفع في عهد المرابطين .

ولكي يكفل محمد بن تومرت لنفسه اعظم قدر من تأييد أنصاره
في هذا النضال ضد المساويء السائدة في زمانه ، فقد أوقع في
رُوع الموحدين انه المهدي المنتظر الذي سيملاً الأرض عدلاً ،
بعد ان مُلئت جوراً . والواقع انه ناهض ، شأن المرابطين من
قبله ، جميع ضروب الابتزاز غير القائمة على اساس التقاليد الاسلامية
القديمة ، وهو ما يُؤذن بأن المرابطين لم يلتزموا المباديء التي
كانوا يبشرون بها في خطبهم ومواعظهم .
وبعد ان طاف محمد بن تومرت في مراكش وغيرها من المدن
الكبيرة فبذته لاتجاهاته العنيفة ، وتكشّف له اهلها عن قلوب
عُلم واذان ضمّ ، انقلب الى قبيلته في الأطلس (جبال درن)
فنجح في نشر تعاليمه بين أفرادها . ثم انه بنى مسجداً في تينمكلك
قرب منبع نهر ترفيس ، وبذلك وضع الاساس لعاصمة الموحدين
الاولى . ولقد جمع الى نفسه بوصفه مهدياً واماماً ، مجلساً يتألف
من مريديه العشرة السابقين الى قبول دعوته ، وهم المسمون
« بالجماعة » ، ليضيف اليه بعد مجلساً آخر ينتظم خمسين مندوباً عن
مختلف القبائل البربرية . ولقد عرف ابن تومرت كيف يتملق
الوعي القومي عند البربر باستجدائه الاذان للصلاة باللسان البربري .
واذ كان أتباعه يعدّون سائر الناس كفاراً ، فقد كان في وسعه
أن يشن الهجوم على دولة المرابطين في وقت قريب . فاستولى
بأدى الامر على جبل السوس . وفي سنة ١١٣٠ كانت مراكش
ممنعة ، ما تزال ، على قواته . ثم ان ابن تومرت توفي ، بعد اربعة
أشهر ، فخلفه اخلص اتباعه له عبد المؤمن بن علي ، وكان قبل وفاة

المهدي ينوب منابه في قيادة الجيش . ولما كان عبد المؤمن من غير
المصامدة فقد كتم مجلس العشرة ، في ما يظهر ، نبأ
وفاة المهدي طوال سنتين ، ليعلن بعد خلافته له . وفي السنوات
العشر التالية أنزل الخليفة الجديد الهزيمة بجيوش المرابطين ،
واحداً بعد آخر . وكانت دولة المرابطين آخذة في الضعف
والانحلال . فلقد سبق لهم ان هاجموا النورماندين في صقلية ،
سنة ١١٢٢ ، يساعدهم في ذلك الحسن الزيري . وما عم هؤلاء ان
ان انتقموا لانفسهم ، فطردوا الزيري من عاصمته ، المهديّة ، سنة
١١٤٨-١١٤٩ واحتلوا الشاطيء الممتد من السموس الى طرابلس ،
فترة من الزمان . اضافة الى ذلك ان النصارى كانوا يتقدمون في
الاندلس ويتهددون سلامة الدولة بخطر عظيم .

وتوفي عليّ خليفة المرابطين المستضعف ، في سنة ١١٤٣ فقام
من بعده ابنه تاشفين ، فأفرغ جهده في محاولات محققة لصد تيار
الموحدين . وبعد ان حوصر في تلمسان طوال عام واحد فرّ في محاذة
الشاطيء الى وهران رجاء ان يوفق الى الفرار من هناك الى
الاندلس مع الاسطول الذي استدعاه من المرية . ولكنه سقط
بفرسه ، من على شاهق ، في البحر - قبل ان يبلغ سفنه - فقتل
(سنة ١١٤٥ أو ١١٤٦) فيما هو هاربٌ من جيوش الموحدين
التي كانت قد احتلت المدينة .

ونشأت في الأندلس ، بعد سقوط المرابطين ، عدة دويلات
صغيرة كانت أعجز من أن تقاوم النصارى وتقف تقدمهم . ففي
سنة ١١٤٧ وفق الفونس الاول ، ملك البرتغال (البورتهال) الى

ان ينتزع عاصمة ملكه ، أشبونة ، نهائياً ، من ايدي المسلمين ، وكان النصرارى قد احتاوها في مستهل حكم المرابطين ، ليعاود سير بن ابي بكر فتحها سنة ١١١٠ . وفي السنة التالية اندفع الفونس السابع ملك قشتالة في توغله في البلاد حتى انتهى الى قرطبة . ولكن الموحدين تصدوا له هناك فاضطر الى ان يقف عند ذلك الحد وينقلب على عقبه . وكان خليفة الموحدين [عبد المؤمن بن علي] قد قضى على آخر مقاومة لحكمه في شمالي افريقية بعد معارك دامية ضد البربر ، ومن ثم غدا في ميسوره ان يتقدم لقتال اعدائه الخارجيين بعزيمة اشد واقوى . ولقد كان اول ما فعله ان وجه قائده برّاز الى الاندلس فاكراه اتباع المرابطين ، بعد معركة ضارية ، على الانكفاء حتى الجزائر الشرقية * وحرر الخليفة بنفسه الساحل الافريقي من سلطات النورمازيدين الصقليين . وكان يعتزم ان يقوم ، بعد اتمام هذه الحملة ، برحلة الى الاندلس ، ولكن المنية عاجلته ففضى نحبه سنة ١١٦٣ .

ابن طفيل وابن رشد

وفي عهد ولده ابي يعقوب يوسف (١١٦٣ - ١١٨٤) وحفيده يعقوب المنصور (١١٨٤ - ١١٩٩) بلغ الموحدون غاية قوتهم . والواقع ان يوسف اتم اخضاع اسبانية الاسلامية ، ليقتل بعدئذ ابان حصار شنترين في معركة ضد الامير شانجيه البرتغالي . وكان والده من قبله قد خضع شوكة المالكية المتعصبين وحدّ من

* وهو الاسم الذي اطلقه العرب على جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة)

نفوذهم ، فلما رقي هو عرش الخلافة قرب اليه الفلاسفة ورفع شأنهم ،
 وكانت الفلسفة من قبل ذلك محرمة . فوفد على بلاطه ، من
 الاندلس ، اعظم فيلسوفين انجبهما الغرب الاسلامي : ابن طفيل
 وابن رشد . وكان ابن طفيل ، المولود في وادي آس قرب غرناطة ،
 قد نزل باديء الأمر غرناطة وعمل فيها كطبيب ، ثم شغل منصب
 امين السرّ لعامل غرناطة من قبل الموحدين . وفي سنة ١١٥٤
 عين بناء على اشارة رئيسه ، اميناً لسرّ [الامير ابي سعيد] احد
 اولاد عبد المؤمن ، وكان اليه حكم سبتة وطنجة . وإنما يدين
 ابن طفيل بشهرته الى اقدم قصة فلسفية اخرجها الادب العربي
 للناس . وتفصيل ذلك ان ابن سينا كان قد وضع رسالة رمزية
 صوفية بعنوان «حي بن يقظان» ، فاستعار ابن طفيل بطلها
 لقصته الخيالية حول اسس العلم واساليبه . ولقد تخيل ابن طفيل
 ان «حياً» هذا ولد يتيماً في جزيرة خالية من الناس ، وانه
 استطاع ، من طريق الاتصال بالطبيعة ، ان يكتشف الأسس
 الضرورية للحضارة ، ويصل الى معرفة الاله والعالم . حتى اذا
 تقدمت به السن وبلغ الخمسين ، وتمت له نظرة شاملة الى الوجود
 وقف ، من طريق ابسال وزير الملك سلامان ، صاحب احدى
 الجزر المجاورة ، على الديانة المنزلة ، فظهر له ولأبسال ان فلسفة
 احدهما لا تختلف في حقيقتها عن ديانة الآخر . ولكن الملك ، الذي
 تعرّف اليه حي بواسطة صديقه ، كان اعجز من ان يسمو بنفسه
 الى المستوى الرفيع الذي تمثله معتقداتها فأثرا العودة الى الجزيرة
 المهجورة ليفرغاً ، بقية عمرهما ، للتأمل والرياضة ، تاركين الملك

وشعبه للتمسك بالرموز] التي تتمثل بالتزام حدود الشرع والاعمال
 الظاهرة [لان هذه العبادة بدائية لا تليق ببطلاني القصة . والواقع
 ان هذا الكتاب ، الذي نقل الى العبرية بعد مائتي عام ، ثم ترجم
 الى جميع اللغات المتعدنة تقريباً من طريق اللاتينية ^{٣٧} ، شاهد
 يبلغ على مدى الحرية التي نعمت بها حركة التوفيق بين التصوف
 والفلسفة في ظل الموحدين . ولعل ابن طفيل كان يتوقع ان
 يتابع ابن رشد الصغير ، حفيد قاضي قرطبة الشير ، رسالته .
 فقد كان ابن طفيل هو الذي قدّم ابن رشد الى بلاط مراکش ،
 وهو الذي اوصى سنة ١١٨٢ بتعيينه خلفاً له في منصب طبيب
 البلاط . ولكن لما كان ابن رشد قد شغل طوال اثني عشرة سنة
 منصب جده وابيه كقاضي قرطبة فقد اعفاه الخليفة من هذه المهمة .
 وليس من شك في ان اعظم آثار ابن رشد شروحه على كتب
 ارسطو ، هذه الشروح التي شجعه على وضعها الخليفة نفسه . والحق
 انها هي التي فتحت للغرب مغاليتك الفلسفة الهلينية ، بعد
 ان نقلها (اي هذه الشروح) ميخائيل الاسكتلندي الى
 اللاتينية ، في وقت باكر يرقى الى سنة ١٢٣٠ . اما في
 مصنفاته هو فقد كانت همته منصرفة الى التوفيق ما بين العقيدة الاسلامية
 ونتائج الدراسات الفلسفية . بيد ان موقفه من مسألة قدم العالم
 (وقد دافع عنها ضد عقيدة الخلق من عدم) ومسألة علم الله لم
 يلبث ان اثار نقمة فقهاء الاندلس عليه ، كما حمل الكنيسة على تحريم

The History of Hayy ibn Yaqzan, tr. by Simon انظر (٣٧)
 Ockley (1708), revised ed. by A. S. Fulton, London, 1929.

نظرياته ، في القرن الثالث عشر . فحاطه خليفة يوسف ، يعقوب [المنصور] ، بادى الامر ، بمجايته ورعايته شأن ابيه من قبل . ولكنه اضطر في النهاية الى ان يتخلى عنه لشديد حاجته الى تأييد فقهاء الاندلس في نضاله ضد النصارى ، وكان يطلب عندهم ثأر ابيه - وان ينفيه الى اَلِيسانة ، قرب قرطبة ، بعد ان امتحنه محنة مؤلمة ، بأحراق مصنفاته جميعاً خلا الطبية والرياضية والفلكية . وسرعان ما تم للخليفة المنصور ، في ١٩ تموز سنة ١١٩٥ ، نصر مؤزر على الفونس الثامن ملك قشتالة ، في معركة جرت عند الأرك ، على الرغم من انه لم يوفق الى حسن الافادة من نصره هذا لاضطراره الى ان يعود ، على جناح السرعة ، الى افريقية ، حيث اندلعت نار الثورة . حتى اذا اقر الامن والنظام فيها عفا عن الفيلسوف واستدعاه الى بلاطه في مراکش . ولكن ابن رشد ما عزم ان توفي في ١٠ كانون الاول سنة ١١٩٨ . وفي السنة التالية توفي الخليفة ايضاً .

الضعف بعد القوة

بيد ان امبراطورية الموحدن التي انتظمت الاندلس وافريقية كلها الى تخوم مصر ، وهي رقعة واسعة لم تجتمع لأي من الدول الاسلامية من قبل ، ما لبثت ان اصابها الانحلال في ظل المستضعفين من خلفاء المؤسسين الاوّل . فلم يكده محمد الناصر يخلف أباه يعقوب حتى واجهته الثورات من كل سبيل . وكان عليه بادىء الرأي ان يجمع ثورة قبيلة غمارّة البربرية في الاطلس [جبال درن] . حتى اذا تم له ذلك انقلب الى الجزء الشرقي من الامبراطورية

ابتغاء القضاء على ثورة يحيى بن غانية في إفريقية . وبعد ان اعاد فتح المهديّة ، عاصمة الاغالبة ، في كانون الثاني سنة ١٢٠٦ ، عهد في حكم الشرق الى عبد الواحد بن أبي حفص الهنّاتي ، الذي سبق لأبيه ان اسدى خدمات جلي الى مؤسس الامبراطورية ، والذي استطاع أعقابه ، بنو حفص ، ان يستقلوا بعد بتونس . كذلك قضى الناصر على البقية الباقية من حكم المرابطين . وكان بنو غانية قد استقلوا ، عقب خسارتهم الاندلس ، بالجزر الشرقية ، فلم يكن من الناصر إلا ان وجه لهم اسطولاً من الجزائر ، فوفق لانتزاع ميورقة منهم . بيد انه عجز عن ان يصد تقدم النصارى في الاندلس ، صداً حاسماً . ففي ١٦ تموز سنة ١٢١٢ شن الفونس الثامن ملك قشتالة هجوماً على الاراضي الاسلامية وانزل بمخليفة الموحدن عند حصن العقاب هزيمة قاصمة على الرغم من تفوق الجيش الاسلامي في عدد الرجال تفوقاً كبيراً . عندئذ سارع الناصر الى فاس ، وما لبث ان عين ابنه يوسف نائباً على الدولة برمتها ، وكان يضطلع بهذه المهمة ، حتى ذلك الحين ، وزيره الضعيف ابن جامع . ثم انه توفي في رباط ، يوم ٢٥ كانون الاول سنة ١٢١٣ .

وخضع يوسف المستنصر ، خلال سني حكمه العشر ، خضوعاً تاماً لوزيره الذي لم يكن ليحد من سلطته غير النخبة الارستقراطية من الموحدن . وكان محمد ابن ابي حفص ، حاكم تونس ، قد اقسم بين الولاة ليوسف على كرهه ، فلما توفي الخليفة [المستنصر يوسف] ورفع ابن جامع ، عبد الواحد أخا يعقوب المنصور الى عرش الخلافة ، ثبت في البلاد ثورة شاملة . وفي مُرسية بالاندلس ،

Copyrighted material, reviewed by A. S. Fulton, London, 1929.

بويغ عبدالله ، ابن اخي عبد الواحد بالخلافة متخذاً لنفسه لقب
 « العادل » . عندئذ خلع شيوخ مراکش عبد الواحد ونفوا الوزير .
 ولم يلبث ان برز للعادل ، في الاندلس ، خليفة منافس هو
 ابو محمد ، حاكم بيباسة ، الذي ادعى اول الامر انه من نسل
 عبد المؤمن ، ثم عاد فزعم انه من نسل حفص . والتمس ابو محمد نصره
 الملك فرديناند الثالث على عدوه ، فلبى فرديناند النداء مغتبطاً ،
 بعد ان تنازل له ابو محمد عن بيباسة نفسها . وفي سنة ١٢٢٥ هـ زم
 العادل وقصد الى إفريقية تاركاً مهمة النضال ضد الثائرين والنصارى
 لأخيه أبي العلى . ولكن شيوخ مراکش أبوا أن يُقسموا له يمين
 الولاء ونادوا بان اخيه يحيى المعتصم خليفة عليهم . ثم ان العادل
 قاتل اتباع المعتصم فقُتِل . عندئذ هب اخوه المأمون ، في
 الاندلس ، مطالباً بالعرش ، فوفق بمساعدة فرديناند التي لم تُبدل
 له إلا لقاء تنازل إقليمي جديد ، إلى التمسكين لنفسه في مراکش .
 حتى إذا طرد يحيى [من مراکش] وتوهم أنه قضى على المقاومة
 كلها إثر منجحة فتك فيها [بمشايخ الموحدين] سعى الى توطيد دعائم
 سلطانه من طريق القضاء على عقائد الموحدين وسننهم التي جرى
 عليها المشايخ ، والعودة الى مذهب مالك . فلم يكن من ابي
 زكريا ابن ابي محمد ابن ابي حفص ، امير تونس ، إلا أن اتخذ من
 ذلك ذريعة الى خلع طاعة المأمون . والواقع أن ابنه عبد الواحد
 الثاني ، الرشيد ، ارتد الى عقيدة التوحيد ، عقب ارتقائه العرش
 سنة ١٢٣٢ ؛ فلم يُعنه صنيعه هذا شيئاً . ذلك أن ابا زكريا لم
 يكن أبداً على استعداد للتخلي عن استقلاله ، وأن كثيراً من

حكام المقاطعات والأمصار اقتفوا أثره. فقد كان يَغْمِرَ اسن ابن عبد الواد ، من قبيلة زِيَّان يَحْكُم تلمسان سنة ١٢٣٦ من قبيل الرشيد ، نظرياً ، ولكنه في الواقع كان مستقلاً استقلالاً مطلقاً ، شأن أعقابهِ من بعده ، حتى سنة ١٣٩٣ . أما سقوط الموحدين النهائي فقد تم على ايدي بني مَرِين ، من قبائل زناتة البربرية ، الذين نجوا بانفسهم ، بعد هزيمة مواطنيهم العامة ، سنة ١١٤٥ ، من طريق الفرار الى الصحراء الكبرى . وكانوا قبل سنة ١٢١٦ قد خرجوا من وادي مَلُوِيَّة فشنوا غارةً عبر مراکش الوسطى لم تُبق ولم تَنَزَرْ . ولقد وُفِّقوا بايديء الأمر الى ان يوطدوا أقدامهم في اراضي بني رِيَّاح ، من قبائل العرب . وعلى الرغم من أن قوات [الخليفة] السعيد ، الذي تولى الأحكام بعد الرشيد ، استطاعت سنة ١٢٤٤ ان تهزمهم وتكبرهم على الانكفاء ، فقد استأنفوا تقدمهم في عهد خلفاء السعيد هذا . والظاهر أن اميرهم أبا يحيى بن عبد الحق خاصم الموحدين خدمةً لبني حفص ؛ واصطنع نفوذ الاولياء المراكشيين (وكان لهم شأن عظيم عند العامة) واستغله لما ربه الخاصة . كذلك سعى إلى منح ذوي قرباه إقطاعات خصبة ، غنية . وزاد قواته المحاربة أضعافاً باستخدام المرتزقة الأجانب ؛ ومن ثم صار في ميسوره أن ينتزع المدينتين الهامتين فاس ومكناسة ، بالاضافة الى سلا ورباط الساحلتين ، من أيدي و حدين . فلما كانت سنة ١٢٦٩ وبدأ النزاع على العرش ، كرةً اخرى ، في مراکش ، استولى ابو يوسف ، الذي خلف أبا يحيى ، على العاصمة ، وفي سنة ١٢٧٥ قضى احد عمال ابي يوسف في الاطلس ،

على البقية الاخيرة من سلالة الموحدين . (٧١٨) *عاشقة بالظلمة*
بنو الأحمر

وتصدّر لجهاد النصارى، بعد انسحاب الموحدين من الاندلس، محمد بن يوسف بن هود، وكان اجداده من قبيل ملوكاً على مرسية . وانما ظهر ابن هود، اول ما ظهر، في مرسية . ومن هناك وفق، تدريجياً، إلى ان يوحد اهم المدن الاندلسية تحت رايته، مستغلاً ضعف جيرانه من النصارى . ومهما يكن من شيء، فقد عادت ليون الى الاتحاد مع قشتالة، سنة ١٢٣٠، بعد وفاة الملك الفونس، وبذلك استأنف النصارى هجماتهم على المسلمين، منزلين الهزيمة بابن هود، في شريش، سنة ١٢٣١ . وفي الحال برزت الى الميدان شخصية عربية، وحاولت ان تمكن لذاتها على حساب ابن هود . وتفصيل الأمر انه كان يقيم في ارجونه، شمالي جيان، احد احفاد زعيم الخُزرج في عهد النبي، محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الذي عُرفت اسرته ببني الاحمر؛ فسارع سنة ١٢٣١ الى اعلان نفسه اميراً على الاندلس، وتم له الاستيلاء على جيان، ووادي آس، وبسطة . وفي سنة ١٢٣٥ احتل غرناطة، وجعلها عاصمة لدولته النصرية، لتظل كذلك حتى سقوط هذه الدولة نهائياً . والواقع ان التناحر الناشب بين المسلمين ادى، وشيكاً، الى سقوط قرطبة، عاصمة اسبانية الاسلامية القديمة، في ايدي النصارى، في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ . وبعد سنتين قُتل ابن هود غيلة، بعد ان خسر معركة اخرى خاضها ضد النصارى . ولكي يدفع ابن الاحمر عن دولته خطر المنافسين دخل في حماية فرديناند

الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ - ١٢٥٢) ، كتابه له ، مقابل جزيرة
 ضخمة . وفي سنة ١٢٤٨ اضطر الى ان يقدم اليه [الى فرديناند]
 مساعدة حربية على اسبيلية . فلما آل الامر الى خلفه ، محمد الثاني ،
 (١٢٧٣ - ١٣٠٢) سعى الى التخلص من التزاماته الاقطاعية من
 طريق التعاون مع دولة بني مرين في مراكش . واحق ان ابا يوسف
 لم يتوحد في التدخل في شؤون الاندلس ، شأن المرابطين والموحدين
 من قبله ، بعد ان تنازل له محمد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة
 طريف ، فجاز جيوآسه الى الاندلس اربع مرات متواليات . ومع انه
 استطاع ان يوقع بالنصارى اذىً كثيراً ، فقد عجز عن إحداث أيما
 تعديل اساسي في الوضع الحربي . وسرعان ما امسى جنود البربر ،
 الذين تكفل بنو نصر بأرزاق قسم منهم ، عبئاً ثقيلاً على البلاد ، كما
 كانوا في السابق . ومن هنا سعى محمد الى ان يستنجد الفونس
 العاشر ، ملك قشتالة ، على حليفه المريني ، وتقدم يغمراسن [ابن
 عبدالواد] ايضاً لهزيمة حملة جيوانه بني مرين على الاندلس . فلما
 رقي العرش ابو الحسن ، رابع خلفاء ابي يعقوب ابن عبد الحق
 المريني اطرح سياسة اسلافه الاندلسية ، وهكذا استطاع بنونصر ،
 بما انتهجوه من سياسة لبقة دائمة التقلب ان يعثروا مائتين وخمسين
 سنة اخرى ، بوصفهم آخر سلالة اسلامية بالاندلس ، في الاقليم
 الضيق الممتد من ساحل جبل طارق حتى المرية ، والمنبسط في
 الداخل حتى سلسلة جبال رندة وجبال اليبيرة .

يحيى الدين بن عربي

وعرفت حضارة اسبانية اسلامية ، حتى في معقلها الاخير هذا

عهداً من الاشرار والزهو البالغين . والواقع ان مفكرين عظيمين
 انجبتهما اسبانية الاسلامية في ذلك العهد اختتما حياتهما في الشرق . أما
 اولهما فابن عربي ٣٨ ، الصوفي ، الذي وُلد بمرسية ، في ٢٨ تموز سنة
 ١١٦٥ ، ودرس الفقه والتشريع في اشبيلية من سنة ١١٧٣-١٢٠٢ .
 ثم قصد الى مكة حاجباً ففضى بقية عمره مطوّفاً في بلاد الشرق .
 ولما حمله تطوافه حتى آسية الصغرى ، ليستقر به المقام آخر الامر ،
 في دمشق ، حيث توفي في تشرين الاول سنة ١٢٤٠ . والحق انه
 كان في وطنه الام مجري في فلك ابن مسرة الفكري . اما في
 مكة فقد خضع ابن عربي لتاثير العقائد القرمطية في وحدة
 الوجود . وليس من شك في ان انتاجه الضخم الذي بلغ ذروته
 في « الفتوحات المكية » باجزائها السبعة عشر - وقد وضعها ما بين سنة
 ١٢٠١ وسنة ١٢٣١ ، وافرغ زبدتها في كتاب « فصوص الحكم » -
 نقول ان هذا الانتاج الضخم قد ساعد على تحقيق النصر الحاسم لهذا
 الضرب من العقيدة الصوفية على الجهود الصوفية القديمة بسبيل
 الزهد والصفاء . ولقد جرى ، في مجرى مشابه ، تفكير مواطنه
 ابن سبعين الذي تعزى اليه مجموعة سطحية جداً من الاجوبة عن
 مسائل فلسفية يقال ان فردريك الثاني ملك صقلية وجبها اليه .
 ففي اثناء قيامه بفريضة الحج الى مكة عام ١٢٧٠ تتبع عقيدة
 وحدة الوجود تلك ، الى غايتها المنطقية ، بأمانة و إخلاص فريدين
 في التاريخ الاسلامي ، وسعى الى ارجاع نفسه الى الله واتحادها

(٣٨) راجع [ابوالعلا] عفيفي - A. E. Affifi, *The Mystical Philo-
 sophy of ibn - Arabi*, London, 1939.

معها ، فأقبل على الانتحار .

ابن الخطيب وابن خلدون
وتستطيع هذه الإمارة الصغيرة - إمارة بني الأحمر - ان
تفخر أيضاً بمؤرخ كبير اضطرت حياته واختلفت عليه الاحوال
بين نعمة وبؤس ، فهو يمثل احسن تمثيل الحياة السياسية القلقة
في هذه الدولة الهزيلة خلال القرن الرابع عشر . وانما ولد هذا
المؤرخ الكبير ، لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني سنة ١٣١٣
من اب كان يعمل في بلاط [السلطان ابي الحجاج] يوسف
(١٣٣٣ - ١٣٥٤) ، حتى اذا توفي ابوه في معركة جزيرة طريف
سنة ١٣٤١ ، اختاره الوزير ابن الجيَّاب كاتباً له . وفي سنة ١٣٤٩
اجتاح الطاعون جنوبي اوروبة وبلدان البحر الابيض المتوسط ،
فسكان ابن الجيَّاب في جملة ضحاياه ، ومن ثم شغل لسان الدين
منصب الوزارة . وما برح في دستها حتى توفي سلطانه ،
وتولى ابنه [محمد] مكانه فأقره على الوزارة ، ايام ولايته الاولى ،
وهي قصيرة (١٣٥٤ - ١٣٥٩) . ولم يكن السلطان الجديد ، قد
بلغ عند وفاة ابيه ، الحُلُم ، فنهض بعبء الوصاية عليه احد قواد
الجيش ، رضوان . ولقد اثار ذلك حسد قائد آخر يدعى ابا سعيد
فاستولى على الحمراء ، قلعة غرناطة ، والاميرُ الحدث لا يزال في
البلاد ، ونادى باسمه اهل ، اخي الامير ، سلطاناً ، بعد ان التى
الوزير ابن الخطيب في غيابة السجن . وكان السلطان ابو سالم
قد رقي عرش الدولة المرينية في مراكش ، قبل ذلك بقليل ،
فأفسحت له هذه الاضطرابات في مجال التدخل المرتقب ، في شؤون

الاندلس . فيبسر لمحمد الخامس امر الخروج من وادي آش ، حيث
كان يعتم ، واطلق سراح وزيره الذي لحق به الى دار غربته
بمراكش . وفي مدينة سلا الساحلية فرغ الوزير للكتابة والتأليف ،
في حين انصرفت همه السلطان الى السعي بسبيل استعادة مملكة
السلب . وانما ساعده على ذلك مساعدة جلي ابن خلدون قاضي
قضاة مراكش ، الذي طارت له بعد شهرة عريضة كمؤرخ .
وكان ابن خلدون هذا المولود في تونس سنة ١٣٣٢ ، قد التحق
بخدمته [السلطان] ابي الحسن المريني ، الذي فتح تونس سنة
١٣٤٧ ، في مراكش . فاقنعه بضرورة التنازل عن حصن رندة
(وكان المراكشيون لا يزالون يحتلون) لبني الاحمر ، ومن هناك
وفق محمد الخامس الى استعادة عاصمته ، غرناطة . وفي الحال تبعه
ابن الخطيب ليتقلد مهام الوزارة ، وينتهي وشيكاً الى غاية مطلقة
من النفوذ والسلطان . وفي سنة ١٣٦١ غادر ابن خلدون مراكش
بعد مقتل السلطان ابي سالم ، قاصداً الى غرناطة ايضاً . وعاش
العالمان العظيمان في تلك الحاضرة ، صديقين حميمين ، طوال سنتين
اثنتين . ولكن التنافس ما لبث ان عكر صفو صداقتهما . وكان
ابن خلدون قد سفر لبني الاحمر لدى بطرّة صاحب قشتالة ،
فاكتسب ثقته ، حتى لقد وعده بطرّة بأن يعيد اليه جميع اقطاعات
اسرته السابقة في اسبيلية اذا ما دخل في خدمته . ولكن
ابن خلدون كان حصبياً ، فلم يخن ملته ووطنه ، حتى اذا بداه
حسد ابن الخطيب قوياً صارخاً آثر التوجه الى افريقية حيث وزر
لصاحب بجاية من بني حفص . وفي الوقت نفسه كان نجم ابن

الخطيب آخذاً في الافول ايضاً . ذلك بانه استغل نفوده العريض
 للأثراء الشخصي ، جرياً على العادة الشائعة في ذلك العصر ، فأوغر
 حساده صدر السلطان عليه . حتى اذا آنس ابن الخطيب تنكّر
 سلطانه له ، تفادى النكبة بالفرار الى سبتة سنة ١٣٧١ متذرعاً
 بحجة القيام بجولة تفتيشية على حصون جبل طارق . وفي مراكش
 استقبله [السلطان] عبد العزيز المريني (١٣٦٦ - ١٣٧٢)
 واكرم وفادته ، وكان ابن الخطيب قد اكتسب عطف السلطان
 بأن ضمن له حياذ عمه وخصومه الطامعين في الملك والمقيمين في
 غرناطة ، يوم ارتقائه العرش . ثم ان القاضي رماه بتهمة الاحساد
 مستنداً في ذلك الى بعض كتاباته ، واستصدر فتوى بقتله ؛
 ولكن عبد العزيز ابني ان يسلمه الى اعدائه . وائياً ما كان فلم يكده
 ينقضي على ذلك عام واحد حتى توفي عبد العزيز ففند ابن الخطيب
 فيه حامياً ونصيراً . وفي غمرة التنازع المحتوم على العرش اشترى
 احد المتصدرين لولاية الاحكام ، ابو العباس المستنصر ، تأييد
 صاحب غرناطة بان وعده بتسليم الوزير السابق اليه . ثم ان تلميذ
 ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، محمد بن زُمُرُك ، المعروف في
 دنيا الشعر ، قصد الى فاس للاشراف على متابعة الدعوى عليه ،
 ولكن ابن الخطيب خنق في سجنه ، قبل ان يُشرع في المحاكمة ،
 على سبيل الانتقام الشخصي . اما منافسه القديم ، ابن خلدون ،
 فكان أسعد منه حظاً . فقد وفق - في خضم السياسة المتقلب ،
 وبين ظهرائي امراء المغرب - الى ان يحتفظ دوماً بمنصب ذي خطر ،
 وذلك من طريق التخلي عن هذا وذاك ، والانسحاب في الوقت

✓

المناسب من سفينة السيامة الغارقة . وفي سنة ١٣٧٨ شرع في تأليف تاريخه العام وهو آمنٌ في قلعة ابن سلامة ، الامير العربي ، في بلاد بني توجين . حتى اذا قضى في هذا العمل اربعة أعوام استهوته خزائن الكتب بتونس فسار اليها ، وهناك فرغ لكتابة تاريخ البوبر . وما عتمت تونس ان نبت به ، فقصدا الى مصر وفي عزمه ان يؤدي فريضة الحج الى الكعبة . ولكنه مكث في القاهرة حيث عهد اليه السلطان بقوق ، [اول المماليك الجراكسة] في التدريس ، ثم في قضاء المالكية . وفي هذا المنصب السامي استطاع ان يقي نفسه غائلة المؤامرات جميعاً . فلما كانت سنة ١٤٠١ خرج في جيش المماليك لقتال المغول ، وعلى رأسهم تيمورلنك ، الذين كانوا يتهددون امبراطورية المماليك بخطر عظيم . ثم انه فاض تيمورلنك هذا في شروط استسلام دمشق . وفي ١٧ آذار سنة ١٤٠٦ اطفأت المنون هذه الروح التي ما فتئت العناية تقيل عثرتها كرةً بعد كرة ، على الرغم من كوارث الزمان المتعاقبة . وكانت بين هذين الوزيرين المتنافسين فروقٌ صارخة في صعيد النشاط الأدبي ايضاً . فابن الخطيب لا يعدو ان يكون ، في الواقع ، أديباً من ادباء ذلك العصر المثقفين ، تتمثل فيه مساوئهم ومواطن ضعفهم على اختلافها . ولعل قارئه لا يجانب شاكلة الصواب اذا زعم أن الاسلوب كان يعني ، بالنسبة اليه ، كل شيء تقريباً . والجدير بالذكر ان ابن الخطيب لم يتكشف عن هذا الاحتفال البالغ بالزخرف في رسائله النموذجية فحسب ، بل في مصنفاة التاريخية الكبرى حيث ينزع في كثير من الاحيان الى

التضحية بصحة الرواية ودقتها على مذبح الصناعة اللفظية . والحق
 ان القرينة التاريخية لا تكاد تعني عنده شيئاً . ففي كتابه الكبير
 عن تاريخ غرناطة * وكتبه التاريخية الاخرى كانت عنايته باخبار
 زملائه الادباء اعظم من عنايته بتصوير مجتمعهم الذي عاشوا فيه .
 اما ابن خلدون فلم تسمح له حياته البالغة الاضطراب بان يفرغ
 للأسلوب ينمقه ويزخره . لقد كان مولعاً بمصاير الدول ومصارعها .
 وليس من شك في ان كتابه عن تاريخ البربر فريد في الادب
 العربي بما هو محاولة لتصوير حياة شعب بكامله في جميع مظاهرها ،
 على اساس الملاحظة الشخصية والدراسة الجاهدة للمصادر . ولكنه
 مدينٌ بشهرته المقدمة التي استهل بها تاريخه العام ، على الخصوص .
 وبينما لا يرتفع تاريخه العام هذا فوق مستوى النموذج الذي وضعه
 الطبري في تاريخه ، نجد ابن خلدون يحاول في مقدمته - التي
 استفاضت ففدت كتاباً برأسه - ان يرسم الخطوط الكبرى لاول
 فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني . ومن الراهن ان الشريعة
 الاسلامية تطغى على آرائه في الدولة والاجتماع طغياناً كاملاً ،
 ولكنه مع ذلك مزج بها عدداً من الملاحظات والاستنتاجات
 الثاقبة ، التي انتزعها من حقبة صاحبة من التاريخ ، عاش جزءاً
 منها في مقام الصدارة والرياسة ، وعاشها كلها وسط تيار الاحداث
 الجاري . والواقع ان الأحكام السليمة الهادئة التي أصدرها حول
 مظاهر العلم الاسلامي والحضارة الاسلامية جميعاً ، في تلك الدراسة
 ذات التصميم المنظم والعرض الواضح ، لم تتيسر لأي من المؤلفين
 * الاحاطة في تاريخ غرناطة .

[المران]

ابن جبير وابن بطوطة

وثمة كاتبان آخران من المغاربة تركا لنا صورتين زاهيتين بالالوان الغنية عن الثقافة الشرقية في عصرهما ، مما لا تستطيع اي حقبة سابقة ان تدلّ بمثله . اما اولهما فابن جبير الاندلسي الذي ولد في بلنسية سنة ١١٤٥ والذي اجر لأداء فريضة الحج سنة ١١٨٣ تكفيراً ، في ما يبدو ، عن شربه الخمر ، بعد ان اجبره على ذلك [ابو سعيد بن عبد المؤمن] صاحب غرناطة ، وكان ابن جبير كاتباً له ، يحضر مجالسه واسماره . ولما كان بحاراه من جزيرة طريف الى الاسكندرية ، ومن ثم بطريق القاهرة والبحر الاحمر الى مكة . حتى اذا فرغ من حجه انقلب الى العراق فالموصل ، فجاب ، فدمشق ، فعكا ، ومن ثم ركب البحر الى صقلية . ولقد كان من حسن طالعه ان تعرّف الى المشرق وهو لا يزال ينعم بالازدهار والامن في ظل صلاح الدين ، فدوّن مشاهداته فيه ، بأسلوب بارع ولكنه خال على كل حال ، من تصنع المحترفين ، من غير ان يتنكر يوماً لثقافته الفقهية . وبالروح المندفعة نفسها ، صور الحضارة الزاهرة التي وجدها في صقلية على عهد غلام الصالح النورماندي ؛ مؤكداً مرة بعد مرة ، في ابتهاج ظاهر ، انها لا تزال اسلامية في المحل الاول . وفي سنة ١١٨٥ بلغ غرناطة بطريق

(٣٩) انظر شميت N. Schmidt, *Ibn Khaldun*, New York, 1930.

وراجع ايضاً جب H. A. R. Gibb in *Bulletin of the School of Oriental Studies*, vol. 7, London, 1933, pp. 23 - 31.

قرطاجنة . ولكن الحنين الى الاسفار لم يلبث ان استبدَّ به بعد
 اربع سنوات فولى وجهه مرة ثانية ، قبل المشرق ، حيث قضى
 عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين غامر في رحلة
 اخيرة الى المشرق ، ولكن المنية ادركته قبل ان يصل الى الاسكندرية .
 وبعد قرن من الزمان سنة ١٣٢٥ هجر ابن بطوطة ، المولود في
 طنجة ، الى مكة حاجاً ، وليس له من العمر غير واحد وعشرين
 عاماً . والواقع ان المشرق استطاع ان يفتن هذا الرحالة الشاب
 بأكثر مما فتن سلفه الذي أفاد ابن بطوطة او روايته من كتابه *
 إفادة غير محتشمة في ما يتصل بوصف المناطق التي زارها كلاً
 الرحالتين ، جرياً مع العرف الادبي الشائع في ذلك الزمان . وانما
 استغرقت اسفار ابن بطوطة نحواً من خمس وعشرين سنة ، فجاب
 [اولاً] أمصار فارس ، وآسية الصغرى ، وشبه جزيرة القرم .
 ومن هناك رافق اميرة يونانية ، هي زوج السلطان أوزبك ، في
 زيارة لابوينا في القسطنطينية . ومن الفراغا (نهر إترل) قصد الى
 الهند ، عبر آسية الوسطى ، فشغل طوال سنتين منصب قاض
 في دهلي (دهلي) . ولقد حاول ان يرافق بعثة سياسية الى الصين
 فلم يتجاوز جزائر [ذبية المَهَل] * حيث استقر سنة ونصف
 سنة تولى في اثنائها القضاء . وبعد ان وفق أخيراً الى زيارة الثغرين
 الصينيين زَيْتُون (تسو - ثونج) وكانتون قفل الى شبه جزيرة
 العرب ، من طريق سومطرة ، ليلبغ فاس ، آخر الامر ، في

* « رحلة ابن جبير »

** Maldive Isles

اعقاب الخريف من سنة ١٣٤٩ . وما هي إلا سنوات ثلاث حتى
خرج في رحلة اخرى الى بلدان الزنوج ، ليستقر بعد ذلك في
مراكش حيث أملى وقائع اسفاره على احد الكتّاب ، تاركاً له
صياغتها اللغوية والبيانية جميعاً . والحق ان احداً من الرحالين لا
يدانيه في سعة استشرافه العالمي غير معاصره ، ماركو بولو ،
البندقيّ الذي كان أسنّ منه ، بعض الشيء ، والذي عهد الى
كاتب له في اخراج مذكراته اخراجاً أدبياً . وانما يؤلف كل من
هذين الأثرين تسمية سالحة للاخر ، في ما يتصل بمعرفتنا بأسية ،
لان الرحالة البندقيّ وُفق الى ان يقدم لنا حقائق عن الشرق
الاقصى أصح بكثير من تلك التي تسنى للرحالة المراكشي إيادها ،
في حين عرّض هذا الاخير من ذلك النقص بما كان له من معرفة
أوثق بالاحوال الثقافية في العالم الذي وصفه . إن احداً منها لم
يكن عالماً جغرافياً ، ولكن معلومات الرحالة المسلم الطوبوغرافية
أوثق وأجدر بالاعتماد من تلك التي نجدها في رحلة زميله النصراني .
ولم يسمح ابن بطوطة لنفسه بان يُخدع ، من طريق النقل عن مصدر
ادبي ، إلا في وصفه «لأرض الظلمات» ، بسبب من انه اطّرح ، في
جنوبي روسيا ، فكرة الرحلة الطويلة الشاقة الى ارض البلغار ،
الذين كانوا لا يزالون ، آنذاك ، ينزلون على ضفاف الفولغا الاعلى .

الجزء

واحتفظت الفنون والصنائع بمستواها الرفيع في دولة بني ندر
حتى ايامها الاخيرة ، واصبحت اساساً لثروة البلاد وغناها ، فنص
بالذكر منها صناعة المعادن التي بلغت درجة من الدقة والكمال

عظيمة . وبحسبنا دليلاً على ذلك ان آخر آثار العمارة الاسلامية في الاندلس واكثرها فخامة ، أعني حمراء غرناطة ، إنما سُيِّدَ في عهد تلك الدولة . والواقع ان الجبل المشرف على المدينة كان يُقَلَّ قلعة في عهد الامويين ، ولكن تشييد قصر الحمراء الشهير بدأ ، اول ما بدأ ، في عهد محمد [الاول الغالب من بني نصر] ، ليتنافس أعقابه من بعده ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، في بناء قاعدة ملكهم . ولم تُصنَع الحجارة والآجر في بناء الحمراء إلا قليلاً . فهو في معظمه مشيد من حجر صناعي خاص مركب من التراب والكلس والحصى . وتتصل عقودُه وقبابه وسقوفه بعضها ببعض اتصالاً رفيقاً بواسطة ألواح وقضبان من الخشب . ولم يصل البناء على الاطلاق من نماذج هذه الطريقة الفنية الخاصة التي نشأت أول الامر في الجزيرة الفراتية من غير شك ، وذلك بسبب من ضعف المواد البنائية وعدم ثباتها على مدى الايام . وإنما يحيط برابية القلعة سورٌ مستديرٌ تعلوه شرفات حصينة ، وقلاع عديدة تقيه غائلة العدوان . وفي داخل السور ينهض القصر ، تحيط به جنات متوامية الاطراف . وثمة ساحتان تؤديان من هذه الجنات الى البناء الداخلي . وفي الجنوب تطالع الزائر ساحة الرياحين التي تؤدي الى البرج العظيم وقاعة السفراء في الشمال . والجزء الجنوبي الشرقي من ساحة الرياحين يتصل بدار الاسود التي تقود مباشرة الى قاعات الحكم ؛ والتي تقود من جهة اليمين - الى دار ابن سراج ومن جهة اليسار الى قاعة الاختين . والواقع ان ساحة الرياحين سميت كذلك لان

قوارير الرياحين تحيط بقسم منها بكامله . أما دار الاسود فمدينة باسمها للاسود التي تقلّ البركة في وسطها، حيث تلتقي مجاري المياه الممتدة من الجانبين . وتردان واجهات دار الاسود بتصاوير تمثل مشاهد فروسية وطرده ، فضلاً عن عشرة امراء متكئين ، جنباً الى جنب ، على أريكة عريضة . « ولقد فرشت الأرض بمربعات من الرخام الابيض . وعلى طول الاجزاء الدنيا من الجدران تنتشر طبقة من قطع القاشاني الملون ، يبلغ ارتفاعها نحواً من اربعة اقدام . اما الاجزاء العليا من الجدران فقد كسيت بالجص ، وامتد فوقها افريز ملاصق للسقف ؛ وكان ينبثق ، من فوق ذلك ، السقف المتدلّي ، تدعمه احياناً اعمدة صغيرة نصفية ، وهو يتألف من قطع من الخشب مرصوفة في طبقات وخالايا مصنوعة من الجص . ولقد قامت على دعائم ناتئة من الجدران اساطين من الرخام انيقة السبك تعلوها تيجان متنوعة الاشكال استقر عليها السقف وتخللتها قناطر خشبية مطلية بالجص . والشكل الغالب على هذه القناطر هو الشكل نصف الدائري المرتفع الذي يشبه نعل الفرس شبيهاً ضئيلاً . ولكن هذه القناطر كثيراً ما كانت تبدو على هيئة الأقواس المحددة بسبب من الجص الذي كسيت به . ولقد أقيمت في الجدران فجوات عميقة المدى متباينة الأحجام ، فأما كبرها فكانت مغطاة بالوسائد فهي مواطن تلتبس فيها الراحة ، واما صغرها فكانت تقل أباريق الماء . وانتشرت فوق اقسام القصر جميعاً ، فوق الجدران والسقوف والاعمدة والأروقة والفجوات ، ضروب من الزخارف المترفة . وصيغت قطع القاشاني

بأشكال هندسية غريبة متنوعة ، وُنقش الرخام اشكالاً اشكالاً ،
 وُصوّر الجصّ في آلاف وآلاف من الخطوط المنحنية البارزة
 ليُمثل رسوماً من مختلف الأنواع - نجومياً ، ومُشتمات ونباتات
 متباينة . ولقد أُرِفَقَ هذا كله بعدد هائل من النقوش الحُطية
 امتدت على طول الأفريز ، والتفتّ حول القناطر والنوافذ
 والفجوات او التفتّ في طغراآت نُثرت نُثراً متناسقاً وزخرفت
 على المنوال نفسه . وكثيراً ما تراءت هذه الطغراآت ، لغير اهل
 الصناعة ، مجرد خطوط هندسية . وهذه النقوش ، بخلاف نقوش
 البناء الاخرى ، لا تواجه الناظر بمقائق واضحة ، ولكنها تخاطبه
 بأبيات من الشعر الخيالي ، او من الوصف الهاديء الذي يميّز
 الشعر الاندلسي . ويبلغ الوقع الذي يتركه جمال هذا القصر في
 النفس حد السحر عندما تتجلى امام الناظر الصور العديدة الرافلة
 في غلائل من الذوق الجميل . ولقت سُفجّت على غرف القصر
 كلها أسنى الالوان واروعها في سخاء بالغ ، وامراف عجيب .
 وكانت الغلبة في الاجزاء العليا من القصر للألوان الحمراء القانية
 والألوان الذهبية والزرقاء ، لعظيم اثرها في العين والنفس ، في
 حين طغت في الاجزاء الدنيا منه ألوان البنفسج والارجوان
 والبرتقال . ولقد حُلِيت المربعات الرخامية البيضاء التي فرشت
 بها ارض القصر بمختلف الألوان ، على ما يستفاد من مختلف
 الآثار الباقية ٤٠ . »

(٤٠) اقتبس المؤلف هذا الوصف من Von Schack

سقوط بني الاحمر واخراج المسلمين من اسبانية

وفي سنة ١٤٧٩ عزمت ايزابل الكاثوليكية ، بعد ان تمّ اتحاد مملكتي قشتالة و ارغون نتيجة لزوجها من فرديناند الثاني، على ان تقضي نهائياً على بني الاحمر وتخرج المسلمين جميعاً من ارض الاندلس . وكان في الشقاق المتصل الذي شتت شمل هذه السلالة الاسلامية ما ساعد ايزابل على انفاذ عزمها ذلك . فقد ثار على ابي الحسن [علي] ، آخر أمراء غرناطة ، كلٌّ من ولديه ابي عبد الله محمد^{٤١} ، و [أبي الحجاج] يوسف . وفي هذا الصراع الذي وثق ابو عبد الله في ختامه الى احتلال غرناطة ، تدخل فرديناند زوج ايزابل بلباقة ودهاء . وبعد ان انتزع من العرب بعض المدن الصغرى التي دافعوا عنها ، احياناً ، في شجاعة بالغة ، استسلمت له غرناطة ، اثر حصار متطاوول ، في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وأعطى ابو عبد الله ، باذي الامر ، ضيعة نزل فيها فترة من الزمان ، ولكنه لم يلبث ان هجرها ، الى فاس ، حيث قضى ايامه الاخيرة . ثم ان ديوان التفتيش أكره من بقي من المسلمين في اسبانية على اعتناق النصرانية ، غير عاينء بما نصت عليه شروط الاستسلام . ولكن جموعاً صغيرة منهم جازت الزقاق الى مراكش ، فزهت على ايديهم حضارتها ، وانتشرت انوارها في الاقاليم الجنوبية .

(٤١) ويدعوه الاسبان Boabdil

الشرق - الأدهنى فى عهد الصليبيين وقيام دولة المماليك بمصر

تركنا تاريخ الشرق ، بعد وفاة السلطان محمد ، وقد تداعت
امبراطورية السلاجقة الى السقوط . والواقع ان قوة جديدة كانت
قد ظهرت فى سورية قبل ذلك فتناحست مع امراء الاتراك
واتابكتهم فى تجزئة اراضي الخلافة السابقة ، أعني الصليبيين .
وليس ههنا مجال الكلام على اهمية الحروب الصليبية بالنسبة الى
اوروبية . اما بالنسبة الى العالم الاسلامي فقد كان الفرسان النصارى
مجرد منافسين مزعجين للاتراك ينازعونهم السلطان على سورية ،
ولكن تألبهم الشديد المستمر على بيت المقدس الذي يعدّه المسلمون
ارضاً مقدسة ايضاً هو الذي خلغ على النضال ضدهم ، فى ظل
صلاح الدين على الاقل ، صبغة دخيلة من التعصب الديني . يدلك
على ذلك ، فى المجل الاول ، ما نشأ فى تلك الفترة من مؤلفات
شعبية توسلت بمغازي الرسول وصحابته الى اذكاء روح الجهاد
والتضحية فى صدور الجند المكافحين عن الاسلام .

الصليبيون في سورية

عندما ظهر الصليبيون الأوّل في سورية ، بقيادة غودفري دي بويون * وجمهرة من الزعماء الفرنسيين والنورمانديين ، كانت البلاد مُنجمّة بين عددٍ من الامراء السلاجقة المُحتصين المتناحرين ؛ ومن هنا لم يخفّ احدٌ منهم لنجدة الامير الذي قدّر له ان يتلقى الضربة اولاً ، وهو ياغي سينان صاحب انطاكية . وكان يحمي انطاكية نطاق قويّ من الاسوار الممتدة على طول الروابي المجاورة ، فتناول حصار الصليبيين لها لتسقط بعد ذلك في أيدي الفرسان المهاجمين ، بجنيانة [أحد المستحفظين للإبراج] . وكانت القدس قد انتقلت ، في الوقت نفسه ، الى حوزة المصريين ، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن اضطروا الى التخلي عن المدينة ، في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ ، من غير ما مقاومة جدية . ومن انطاكية بسط الصليبيون سلطانهم على شمالي سورية ؛ وكان بغدوين ^{٤٢} الاول قد انس قبل ذلك إمارة في الرّهاء ، سنة ١٠٩٨ . حتى اذا توفي غودفري دي بويون سنة ١١٠٠ ، وكان قد انتخب ملكاً على القدس ، رقي العرش من بعده بغدوين الاول ، هذا . وفي سنة ١١٠١ عهدَ الى القومص (الكونت) ريموند دي تولوز * في ان يفتح طرابلس الشام ، لتكون قاعدة لامارة جديدة ، ولكن تلك المدينة المشرفة على

* جاء اسمه في المصادر العربية مصحفاً على صورة « كندفري » في ابن القلانسي ، « ذيل تاريخ دمشق » (بيروت ، ١٩٠٨) ص ١٣٨ [المرعبان]

Baldwin I (٤٢)

** « ريموند » في المصادر العربية . وعرف ريموند هذا عند العرب بصنجيل . (بفتح الصاد وكسر الجيم) [المرعبان]

الهضاب الحصبة ، لم تسقط في ايدي النصارى الا بعد حصار دام
ثلاثي سنوات ، توفي ريموند اثناءه ، سنة ١١٠٥ ، في الحصن الذي
اشتهر لتطويق البلدة على الجبل المقابل لجبل صنجيل * . ثم إن
الصلبيين احتفظوا بطرابلس مئة عام .

آل زنكي في الموصل ودمشق

فلما كان الربع الثاني من القرن الثاني عشر اعترض الاسلام ،
الذي انهكت قواه منازعات السلاجقة على السيادة في سورية ،
بسلالة عرفت كيف تشق طريقها الى الصدارة ، وكيف تحشد
قوى المسلمين جميعاً ، لمدة قصيرة من الزمان على الاقل ، في نضال
عنيف ضد النصارى . وتفصيل ذلك ان الموصل كانت قد خضعت
منذ سنة ١١٢٧ لعهاد الدين زنكي ، التركي ، وكان في اول امره
اتباعاً ، اي مؤدباً ، للاميرين السلجوقيين ألب ارسلان وفرخشاه .
وكان عماد الدين جندياً بارعاً وسياسياً لبقاً . بل كان فوق ذلك
ادارياً ممتازاً ، فوفق بهذه الصفات التي اجتمعت له الى توسيع
رقعة سلطانه ، شيئاً بعد شيء ، حتى اذا توفي سنة ١١٤٦
كانت هذه الرقعة تنتظم كامل الجزيرة الفراتية تقريباً حتى الشمال ،
حيث كان الأرثوذكسيون لا يزالون يحتفظون بـماردين وجزء كبير
من سورية . وكان عماد الدين رؤوفاً برعيته معنياً بمصالحها . حتى
اقتد دعاه السكان ، غير مرة ، الى ان ينصرهم على جلادهم السابقين .
وساد العدل في أيامه واطمأن الناس الى سلامتهم الشخصية ،

* نسبة الى St. Gilles وبني هذا الحصن على شفا الجرف فوق نهر
ابي علي (قاديشا) [العربان]

بعد أن أتى على تلك البلاد حين من الدهر عدم فيه الناس الثقة والامن . فلقد كان ما حول المسجد الجامع في المدينة قاعاً صفصفاً ، عند ارتقائه العرش ، فاذا به عند وفاته ميدان مكثظ بالمباني العامرة . وليس من شك في ان اعظم ما تبه ، وآخرها ، انتزاعه الرهاء ، سنة ١١٤٤ ، من ايدي الفرنجة الذين سيطروا عليها نحواً من نصف قرن . وفي غمرة من هذا النصر استشعر عماد الدين الخطر على دولته من مؤامرة كان بطلها ولي نعمته الامير ألب ارسلان السلجوقي نفسه . حتى إذا قضى على الفتنة في غير مشقة ، قُتل بيد [جماعة من مواليه اغتالوه ليلاً] في ١٥ ايلول سنة ١١٤٦ أثناء حصاره قلعة جععبر ، على الضفة اليسرى من الفرات الاوسط ، وكانت في حوزة الدولة العُقَيْلِيَّة .

واقسم ابنا عماد الدين الارشدان مملكته فيما بينهما ؛ والحق ان احتفاظ هذه المملكة بوحدها ، في وجه من تألب عليها من الاعداء ، كان أمراً عسيراً . فأما اكبرهما ، سيف الدين غازي ، فاستولى على الموصل والجزيرة حتى الحابور ، محتفظاً لنفسه بلقب الأتابك . وأما اصغرهما ، نور الدين محمود ، فاستولى على سورية ، متخذاً من حلب قاعدة حكمه . والواقع ان نور الدين ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل الى حد بعيد جداً . فبينما كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال اجيال عدة ، يعتبرون ممالكهم إقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة ، كان هو أول من استشعر انه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالادارة البارعة

والتي لم تثقل كاهل وعيته على كل حال ، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاهر بالاعداء - وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة - فحسب ، بل انفقها في المحل الاول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا * الدراويش ، وخانات المسافرين ، والمستشفيات ، ودور العلم . ولقد أنشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم ، والبيارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه ، والذي لم يلبث أن نما وتطور الى مدرسة طبية راقية . ودفن نور الدين في المدرسة المعروفة باسمه .

وكانت سياسة نور الدين الخارجية تهدف قبل كل شيء الى طرد الفرنجة . وكان القومص (الكونت) جوسلين^{٤٣} الثاني قد أعاد فتح الرهاء ، بعد وفاة عماد الدين مباشرة ، بمساعدة السكان المسيحيين ، ومعظمهم من الارمن . فلم يكن من نور الدين إلا ان انتقم من الخونة في حملة تأديبية مخيفة صرع فيها جميع النصارى تقريباً . ومهما يكن من شيء فقد بعث سقوط الرهاء فكرة الحرب الصليبية في اوروبا ، من جديد . ووجد البابا اوجانيوس الثالث^{٤٤} مبشراً ملهباً للشاعر وداعيةً بليغاً الى النضال ضد المسلمين ، في شخص القديس برنار^{٤٥} فاذا بملك فرنسا لويز السابع ، وكونراد الثالث [ملك الالماني] يستجيبان لدعوته سنة ١١٤٦ . ولكن جيوشها مُنيت ، حتى في تقدّمها الى المجر ، بخسائر قاصمة ، بسبب

[المرغان]

* وتسمى ايضاً « تكايا »

Jocelin II (٤٣)

Eugene III (٤٤)

St. Bernard de Clairvaux (٤٥)

من الجوع والمرض اللذين فتكا بها فتكاً ذريعاً ، فلم يصل منها الى الارض المقدسة إلا فلول هزيمة مُتْعَبَة . ومع ذلك فقد وطن الصليبيون عزيمهم ، هناك ، على ان يشنوا هجوماً جديداً على المسلمين ، متجهين بأنظارهم نحو دمشق اولا . وكان يحكم دمشق آنذاك مملوك يدعى مُعِين الدين أَنْرَ من قِبل مُجِير الدين آبَق البُورِي ، الذي يرقى نسبه الى احد اتابكة السلاجقة . فلما ظهرت الجيوش الصليبية أمام ابواب المدينة التمس المملوك النجدة من نور الدين ، ولكن الفرنجة اضطروا الى رفع الحصار قبل أن تتقدم جيوشه من دمشق . والواقع أن الشقاق الذي دبّ في صفوف الصليبيين لم يلبث ان افسح لنور الدين في مجال الهجوم . ذلك بأن ريموند ، قومص طرابلس ، استشعر الخطرَ يتهدهه من حصن عَرِيْمَة الذي في حوزة القومص برتراند دي تولوز^{٤٦} فاستعدى عليه كلا من نور الدين و مُعِين الدين اللذين هرعا لنجدة ، فدكت جيوشها حصن عريمية دكاً ، وحملت ريموند أسيراً الى حلب . وانقضت عدة سنوات لم تحدث خلالها غير مناوشات ثانوية بين المسلمين والفرنجة . وإنما ظهر لنور الدين ، في هذه الاثناء ، أن من العسير عليه ان يطمئن ، بعدُ ، لمجير الدين الذي كان يخشى تعاضم سلطان نور الدين باكثر مما كان يخشى الفرنجة بعد ان تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، واصطرت إماراتهم الصغيرة وتناحرت . فلم يكن من نور الدين الا أن وضع حداً لحكم مجير الدين هذا ، في نيسان سنة ١١٥٤ ، واقطعه باديه الأمر حمص ، ثم [عوّضه منها] ببلدة أصغر تدعى

Bertrand de Toulouse (٤٦)

بالس ، فلما كانت سنة ١١٥٨ اوشكت هذه المناوشات الصغيرة ،
الدائرة في الدرجة الاولى حول محور الاستيلاء على قلعة حارم بين
أنطاكية وحلب ، أن تتحوّل لأول مرة تحوّلًا خطراً ، وذلك
عندما سار امبراطور بيزنطة ، مانيوال الأول (كومنينوس) ،
الى سورية ليقص من الأمير رينولد صاحب أنطاكية الذي اجترأ
على غزو قبرس . ولقد كان بغدوين الثالث على أهبة التحالف
مع الامبراطور ضد نورالدين ، ولكن نورالدين عرف كيف
يُفسد على بغدوين خطته ، من طريق التفاهم مع البيزنطيين الذين
كان من همهم ، في المحل الاول ، أن يصونوا حدود مملكتهم ،
مؤثرين العافية على التورط في مغامرات جديدة .

الدولة الأيوبية

وكانت تعمل في خدمة عماد الدين وابنه نورالدين عشيرة
كردية قدّر لها ان تبلغ من القوة شأواً مكنها ، بعد ، من القضاء
على السيادة التركية في الشرق الادنى . وتفصيل ذلك أنه كان
لشاذي الكردي ولدان استهلا حياتهما السياسية في العراق .
وكان أيوب ، وهو اكبرهما سناً ، حاكماً على مدينة تكريت
من قبل الخليفة العباسي . ولكن اشتراك أخيه شيركوه في
حادث من حوادث الاغتيال اضطر الأسرة الى الهجرة . فاما
شيركوه فالتحق بخدمة عماد الدين زنكي ، واما أيوب فالتحق
بخدمة [مجيرالدين آبق بن محمد] البوري أمير دمشق . وعندما
هاجم نورالدين دمشق كان أيوب على رأس حاميتها ، في حين كان
شيركوه يقود القوات المحاصرة . ومهما يكن من امر ، فقد اجتمع

الاخوان اجتماعاً ودياً . ثم ان نورالدين عيّن أيوب حاكماً على دمشق ، واقطع شيركوه حمص ، حيث حكمت ذريته طوال قرن من الزمان . أما شيركوه نفسه فقد قدّر له ان يبرز في ميدان اوسع وارحب .

وكانت مصر تتخبط في هذه الاثناء في دجاجير الفوضى والاضطراب . فلم يكد العاضد [لدين الله] آخر الخلفاء الفاطميين ، يرتقي العرش سنة ١١٦٥ حتى اغتيل الوزير طلائع بن رزيك الذي استطاع ان يُقر السلام في البلاد ، فترة وجيزة ، بعد ان مزقت شملها الفتن العسكرية . وفيما حرم الخليفة نفسه جميع اسباب القوة ، تقريباً ، نشب الصراع بين رزيك ابن الوزير القتيل وخلفه في الوزارة ، وبين شاور ، الذي سبق لطلائع ان عينه حاكماً على مصر العليا ، فاتخذ من قوص قاعدة لحكمه . ذلك بان الوزير الجديد حاول ان يزل الحاكم الطموح ، فاستجر بينها قتال كتب النصر فيه لشاور . (كانون الثاني سنة ١١٦٣) ولكن أبناء شاور هذا ما لبثوا ان اساءوا اصطناع السلطان الذي تم لابيهم ، إساءة شائنة ، فلم يكن من احد قواده ، واسمه ضرغام ، إلا ان خلع طاعته ، بالتواطؤ مع الخليفة ، في شهر آب من السنة نفسها . والواقع ان شاور اضطر الى ان يخلي له الميدان ، من غير مقاومة ، ليلتمس اللعون من نورالدين ، بدمشق . فعهد نورالدين في هذه المهمة الى شيركوه حاكم حمص . وفي نوار سنة ١١٦٤ هزمت الجيوش الشامية المجربة المرتقة الفاطميين ، وأعدت شاور الى منصبه في القاهرة . ولكن الخلاف بين شاور وشيركوه

ما عم ان أطلع رأسه ، فلم يتورع شاور عن استنفار
الملك أملاك ، صاحب القدس ، على الرجل الذي هرع
لنصره ، يوماً . وطوق الفرنجة شيركوه في بلبليس ولكنهم
عادوا فمنحوه حرية الانسحاب الى سورية ، بعد ان وجدوا انفسهم
في الشمال ، مهددين بسقوط قلعة حارم في يد نور الدين . وبعد
ثلاث سنوات يتم شيركوه شطر مصر ، كرهة اخرى ، ولكنه
أكره هذه المرة ايضاً على الانسحاب بعد ان احرز فوزاً مبدئياً
مؤزراً ، بسبب من تطويق شاور وأحلافه الفرنجة لابن اخيه
صلاح الدين بن ايوب ، في الاسكندرية ، وعجز المدينة عن الصمود .
والحق أنه تعين على مصر ان تدفع ثمن هذه المساعدة الفرنجية
غالباً . فقد طالب الفرنجة ، بأن تقيم حامية منهم في مصر ، وبأن
يكون لهم في القاهرة مقبم أو مفوض سام ، فضلاً عن جزية
ضخمة تؤدى اليهم . فكانت هذه المطالب سبباً في ازمة لم تلبث
ان وقعت بين المتحالفين ، فحاصر الفرنجة شاور في القاهرة . وهنا لم
يجد الخليفة العاضد بدءاً من الاستنجد بنور الدين الذي أرسل شيركوه
الى مصر للمرة الثالثة ، على الرغم من ان شاور كان قد وفق ، في
تلك الاثناء ، الى ان يحمل الفرنجة على الانسحاب مضرماً النار في
الفسطاط ، بعد ان عجز عن الاحتفاظ بها . حتى اذا حاول ان
ينقض التزاماته نحو السوريين للمرة الثانية دعاه صلاح الدين ونفراً
من المتقدمين في الجيش للمفاوضة عند ضريح الامام الشافعي ،
وهناك بطشوا به في ١٨ كانون الثاني سنة ١١٦٩ . ثم ان العاضد
استوزر شيركوه ، فوزر له شهرين اخروته المنون بعد انقضائهما ،

فخلفه صلاح الدين في هذا المنصب وتلقب بالملك الناصر ، في حين
ثبته نور الدين قائداً للجيوش السورية .

صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر

ووفق صلاح الدين ، بعزيمته الراسخة وموهبته الديبلوماسية
النادرة ، الى أن يثب من غمرة هذا الوضع الحرج الدقيق الى قمة
من القوة والسلطان لم ينهه الى مثلها احد من امراء الاسلام منذ
عهد طويل . ولقد تعين عليه باذني الرأي ان يتخلص من العناصر
الزنجية العاملة في جيش الفاطميين لعدم اطمئنانه الى ولائها . وفي
الحال ادرك الفرنجة أي خطر يتهددهم اذا ما ولي الاحكام في مصر
سلطان مرهوب الجانب ، فالتمسوا الأمداد من أوروبا . والواقع
أن اسطولاً بيزنطياً وجيشاً من جنوبي ايطالية ما لبثا ان ظهرا
امام ساحل دمياط . عندئذ استجد صلاح الدين بنور الدين فوجه
اليه قوات جديدة على رأسها والده ، ايوب . حتى اذا تطاول
حصار دمياط ، وعجز البيزنطيون عن الحصول على حاجاتهم
الضرورية الا بشق النفس ، قنع أملاك من الغنيمة بالاياب على ان
يُعطي مبلغاً معيناً من المال . والراجح ان صلاح الدين لم يكن في
حاجة قط ، الى اشارة من نور الدين لسكي يقدم على خلع آخر الخلفاء
الفاطميين . ومهما يكن من شيء ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة
للخليفة الفاطمي ، سنة ١١٧٢ ، وشرع منذ ذلك الحين يخطب
لخليفة بغداد العباسي . وما هي الا فترة ، حتى توفي العاضد . ومع
ان صلاح الدين لم يصطنع القوة في كبت النفوذ الشيعي فقد
خسر الشيعة سنادهم الطبيعي بسقوط الدولة الفاطمية ، لتنتشر

رأية السنة فوق ربوع مصر كلها في وقت قريب .
وكان طبيعياً أن يتطرق الى نفس نور الدين الشك في صحة
ولاء صلاح الدين له ، بعد الذي رآه من تعاظم قوته واتساع
سلطانه . فلم يكد الفرنجة ينسحبون من مصر حتى تطلع صلاح
الدين الى فتح فلسطين توطيداً لمركزه في مصر ، شأن القوى التي
حكمت بلاد النيل ، خلال التاريخ ، ورأت من واجها ان
تسيطر على هذه الرقعة من الشرق . وفي سنة ١١٧٢ احتل ميناء
أيالة على البحر الأحمر كقاعدة لأعمال الفتح هذه . حتى اذا
رغب نور الدين في ان يثبت قدميه جنوبي فلسطين ، وطلب اليه
ان يمدد بالجند لفتح قلعتي الكرك والشوبك الصليبيتين الواقعتين
شرقي نهر الاردن ، تعلق بأن اضطراب الحال في مصر لا يساعده
على أداء هذا الواجب . وكان نور الدين قد بدأ يحشد الجيوش ابتغاء
تأديب تابعه المتخلف عن نجدته ، ولكنه عاد ورضي عنه مرة أخرى
بعد ان كاتبه صلاح الدين وتلطف له وتذلل امامه . وعندما شغل
صلاح الدين بأخماد ثورة جديدة شبت نارها بمصر سنة ١١٧٢ عزم
نور الدين على مهاجمته ، ولكن الموت لم يمهله ففقد في دمشق ، في
١٥ نوار من السنة نفسها .

ومع أن ابنه اسماعيل كان لا يزال في الحادية عشرة من عمره
فقد بويبع بادىء الامر بالملك ، من غير معارضة ، متخذاً لنفسه
لقب الملك الصالح . والواقع أن صلاح الدين نفسه كان في جملة
من بايع اسماعيل هذا ، واعترف به . ولكن ابن عمه سيف الدين
غازي ، صاحب الموصل ، الذي كان قد دخل بجيوشه المناطق

التابعة لنور الدين رغبة في إعانته على معركة مصر ، واصل احتلاله
 لمدن الجزيرة التي كان قد دخلها . واذ رأى الاوصياء على
 اسماعيل انفسهم مهددين في الوقت نفسه من الفرنجة ، قبلوا بالتخلي
 عن الاراضي التي انتزعها سيف الدين وانسحبوا مع الملك الصغير
 الى حلب ، حيث املوا أن يكونوا في مركز افضل للدفاع عنه .
 ومهما يكن ، فقد كان مركز صلاح الدين في ارض الكنانة
 مهدداً بالاختار ما بقيت سورية منفصلة عن مصر ، وذلك لقرب
 الدويلات الصليبية منها ، بصورة خاصة . فلما توفي املاك ملك
 القدس استراح صلاح الدين من خصم خطر ، وكان قد تم له قبيل
 ذلك النصر على نورماندي صقلية الذين هاجموا الاسكندرية باسطولهم .
 وتظاهر صلاح الدين بالاخلاص للملك الصالح اسماعيل ولمصالحه ،
 فوجه اللوم الى اوصيائه لنزولهم عند رغبة صاحب الموصل [بالتخلي
 له عن الاراضي التي احتلها] ، وتقدم بجنوده الى ابواب دمشق ،
 متذرعاً بالدفاع عن حقوق اسماعيل الشرعية فيها . حتى اذا احتل
 المدينة ٤٧ ، فاوض الاوصياء على اسماعيل في الصلح . واذ كان
 اولئك الاوصياء غير مطمئنين الى نيات صلاح الدين - وكانوا في
 ذلك على طرف الصواب - فقد آثروا التماس المعونة من الفرنجة .
 فلم يكن من صلاح الدين إلا ان آذنههم بهجوم حاسم ، فاحتل حماة
 وحمص ، وفي اعقاب سنة ١١٧٢ حاصر حلب . بيد انه اصطدم هنا بمقاومة
 باسلة . من اجل ذلك اقترح على خصومه ان يشجب هو من حماة وحمص على
 أن يقروه حاكماً على دمشق من قبل اسماعيل . حتى إذا رفض اقتراحه

(٤٧) اما القلعة فاستسلمت بعد ذلك بيضعة اشهر .

هذا، هاجم جيوش اسماعيل وسيف الدين بجمعة ، في حماة ، فهزما
 هزيمة منكرة ، ومن ثم حاصر اسماعيل في حلب ، ككرة ثانية ،
 واكرهه على عقد صلح يجعل سلطانه قاصراً على تلك المدينة
 وحدها . واتخذ صلاح الدين ، في الوقت نفسه ، لقب السلطان ،
 وأقره الخليفة على ذلك وبعث اليه بجمعة مع احد الخوارج .
 وكان قائد حلب قد أغرى احد الحشاشين بقتل صلاح الدين ،
 اثناء حصاره الاول لهذه المدينة ، ولكن القائد الكبير نجح بما أُبت
 له باعجوبة . ذلك ان زعيماً جديداً من زعماء الباطنية وفق بعد
 سنة ١١٦٩ الى ان يعيد تنظيم هذه الجماعة الخفية في سورية جاعلاً
 من قلعة مصياد ، على السفوح الشرقية من جبال النصيرية ،
 مقراً له اذ منع من عقاب الجور . وكان هذا الزعيم يدعى رشيد الدين
 سنان ويعرف بشيخ الجبل . فلما عُقد صلح حلب ، بدأ صلاح
 الدين ان يتغلب من هذه الجماعة ، ولكنه لم يلبث ان رفع الحصار
 عن قلعته ، وعقد مع رشيد الدين صلحاً احترامت نصوصه ، في
 شهامة وشرف ، حتى وفاة الشيخ .
 وكانت سلطة صلاح الدين لا تزال بعيدة عن الثبات في سورية
 عندما حاول ، في سياسة من النظر البعيد ، ان يمتدح حكمه في
 مصر بالسيطرة على مفتاح للبحر الاحمر الجنوبي ايضاً . فوجه اخاه
 توران شاه الى هناك ، سنة ١١٧٣ ، وكانت السلطانان المسيطران
 على قلك الديار - وهما الحمدانية في صنعاء والندجانية في زريند -
 قد أزيلتا على يد احد الخارجين المتعصبين . وتفصيل ذلك انه ظهر
 في تهامة ، حوالي سنة ١١٥٩ ، رجل زعم انه المهدي - كما زعم

آخرون في التاريخ الاسلامي - وهم كثير - فتبعه بعض الاعراب
واستولى على زبيد . واحتفظ حفيده عبد النبي ، الذي خلفه سنة
١١٦٢ ، بمر كره احد عشر عاماً . وليس من شك في ان سادة
صلاح الدين قد اعتبروا القضاء على هذا المغتصب الملحد عملاً يرضي
الله . وأياً ما كان ، فلم تكد الحملة المصرية تنجز مهمتها ، في غير
مشقة او عسر ، حتى خلع توران شاه سائر الامراء في صنعاء ، ومن
ثم حكم هو واعقابه البلاد ، حتى سنة ١٢٢٨ ، كتابعين لذوي
قرباهم الايوبيين في مصر .

حطين وفتح القدس

وكان الصليبيون يعدون ابدأ على تخوم المناطق الخاضعة
لصلاح الدين في سورية . ولقد حاول ان يقف تقدمهم في جنوبي
فلسطين ، ولكنه مني بهزيمة شنعاء عند الرملة . ولم يستطع صلاح
الدين ان يثار لنفسه من الصليبيين إلا بعد سنتين ، إذ كتب له
النصر في مرج عيون . حتى اذا عقد الصلح أفاد منه صلاح الدين
أحسن الافادة عاملاً على توطيد سلطانه وتوسيعه في شمالي سورية .
وفي سنة ١١٨١ توفي اسماعيل ، أمير حلب ، مستخلفاً من بعده
ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل . ولكن عز الدين هذا آثر
ان يترك حلب لأخيه زنكي الثاني لقاء تنازل هذا الاخير له عن
جبال سنجار المتاخمة للممتلكات التي ورثها عن اسلافه . وقبل ان
يثبت الحاكم الجديد قدميه في حلب ، احتل صلاح الدين اراضيه .
وفي السنة التالية هاجم بلاد الجزيرة وأكره عز الدين على الدخول
في طاعته .

و الواقع ان الصالح الذي عقد مع صلاح الدين ، والذي كان
في دي لوسينيان خليفة بغدادين الخامس على عرش القدس ، حريصاً
على إدامته ، كثيراً ما نقضت احكامه بسبب من تمرد الامراء
التابعين له وعدم تقيدهم بأوامره . فكان راجينالد دي شاتيون
أمير الكرك لا يني بوقع بقوافل الحجاج وقوافل التجارة من
حصنه القائم في البلقاء (مؤاب القديمة) شرقي البحر الميت ، فوق
الجرف المسيطر على طريق للقوافل من دمشق الى الحجاز ، ومن
دمشق الى مصر ايضاً . ولم يعد في استطاعة صلاح الدين ان يغض
الطرف عن هذا كله ، فعزم في اوائل سنة ١١٨٧ على ان يبطش
بالمعتدين بطشة كبرى . ثم انه امر قواته السوية بالاحتشاد في
حارم ، ليسيروا الى منطقة الكرك فيلتقي هذه القوات عند بحيرة
طبرية . عندئذ حشد ملك القدس جيشاً عظيماً من الفرسان في
صفورية . وبدلاً من ان ينتظر هجوم صلاح الدين ، في هذا الموقع
الستراتيجي الصالح ، نازعته نفسه الى ان يهاجم المسلمين في اتجاه طبرية ،
وكانوا قد احتاوها ، فالتقى الفريقان في سهل مرتفع الى الغرب من
البحيرة ، صعب كثير الحجارة عديم المياه هو سهل حطين . وهناك
انزل صلاح الدين بالجيش الصليبية هزيمة قاضية ، وأسر ملك القدس
نفسه . ومن ثم تساقطت حصون الصليبيين بعد ان اخلتها حامياتها
في طول البلاد وعرضها ، في أيدي المسلمين ، خلال فترة قصيرة
من الزمان . حتى اذا كان ايلول سنة ١١٨٧ انتهى صلاح الدين
وجنوده الى ابواب القدس ، التي اضطرت الى الاستسلام في ذلك

* البرنس ارناط في المصادر العربية. [العربان]

الشهر نفسه^{٤٨}. وعلى مشهد من جميع أفراد أسرة صلاح الدين تقريباً دخلت المدينة المقدسة ، مرة ثانية ، في حوزة المسلمين ، وهدم صلاح الدين جميع اماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة . وفي غير ما ابطاء ، سعى الى ان يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق . ولكن صور ، وكان يدافع عنها كونراد ده موننتفرا ، صمدت في وجهه . أما طرابلس فلم ينقذها من السقوط في ايدي المسلمين غير اسطول نصراني معقود اللواء لوليم النورماندي ملك صقلية . والواقع ان سقوط القدس أحياناً في اوروبة فكرة الحرب الصليبية من جديد . فحمل الصليب كل من فردريك الاول [بربروسا] مبراطور ألمانية وفيليب [أوغسطس] ملك فرنسا وريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة ، بعد ان اصبح البابا ما بينهم . وفي آب سنة ١١٨٩ طوق الصليبيون عكا ، التي أحسن صلاح الدين تحصينها ، عقب سقوطها في يده ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وخف صلاح الدين لانقاذ عكا من محاصريها المسيطرين على المرفأ ، وبذلك كانوا في وضع افضل من وضع المسلمين . ولكن فيليب وريكاردوس قلب الاسد ما لبثا ان أمدا الصليبيين ١١٩١ بقوات جديدة يعمر نفوس افرادها النشاط . وفي ١٢ تموز سنة ١١٩٢ استسلمت حامية عكا المطوقة . حتى اذا رفض صلاح الدين ان يدفع الى الصليبيين الفدية الباهظة التي فرضوها لاطلاق سراح السكان المسلمة بين فتك النصراني بأسراهم ، فأجابه المسلمون بالمثل

(٤٨) انظر بولدوين M. W. Baldwin, *Raymond III of Tripoli and the Fall of Jerusalem, 1140—1187*, London, 1938.

فكانت مجزرة مريعة من الجانبين . وإذ لم يكن من المستطاع الوصول الى اйма نتائج حاسمة في الميدان فقد شرع الملك العادل ، آخر صلاح الدين ، يفاوض ريكاردوس في الصلح . وكان هذا الاخير قد ملّ الحرب ، ورغب في التفرول الى انكاخرة خوفاً على ملكه من الضياع ، وهكذا عقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ . واحتفظ صلاح الدين بفتوحه حتى الدد ، والرملة ، وعسقلان وسمح للنصارى بزيارة القدس حجاجاً عزلاً من السلاح .

ولم ينعم صلاح الدين بهذا الصلح الذي عقد أخيراً غير بضعة اشهر . ففي نهاية تشرين الثاني سار من القدس الى دمشق حيث حُم ومات ، في شباط سنة ١١٩٣ ، وليس له من العمر غير خمس وخمسين سنة . ولاحق ان حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من اشهر ملوك الشرق ، في اوروبة ، اما في الذاكرة الشرقية فلا يزال اسمه خالداً الى جانب اسمي هرون الرشيد وبيبرس ، كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ واهناها . وليس من شك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن اياما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ، ليس غير . ولم يستطع أعداؤه انفسهم إلا الاقرار له بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان صلاح الدين بالاضافة الى ذلك كله نصيراً للعلم . ولقد وُقِّق الى نفر من العلماء حفظوا جميله ، وتوجوا له . فوضع كاتبه محمد الكاتب الاصفهاني [ابن العماد الاصفهاني] ، الذي خدم من قبل نور الدين في دمشق ، والذي رافق صلاح الدين في حملاته

جميعاً ، مؤلفاً أرتخ به لفتح القدس . ومن أسف انه اثقل كتابه
 هذا بالمحسّنات اللفظية التي توقع في نفس القاريء أن الجانب اللغوي
 كان أهم ، عند المؤلف ، من الموضوع نفسه . اما السيرة التي كتبها
 قاضي جيشه في القدس ، بهاء الدين بن شداد ، فأسلس قياداً وأرقّ
 حاشية . كذلك عُني القاضي الفاضل ، العسقلاني المولد -
 وقد بدأ حياته العمامة في عهد آخر الفاطميين ، ثم نهض
 بعبء الادارة كلها ، منذ تم الامر لصلاح الدين - بتدوين
 يوميات رسمية ، طوال عهده بالادارة العامة ، ولكن يد الزمان
 لم تحفظ لنا منها ، مع الأسف ، غير نصف صغيرة . أما رسائله
 الديوانية فلم يصل إلينا منها غير نصوص لم تُختتر ، لسوء الحظ ،
 من أجل أهميتها التاريخية ، بل لجمالها الأسلوبى . وإنما تقع على صورة
 حية عن الثقافة ، في عصر صلاح الدين ، في مذكرات الفارس ،
 أسامة بن مُنقذ ، [كتاب الاعتبار] ، وكانت أسرته تحكّم شيزر
 شمالي حماة . وفي عهد البوريين بدمشق نشأت بين اسامة هذا وبين
 فرسان الفرنجة صلات وودّ وصدافة . ثم إنه شارك في حملات
 نور الدين عليهم ، وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق ، على
 الرغم من باوغه سناً عالية . ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللفظية
 الشائعة في عصره ، على ما تشهد سائر كتبه ، فقد ازدهاها بالكلمة
 في مذكراته هذه . إنه ههنا يقصّ علينا ، في لهجة قصصية بسيطة ،
 مختلف مغامراته في الحرب والسلام ، وفي الطرد بصورة خاصة .
 وإنه ليلعب غايةً عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه على المساهين

ولكن صلاح الدين كان ، الى ذلك ، نصيراً لفقهاء السنة الذين استطاع بواسطتهم أن يقضي قضاء حاسماً على نزعات الفاطميين الشيعية في مصر . والواقع أنه لم يستعر الحاجة الى اقامة ديوان لامتحان الزنادقة الا مرة واحدة . وتفصيل الأمر أن مهاجراً فارسياً من آسية الصغرى يدعى السهر وَرَدِي انصرف في حلب ، وكان يلي أمورها الملك الظاهر بالنيابة عن اخيه صلاح الدين ، إلى آراء غنوسية قائمة على اساس الافلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة ، بعد أن وقف على فلسفة ارسطو وأفلاطون . وانما تقوم تعاليمه على هذه القاعدة التي سبق للمتصوفة النصارى والمسلمين والفلاسفة أن أشاروا اليها بإشارات رفيقة ، والتي تقول بأن ثمة نوراً روحياً يتخلل الكون كاشراق لديني هو جوهر الاشياء جميعاً . ولا تزال فلسفته الأشراقية هذه ظاهرة في نظام الدراويش الذي سبق أن أنشأه في آسية الصغرى . والواقع أن تعاليمه ما لبثت أن أثارت شكوك علماء السنة فزعموا أنه يمثل عقيدة القرامطة المعادين للدولة . وهكذا لم يكن في وسع صلاح الدين ، رغم اعتداله ، إلا أن يصدق حكم الموت الذي اصدره القضاة على الملحد ، (سنة ١١٩١) .

آثار صلاح الدين العمرانية

وخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات جلي في القدس والقاهرة . فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى

(٤٩) وقد ترجم [الدكتور] فيليب حتي كتاب أسامة هذا [الى الانكليزية] بعنوان : *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades* , New York , 1929 .

(الذي اتخذ الصليبيون قصراً لهم) وتربينه بالفسيفساء والرخام. ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبراً نفيساً أُنيباً من حلب، ولا يزال باقياً الى اليوم. وأما في القاهرة، فقد شيد اول مدرسة ذات اربعة اروقة عند ضريح الامام الشافعي. ولقد خدم اهدافه العسكرية بأنشاء قلعة القاهرة، التي لم يُبمله الاجل حتى يُتمها. وكان منذ سنة ١١٧٩ قد رسم الخطة لدمج القاهرة والفسطاط في وحدة متماسكة حصينة. فشرع في بناء القلعة الى الشرق، بين المحلتين، على طراز القلاع الصليبية. وكان يرجو، في الوقت نفسه، أن يتخذ هذه القلعة مقراً له. ليس هذا فحسب، بل لقد كان من همه ان يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرض له من جهة الشام، بسورٍ يمتد حتى جبل المقطم في الشرق. ولكنه لم يستطع أن يُنجز الاجزاء من مشروعه، إذ انشأ السور الشمالي ليس غير. أما سائر التحصينات فلم يباشر في انجازها بجد، البتة.

الايوبيون في سورية ومصر

وقسم صلاح الدين الامبراطورية قبل وفاته ما بين وارثيه. فاما اكبر اولاده، الملك الأفضل، فقد عهد اليه بالسلطنة، بوصفه رأس الأسرة، بالإضافة الى دمشق، وجنوبي سورية. وعهد الى ابنه الملك العزيز [عثمان] بالديار المصرية، ولولده الملك الظاهر [غياث الدين] بحلب وشمالى سورية. أما الملك العادل [سيف الدين]، اخو صلاح الدين، فورث بملكاته الامبراطورية في الجزيرة الفراتية. ولم تكد تنقضي سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الخلاف بين اولاده. والواقع ان

عهم الملك العادل عرف كيف يجرّض بعضهم على بعض ، وبذلك استطاع القضاء عليهم واحداً بعد آخر . وفي حلب وحدها قدّر لذرية صلاح الدين البقاء حتى الغزو المغولي (سنة ١٢٦٠) . حتى اذا انقضى القرن الثاني عشر كان الملك العادل قد وُفق الى ان يوحّد معظم اجزاء الامبراطورية ، واعترف به افراد الاسرة المالكون في حلب واليمن سيّداً . ومع ذلك فقد وزع بتملكاته على بنيه ، وهو على قيد الحياة . فعهد بمصر الى الكامل ، وعهد بدمشق الى المعظم ، وعهد بالجزيرة الفراتية الى الاوحد والفائز والاشرف على التعاقب ، فكانوا ينوبون عنه في حكمها .

فردريك الثاني في فلسطين

واستطاع الايوبيون على الرغم من هذه القلاقل ان يصونوا البلاد الواقعة في حوزتهم من عدوان الصليبيين ، ومن عدوان جيورنهم في آسية الصغرى ايضاً . وكانت فكرة الحرب في سبيل الارض المقدسة قد انكشبت ، في تلك الفترة ، وعقّى عليها النسيان او كاد . ولكن اندراوس ملك المجر لم يلبث ان بعثها من مرقدتها سنة ١٢١٧ ، فجهز حملة وجهها الى مصر . وكان الملك العادل قد توفي (سنة ١٢١٨) قبيل وصول الحملة الى دمياط ، فتعين على ابنه الملك الكامل ان يمكن لسلطانه ، اول الأمر ، في بلاده نفسها ، ومن هنا عجز عن الاحتفاظ بذلك الحصن الذي يسيطر على الجناح الايمن من دلتا النيل . بيد ان الصليبيين ماكان في طوقهم ان يثبتوا لهجات الايوبيين المنظمة ، فاضطروا في السنة التالية الى الانسحاب من دمياط . وما هي الا فترة وجيزة حتى

أدت دسائس السياسة الأوروبية المعقدة الى استئثار النزاع
لامتلك القدس . وتفصيل ذلك ان فردريك الثاني الذي رفعه
البابا انوسنت الثالث الى العرش [وكان البابا وصياً عليه] لم
يكن مُلزماً بأن يوافق على توسيع الدولة الكنسية على حساب
الامبراطورية ، وبأن يمتنع عن التدخل في الانتخابات الاسقفية
في المانيا فحسب - وذلك لقاء ما حظي به من تأييد الكرسي
البابوي - بل كان عليه ، الى ذلك ، ان يندّر الله على نفسه حملة
صليبية ، (سنة ١٢١٥) . وعلى أية حال فقد كان فردريك أبعد
ما يكون عن التفكير في ايفاء هذا النذر ، لانهماكه الشديد في
إقامة إدارة جديدة في صقلية - وقد آل اليه حكمها بعد
النورماندين - يستطيع بواسطتها أن يسترد إيطاليا . والواقع انه
عطف كالنورماندين من قبله ، على الثقافة العربية ، واحتفظ
بالمترقة العرب . وفي سنة ١٢٢٧ حرم البابا غريغوريوس التاسع
الامبراطور فردريك ، بعد ان اسرف في المماطلة والتسوية .
عندئذ سارع فردريك الى الايفاء بنذره ، ميمماً وجهه ، من
برنديسي ، شطر الارض المقدسة ، عام ١٢٢٨ . والواقع أن
الملك الكامل كان قد اتصل به ، قبل ذلك ، ليضمن مساعدته له
في صراعه ضد اخيه ، الملك المعظم ، في دمشق . حتى اذا هبط
فردريك الثاني ارض فلسطين ، كان المعظم قد توفي ، وكان
الكامل قد اسلم دمشق الى اخيه [الاشرف] يحكمها بالاضافة الى
ممتلكاته في الجزيرة الفراتية . ومع ذلك فقد استؤنفت المفاوضات
وتعهد الصليبيون بان يجهزوا ممتلكات الملك الكامل السورية

مقابل تنازله لهم عن القدس وبيت لحم والناصره ومجازين يوصلان
الى كل من يافا وصيدا ، قبل ان يقتل الفريقان في الميدان . وفي
١٨ آذار سنة ١٢٢٩ تُوج فرديريك بوصفه زوجاً لايزابيل ملكة
الارض المقدسة ، في كنيسة القيامة بالقدس . ولكن هذه الصفقة
الديبلوماسية لم تصادف قبولاً عند النصارى والمسلمين على السواء .
وفي الحقي ، فقد امر البابا بحرم شامل يفرض على المدينة المقدسة ،
ما أقام فرديريك هناك .

لويز التاسع في دمياط - شجرة الدر
وافاد الملك الكامل من الصلح الذي دفع ثمنه في فلسطين ،
فانصرف الى نشر سلطانه في الشمال على حساب سلاجقة الروم .
فأثار ذلك حسد أخيه الملك الاشرف في دمشق . ونجحت المنية
الملك الكامل من منافسه هذا الذي توفي لدن وصول اخيه الى
ابواب دمشق . ولكن الملك الكامل نفسه لم يلبث ان توفي على
اثره (سنة ١٢٣٨) ، فخلفه ابنه الملك العادل . ولم تنقض سنتان
حتى ثار اخوه ، الملك الصالح [ايوب] عليه واخرجه من مصر .
ثم ان الملك الصالح استطاع ، بقوة من الاتراك الخوارزمية
الفاردين من وجه جنكيز خان ، ان يفتح القدس سنة ١٢٤٤ ، وكان
قد احتلها مؤقتاً ، سنة ١٢٣٩ [ابن عمه] امير الكرك [الناصر]
داود [بن المعظم] ، بعد انقضاء أجل المعاهدة المعقودة مع فرديريك
الثاني . ولكن الصالح خسر ، من ناحية ثانية ، مدينة دمشق ،
ليستولي عليها عمه الصالح اسماعيل ، الذي كان قد اضطر بعد وفاة
اخيه الملك الاشرف الى ان يُخلي المدينة للملك الكامل . ولكن

الملك الصالح لم يلبث ، بعد فتحه القدس ، أن استرد دمشق ،
 وبذلك تم توحيد امبراطورية صلاح الدين ، بكاملها تقريباً ، حتى
 حلب والجزيرة العليا ، من جديد . ومع ذلك فقد كان عهده حافلاً
 بالصراع ضد منافسيه من الأيوبيين انفسهم ، وضد الفرنجة ، وضد
 الاتراك الخوارزمية الذين كانوا دوماً على استعداد ليحاربوا في
 صفوف من يدفع لهم اعظم العطايا . وفي سنة ١٢٤٨ ، فيما كان
 [الصالح ابوب] يعمل في دمشق على تجهيز حملة لقتال يوسف
 الثاني ، صاحب حلب ، جاءته الانباء بغزو الفرنجة لمصر ، كررة
 اخرى ، بقيادة لويز التاسع ، ملك فرنسا ، المعروف بالقدسي .
 واحتل لويز وجنوده دمياط ، بعد ان شاعت الفوضى في صفوف
 المدافعين عنها لما علموا من مرض الصالح . حتى اذا توفي في ٢٣
 تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ كتبت امراته شجرة الدر - وكانت من
 قبل جارية من جواريه - خبر وفاته ، الى ان حضر ابنه الملك
 المعظم توران شاه من الجزيرة الفراتية . وكان توران شاه قد نشئ
 بعيداً عن مصر فشب جاهلاً لاحوالها بالكلية . ومن هنا آثر
 مماليكه الذين اضطحبهم من الجزيرة على المصريين وجعلهم المقدمين
 عنده ، فأنتمر خصومه به وقتلوه في مستهل [نوار] عام ١٢٥٠ ،
 وكان قد وفق ، قبيل ذلك ، الى استرجاع دمياط ، وأمر لويز
 التاسع نفسه . وعندئذ صدر الامر الى الجيش بأخلاء هذه المدينة
 من سكانها ودكها ، دفعاً لكل اعتداء قد يأتيها من جانب البحر
 منذ اليوم . وبعد مقتل توران شاه نصّب المماليك شجرة الدر
 ملكة ، على ان يكون [عز الدين] أيبك [الجاشنكيري]

الصالحى *] اتابك العسكر . وما لبث ان اصبح لها بعلاً .
وبسطت شجرة الدر سلطانها المطلق على مصر ، ومن ثم فقد تعين
على أيبك ان يمتن لدولتها في سورية التي ابت الاعتراف بها .
وفي سنة ١٢٥٧ سعى ايبك الى التخلص من شجرة الدر ، ولكنها
عاجلته وقتلته في الحمام . ومهما يكن من شيء ، فقد أحجم
المماليك ، بعد ذلك ، عن نصره شجرة الدر ، وسرعان ما أوردوها
مورد الردى . وانما نص بعبء الحكم من بعدها احد المماليك
المنصور نور الدين علي [ابن المعز عز الدين ايبك] .

وبالرغم من كل هذا الشعب والاضطراب فقد كان العهد
الأيوبي عهد بركة وازدهار في مصر وسورية ، حتى بعد وفاة
صلاح الدين . فقد عني الايوبيون بالزراعة ، التي ما كان يمكن ان
ترهق بغير الاهتمام الموصول بنظام الري ، عناية فائقة لا تقل عن
عنايتهم بالتجارة ، وكانت ابدأ عرضة لضروب المخاطر بسبب من
فقدان الامن في طرق المواصلات التجارية . والواقع أن عداءهم
للنصارى لم يعقهم عن عقد سلسلة من الاتفاقات التجارية مع
الدول الاوروبية . ليس هذا فحسب ، بل إن اتصال المسلمين
بفرسان الصليب ذلك الاتصال المراوح بين القتال والمواذعة ،
ساعد بدوره على نشوء حركة من التبادل الثقافي ، متعددة
الوجوه . والذي يبدو ان الغرب إنما نقل عن الايوبيين طريقته
في اجطناع علامات النسب على الاسلحة ، وشارات الفرسان

* المعروف ايضاً بالتركاني . وقد لقب « بالمعز » عندما ولي السلطان .

[المعربات]

[على الدروع] بالاضافة الى بعض العادات الفروسية .^{٥٠}

الماليك البحرية : معركة عين جالوت

واضطر الأيوبيون ، كما اضطر العباسيون من قبلهم ، الى الاستعانة بالماليك ، أي العبيد الأرقاء يشترونهم بالاموال ، لأن اهل البلاد الواقعة في حوزتهم وقد بعدَ عهدهم بالجنديّة انشؤا ، منذ زمن طويل ، الى ان لا يصلحوا للخدمة العسكرية . وكثيراً ما كانوا يدخلون في خدمتهم جماعات بومتها من الاتراك الهاربين من وجه المغول ، الى الشرق الأدنى . وما هي الا فترة وجيزة حتى نشأ من بين زعماء هؤلاء الصنائع ، كما حصل غير مرة في تاريخ الاسلام ، جيلٌ من الحكام جديد بسط سلطانه على مصر وسورية حتى الفتح العثماني . وكان أيبك ، وهو اولهم ، من حراس الملك الصالح [ايوب] المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل ، ومن هنا عرف هو وخلفاؤه بالماليك البحرية (نسبة الى « بحر » النيل) . وخلف أيبك ابنه علي ، ثم قطز الوصي عليه . وبعد فترة وجيزة رقي العرش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس . وكان بيبرس قد شارك في مقتل توران شاه ولاذ بالفرار الى سورية ، ولكنه آب الى مصر بعد أن تقلد قطز زمام الحكم .

وكان الاعصار المغولي يمتاح في ذلك الوقت ، بلدان الشرق الأدنى جميعاً ويهدد مصر بالخراب الذي ما بعده . فعهد اليه قطز

(٥٠) انظر : يعقوب ارتين باشا - Yacoub Artin Pasha, *Contribution à l'étude du blason en Orient*, London, 1902.

وراجع ايضاً : ماير - L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933.

في قيادة طليعة الجيوش التي وجهها الى فلسطين لقتال المغول ؛ فهزم المغول عند عين جالوت ، سنة ١٢٥٩ ، هزيمة صدت سيلهم الطامي لأول مرة ، وحوّلت مدهم الى جزر ، مظهراً في هذه الموقعة بسالة نادرة . والواقع انه كان يرجو ان يُقطعه السلطان حلب جزاء ما وُفق اليه من نصر مؤزر ؛ حتى إذا خاب رجاءه ، انقلب الى مصر ، فقتل قطز وبايعه الامراء سلطاناً عليهم . وهكذا يتعين علينا ان نذكر فضله العظيم على مصر لما جذبها من ويلات الغزو المغولي الذي عطل سير التطور الثقافي الهاديء في دنيا الاسلام كلها ، ما خلا الديار المصرية ، والذي سنتحدث عن آثاره الوخيمة في الفصل التالي . ولكن بيبرس كان ، الى ذلك ، كما بدا في ما بعد ، سياسياً بارعاً ايضاً . فلم يكد المغول يقوضون دعائم العرش العباسي في بغداد ويقضون على السلالة كلها تقريباً ، حتى اقام [بيبرس] في القاهرة خليفة من نسل بني العباس فقلده هذا [الخليفة] السلطنة وشاركه في الملك ، بعد ان أقسم [بيبرس] بين الولاة للخليفة . واما هدف الظاهر بيبرس من وراء ذلك الى توطيد عرشه وإحباط ايما محاولة قد يقوم بها مدع من الايوبيين لاسترجاع الملك . والظاهر ان هذا الخليفة العباسي الاول كان يتمتع بقدر من العزيمة و ارادة العمل فوق الذي اراده له بيبرس . وفي الحق انه خرج على رأس جيوش بيبرس ابتغاء استخلاص بغداد ، ولكن السلطان جهزه بجيش قليل العدد والعدة ، فاستطاع المغول القضاء عليه في سهولة ويسر . ومن ذلك الحين ، لم يزد خلفاؤه على ان يكونوا آلات طليعة في ايدي المماليك .

ولئن حارب الظاهر بيبرس أعداءه ببسالة غير عادية ، فكثيراً ما كان يصطنع في حربهم الأساليب الديبلوماسية الماكرة ، البعيدة النظر . أما في فلسطين فكان عليه بعد أن يصفى حساباه مع الصليبيين عن طريق القتال . ولكنه وفق الى أن ينتزع حصن الاكراد ، وهو من اعظم حصون الصليبيين مناعة ، من ايدي فرسان الاسبتارية * ومدينة صفد من ايدي فرسان الداوية * * ثم إن بيبرس انصرف الى حرب الحشاشين فاستولى على مصباد وعدد من الحصون الثانوية ، ولكنه لم يعمد الى حل هذه الجماعة والقضاء عليها بالكلية ، إذ كان ينتوي ان يفسد من سفاكيها في تحقيق اغراضه الخاصة . كذلك استطاع بيبرس ان يغري آخر امير ايوبي مستقل ، وكانت اليه قلعة الكرك ، بالشخص الى القاهرة حيث نقض بيبرس عهده ، وفك بالامير وابانه . وفي الشمال وضع بيبرس حداً لنشاط ماوك آسية الصغرى الأرمن بما شنه من غزوات متلاحقة على اراضيهم . وفي الجنوب ألحق بلاد النوبة بمصر جاعلاً صلتها بها صلة التابع بالمتبوع . وحالت الظروف التي كان على مغول العراق ان يواجهوها في داخل امبراطوريتهم الاسيوية دون أنثأارهم هزيمتهم الاولى ، وان يكن بيبرس قد اضطرّ غير مرّة الى ان يدفع بعض غزواتهم الثانوية عن بلاده . وعقد بيبرس مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل

St. John's Knights *

** Templars أو الهيكلين .

بليولوجس * اتقاءً لصليبية اوروبية جديدة . وكان ميخائيل هذا قد حرر امبراطوريته من حكم فرسان الفرنجة . اما في الداخل فقد وطد بيبرس دعائم امبراطوريته بنظام البريد الذي انشأه على الفرار الايراني العباسي . ولقد شيد لنفسه في القاهرة ضريحاً فخماً ، أقامه في المسجد الذي جلب مواد بنائه ، سنة ١٢٦٧ - ١٢٦٨ ، من مدينة يافا ، بعد فتحها ، والذي انتهى اليوم الى خراب . وإنما شيد السور الخارجي الذي لا يزال قائماً الى اليوم من الحجر . أما البناء نفسه فمُشيدٌ من اللبن . وإنما تقود الى داخل البناء ستة صفوف من الأعمدة تصل ما بينها عقودٌ محدّدة ، وتوصل الى بلاطة معترضة تظللها - امام المحراب - قبة تشمل ثلاثة اروقة . وتنظم الجوانب الاخرى من الفناء اروقةً مزدوجةً معمّدة . وللور الخارجي ثلاثة مداخل بارزة بمجاريب وطفراءات واشكال هندسية ، بينما تقوم على الزوايا ابراج مستطيلة^{٥١} .

وعدت الاجيال التالية عهد بيبرس ، كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين ، من قبل ، أحد العصور الذهبية في الاسلام . والواقع أن مجموعةً من الحكايات الخيالية لم تلبث أن نُسجت حول شخصيته في وقت مبكر ، وهي حكايات تمتزج فيها أعماله البطولية بأساطير وخرافات ذات موضوعات منتزعة من القصص العامي الذي ألفتها مصر منذ القدم . ولا تزال سيرة الظاهر بيبرس ، وقد تناولتها بالزيادة والاسهاب اجيالٌ من القصاص ، تؤلف حتى

St. John's Knights

Michael Paleologus *

(٥١) انظر ديز: E. Diez, Die Kunst der islamischen Völker, p. 58.

اليوم منهلاً عذباً من مناهل التسلية يتهافت على وروده عاملة
المصريين بالأضافة الى سيرة «عنتر» البطولية ، وسيرة بني هلال
البدوية ، وحكايات الف ليلة وليلة الاسطورية .

المالِك البرجِية

وأخذ بيبرس البيعة ، قبل وفاته بثماني سنوات ، لأكبر ابنائه
[محمد] المدعو بركة خان . حتى اذا توفي سنة ١٢٧٧ رقي هذا
العرش غير مدافع ، [وتسمى بالملك السعيد] . بيد انه لم يلبث
ان يُخلع ، بعد سنتين اثنتين . فنهض بعبء الوصاية على
سلامش بن بيبرس ، وكان صبياً في السابعة ، قائداً
من قواد الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس ، اسمه قلاوون .
وماهي إلا فترة حتى بدا لقلاوون هذا أن يستقل بالحكم من دون
سيده الصغير ، [فخلعه] . والواقع أنه وفق إلى ان يدفع عن
سورية غارات المغول ، كمثل توفيق بيبرس . ووسع نطاق
ممتلكاته في سورية على حساب الفرنجة ، وحررها من الأمراء الذين
تمين عليه باديء الامر أن يعترف بهم زملاء ، حتى اذا توفي سنة
١٢٩٠ قبض له ان يترك السلطنة لابنه ، ليحتفظ اعقابه بها طوال
اربعة اجيال ، حتى سنة ١٣٨٢ ، على الرغم من انهم كانوا دائماً في
حاجة الى ان تُثبّت سلطتهم من طريق الانتخاب . وأيام ما كان
فقد تولى العرش بعد ذلك [الملك الظاهر سيف الدين] بقوق
وهو أحد افراد الفرق العسكرية التي سبق لقلاوون ان ألفها من
من المغول والجر اكسة ، وجعل مقرها في ابراج قلعة القاهرة ؛
ومن هنا عُرف هؤلاء بالمالِك البرجِية . وفي هذا العهد عدل عن

نظام الوراثة ، وصار المالك ينتخبون او فرم حظاً من الكفاية
والمقدرة ، أو أعلاه سنأ في بعض الاحيان . ومن ذلك الحين
تقلصت صلاحيات السلطان ، المطلقة نظرياً ، وانتهت شيئاً بعد
شيء الى العدم . ذلك بأن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق
مجلس للدولة قوامه زعماء المالك المقدمون . وكان هؤلاء شديدي
الغيرة على طبقتهم يبتغون ان يحفظوا بها نية صافية . والواقع
أنهم عهدوا في تعزيز [طبقتهم هذه] بالعناصر الجديدة الى أعمال
مخصوصين يرودون اسواق النخاسة الحافلة بالرفيق المجلوب من
جنوبي روسيا ومن بلاد القفق [القوقاس] بخاصة . وكانوا
يدرئون الاحداث منهم في قلعة القاهرة ، ومن ثم يوزعونهم بين
الامراء ، فهم يعملون في خدمتهم ويرتجون من طريق ذلك الترقية
والتقديم . وكان المالك ، علاوة على هذا ، يحفظون بفرق
عسكرية مجندة توزع على أفرادها الاقطاعات لقاء خدماتهم . وما
لبثت هذه الاقطاعات ان اصيحت املاكاً خاصة بهم تنتقل الى أعتابهم
عن طريق الوراثة . والى هؤلاء مثلاً ينتسب خليل [بن ابيك
الصفدي] مؤلف أحد الكتب الشهيرة المعتمدة الى اليوم في الفقه
المالكي ، وقد توفي سنة ١٣٦٥ وكان قد شارك في تلك السنة
نفسها بالدفاع ، مع حامية القاهرة ، عن الاسكندرية يوم غزاها
ملك قبرس . وكانت مناصب القضاة والاستاذين في المدارس
موقوفة وحدها على العلماء من اهل البلاد . أما في الادارة المدنية
حيث حظي الكتاب العُدول وكتاب التوقيع بالمقام الأرفع ،
فكان المالك يقدمون النصارى واليهود على غيرهم .

الحياة الفكرية في عصر الماليك : ابن تيمية

هذا القلق المطرد في الوضع السياسي ، الذي اختصر سني حكم السلاطين ولم يسمح لهم الا نادراً بأن يموتوا حتف أنفهم ، استتبع حالة من القلق وعدم الاطمئنان تهددت رجال البلاط والحكومة جميعاً ، في أرواحهم وممتلكاتهم ، بما لم تستهدف لمثله طبقة حاكمة من قبل الا في اسوأ أيام الدولة الرومانية . فقد عجز الموظفون ، حتى اقدرهم ، عن الاحتفاظ بمناصبهم اكثر من ثلاث سنوات الا في القليل النادر . وكم من قاضٍ أُسند اليه القضاء ثم عزل عنه عشر مرات متواليات ، أو يزيد . ليس هذا فقط ، بل لقد كان ثمة نفوذ فقهاء السنة وراذعهم المعنوي ، اولئك الفقهاء الذين لم يتورعوا عن اضطهاد رجل صالح مؤمن بالله اصدق الايمان واشده ، كان تيمية^{٥٢} الحنبلي لاجرامه عن مجاراتهم في جميع ما ذهبوا اليه من رأي ، ولقاومته كثيراً من مظاهر التدين لدى العامة كعبادة الرسل والاولياء . والواقع ان بيبرس نفسه اعترف بالذهب الحنبلي مذهباً قوياً ، فعين للحنابلة في القاهرة قاضي قضاة اسوة بالمذاهب الثلاثة الاخرى . بيد ان الحنابلة استثاروا نقمة هذه المذاهب ، فعلى شيخهم الاول في بغداد ، بما ادعوه من انهم وحدهم الممثلون للعقيدة المحمدية الخالصة الرشيدة . وهكذا لم يلبث ابن تيمية ، الذي خلف اياه كمدرس بدمشق ، سنة ١٢٨٢ ، ان اتهم بالزندقة ، على اثر فتوى اصدرها جواباً عن

(٥٢) راجع لاووست ، *H. Laoust, Essai sur... Ibn Taymiya*, Cairo, 1939.

سؤال ورد من حماة . ذلك بان فتواه هذه تعارضت وآراء
الشافعية ، فعزل عن منصبه ، وسبق سنة ١٣٠٥ الى المحاكمة
امام هيئة القضاء الشافعي في القاهرة ، لتصدر حكماً بسجنه .
حتى إذا ارتقى نصيرته السابق ، الملك الناصر ، العرش للمرة
الثالثة ، عهد اليه بتدريس الفقه الحنبلي في المدرسة التي انشأها ،
واصطحبه الى دمشق ، سنة ١٣١٣ . ولكن ابن تيمية عاد فأثار
نقمة الفقهاء ، كرهة ثانية ، سنة ١٣١٨ ، بفتوى خاصة بمسألة
الطلاق ، فلم يستطع الملك الناصر نفسه ان يدود عنه ، فالقي في
غيابة للسجن خمسة اشهر ، استأنف بعدها تدريسه . وأياً ما كان ،
فقد استطاع خصومه ان يحملوا الدولة على اعتقاله من جديد ، في
تموز سنة ١٣٢٦ ، على اساس من رأي قال به ، منذ سنة ١٣١٠ ،
في ما يتصل بزيارة قبور الرسل والاولياء . والواقع انه استطاع
ان يتابع نشاطه العلمي بادي الامر ، على الاقل ، وهو سجين في
قلعة دمشق ، حتى اذا حُبس عنه الورق والحبر أخذ القم لهذه
الاهانة ، ففضى نجبه في ٢٩ ايلول سنة ١٣٢٩ . ولئن كان معاصرو
قد حاولوا قمع تعاليمه بالقوة ، فقد كتب لها برغم ذلك ان تبقى
حية في دوائر اتباعه المحدودة لتستمد منها الحركة الوهابية حافزها
بعد اربعمئة من السنين ، ولتفيد منها بالتالي حركة التجدد الاسلامية
في الجيل الحاضر . اما في حقول الثقافة الاخرى فقد انتج السوربون
والمصريون انتاجاً خصباً جداً ، في عهد المماليك ، كان لنا منه
ثمرات يانعات ، وبخاصة في حقل التاريخ . ولكن هذا الانتاج
يكاد يكون خلوّاً من الاصاله والابداع ، بالكلية .

الحياة الاقتصادية

والواقع ان هذا الانتاج الواسع العريض ، في عصر المماليك ، كان يجد سنده الاقتصادي في نظام الاوقاف الذي انشئ في عهد العباسيين ، والذي انتهى في مصر وسورية الى غاية من الغنى تكاد تكون خيالية .^{٥٣} ذلك بان كبار المثرين السوريين والمصريين ، كانوا كزملائهم العراقيين من قبل ، يقفون بملكاتهم الضخمة على وجوه البر وخدمة العلم ، صيانة لها من المصادرة ، فتدرّ على الاقل دخلاً ما للواقف وذريته . ولكن هذه الاوقاف كانت تصدّ طبقة غير يسيرة من الامة ، عن طلب الرزق ، وتقود الى حياة من الكسل الديني والتدرّؤش ، مُبعِدةً في الوقت ذاته مساحات شاسعة من الاراضي عن نطاق الاستثمار ، ومن هنا جاز اعتبارها مسؤولة الى حد بعيد عن الانحطاط الاقتصادي في الشرق . ومهما يكن من شيء ، فقد انشئت معظم الاوقاف في المدن ، فهي تستغل من طريق الاجار دكاكين صغيرة او بيوتاً للصناعة وضروب العمل . وكانت الطبقة الحاكمة ، اي المماليك ، تعتمد في معاشها على ما تُمنح من اقطاعات غنية في العادة . ولكن هذه الاقطاعات ما كانت لتتجول الى ممتلكات خاصة بالاسرة لان القانون كان يحرم وراثة الاقطاع . والواقع انه كان على الوارثين ، في حال وفاة المُقطع ، ان يعيدوا الى خزانة الدولة التي انشأت مكتباً خاصاً بهذه الشؤون ، ما كانت قد دفعته مقدماً الى المُقطع لقاء سنوات من الخدمة معينة حال الموت دون إتمامها . ولقد نشأت عن ذلك

(٥٣) انظر بيكر C. H. Becker, *Islam*, I, 93 ff.

مشكلات عديدة اضطرت الدولة ، [بعد] الى تذليلها بقانون خاص . ولسنا في حاجة الى النص على أن الفلاحين العاملين على هذه الاقطاعات ، والذين حرّموا حق مبارحتها ، كانوا يُسلمون ، في غير مازحة ، الى أهواء المقطع ومحض ارادته . ٥٤

ليس هذا وحسب بل لقد تميز النظام الاقتصادي ، الى ذلك ، بضروب من المصادرة والاحتكار كانت تؤلف العمود الفقري للمالية الدولة على الرغم من شجب الشرائع الدينية لها ، واحتجاج الفقهاء على اصطناعها ، مرةً بعد مرة . فكانت الدولة تتنازع بالأكرام معظم المحاصيل والمواد الرئيسية ثم تبعتها من جديد إلى تجار التجزئة بأسعار محددة . وليس من شك في ان الحكومة كانت تجد في هذا الاجراء وسيلة الى منع المضاربات التجارية في أيام الازمة ايضاً . والحق ان التجارة ازدهرت ازدهاراً فائقاً للعادة في عصر المماليك لان مصر وسورية كانتا لا تزالان ، حتى ذلك الحين ، واقعيتين على طريق التجارة الهندية الغنية التي نهضت بعبئها جمهوريات ايطالية تجارية . ولقد وفقت هذه الجمهوريات ، في كثير من الاحيان ، الى ان تنتزع لنفسها ، من طريق المعاهدات التي عقدها مع المماليك ، حقوقاً خاصة انتهت في ما بعد الى أن تصبح أساساً للامتيازات الاجنبية التي كان لها أبعاد الاثر في تاريخ مصر ، حتى العصر الحديث .

(٥٤) راجع بولياك ، *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon*, London, 1939.

وهكذا تدفقت على سلاطين المماليك موارد ضخمة مكنتهم من أن يُعِنُوا بِالْعِمَارَةِ عَلَى نِطاقٍ واسعٍ غنيٍّ ، فجماعت آثارهم مُضَاهِيَةٌ لِأُرُوعِ الْآثَارِ فِي أَرْهَى عَصُورِ الْإِسْلَامِ . واذ قد اعتاد المماليك منذ عصر قلاوون وما بعده ، أن يشيدوا منشآتهم بِحِجَارَةِ الْمَقَالَعِ مِنْ مِثْلِ حِجْرِ الْكَلَسِ الْمُسْتَخْرَجِ مِنَ الْمَقْطَمِ ، وَحِجْرِ الْبَلُورِ وَالصُّوَانِ الْمُسْتَخْرَجِينَ مِنْ مِصْرِ الْعَلِيَا ، فَقَدْ ثَبَتَ آثَارُهُمْ لِعَوَادِي الزَّمَانِ أَكْثَرَ بِمَا ثَبَتَ آثَارُ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَلَا تَزَالُ إِلَى الْيَوْمِ تَقَرَّرُ هَيْئَةُ الْقَاهِرَةِ الْعِمَارِيَّةِ . وَتَحْتَلُّ الْمَدَافِنُ الْمَكَانَ الْأَوَّلَ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ طَرَاظَ الْإِضْرَاحَةِ الْمَمَالِيكِيَّةِ ، ذَاتَ الْقَبَابِ الْمُرْتَفَعَةِ الْجَمِيلَةِ ، إِنَّمَا نُقِلَ مِنْ تَرْكِسْتَانِ إِلَى مِصْرَ . وَهَكَذَا كَانَ الْمَمَالِيكُ يَعْتَبِرُونَ فَنَ وَطَنَهُمُ الْأَوَّلَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ انْتَزَعُوا مِنْهُ فِي سِنِي الصَّبَا الْبَاكِرَةِ ، الْمِثْلَ الْأَعْلَى الَّذِي يَسْعُونَ إِلَى تَحْقِيقِهِ بِوَسْطَةِ مِمْتَلِيهِ الَّذِينَ التَّمَسَّوْا بِالْحِمَايَةِ فِي أَكْنَافِهِمْ . وَكَانَتِ الْقُبَّةُ التَّرْكِيَّةُ تَمْتَازُ مِنَ الْقُبَّةِ الْفَارْسِيَّةِ كَمَا شَاعَتْ فِي عَهْدِ الْفَاطِمِيِّينَ وَالْأَيْبِيِّينَ ، بِارْتِفَاعِ دَائِرَتِهَا عَنِ الْجُزْءِ الْمُسْتَطِيلِ أَوْ الْمُرْبَعِ مِنْ الْقَاعِدَةِ الَّتِي تَدْعُمُهَا بِوَسْطَةِ أَشْبَاهِ مِحَارِيبٍ مُرْتَفَعَةٍ عِنْدَ الزَوَايَا ، أَوْ بِوَسْطَةِ صَفُوفٍ مُتَعَاقِبَةٍ مِنَ الْمِثْلَآتِ الدَّاعِمَةِ . وَهِنَا خَلَدَ الطَّرَازُ الْحُشْبِيُّ الْهِنْدِيُّ ، الَّذِي نَشَأَتْ عَنْهُ [بَعْدُ] الْقُبَّةُ الْحَجْرِيَّةُ . وَفِي عَهْدِ السُّلْطَانِ حَسَنِ (١٣٤٧ - ١٣٥١) ظَهَرَ فِي الْقَاهِرَةِ طَرَاظٌ جَدِيدٌ فِي بِنَاءِ وَاجِهَاتِ الْمَسَاجِدِ . فَقَدْ فُصِّلَتْ جِدْرَانُهَا الْحَجْرِيَّةُ الشَّاحِحَةُ الْمَلْسَاءُ بِمِحَارِيبٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَرْتَفِعُ حَتَّى قَاعِدَةِ السَّقْفِ ، لِتَنْعَقِدَ عَلَيْهَا الْحَوَاشِي

الاقفية المتدلية (البواكي) . وكانت النوافذ تُجعل في المحاريب .
 أما الجدار فكان يُتَوَجَّح ، في العادة ، بأكليس من الشرفات .
 وكان الباب الرئيسي ينهض ، على العموم ، في الزاوية وسط
 فجوة عميقة ، ينتهي إليها المرء بواسطة سلّم مكشوف . والذي
 يبدو لنا ان هذا الطراز الذي يتمثل فيه الفن البابلي الاشوري
 القديم ، قد نُقل من الجزيرة العليا والمناطق الجبلية الكردية ،
 حيث قُدِّر له أن يُحفظ ، وكأنه في متحف ، إلى آذربيجان وآسية
 الصغرى في الشمال ، وإلى مصر في الجنوب . ومن اروع الامثلة
 على هذا الطراز جامع السلطان (وفيه ضريحه) والمدرسة التي
 انشأها وجعل فيها أروقة مستقلة لتدريس المذاهب الاربعة
 جميعاً .^{٥٥}

(٥٥) انظر ديز . E. Diez, Die Kunst der islamischen Völker, 142 ff.

الأتراك والمغول

انقضاء الحضارة

ولئن كان الأتراك قد أوقعوا أعظم الأذى ، خلال قرون متطاولة من سوء الإدارة ، بحضارة إيران والعراق التي بلغت في يوم غايّة ما بعدها من الازدهار ، فقد كان من نصيب انسابهم التتار أو المغول ، في مستهل القرن الثالث عشر ، القضاء نهائياً على تلك الحضارة. والواقع ان المؤرخ العربي ، ابن الأثير ، لم يُجانب الحقيقة عندما قال في معرض كلامه على أحداث سنة ٦١٧ هـ . (١٢٢٠) ، وفي لهجة باكية مؤثرة ، ان غزو المغول للشرق الأدنى هو أعظم كارثة حلت بالانسانية . ولعل العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً كبيراً في هذا الاجتياح المغولي ، شأنها من قبل في ما يتصل بخروج العرب من بلادهم لفتح العالم ، وبكلمة ثانية ، من الجائز ان يكون النزاع على المراعي ، بين مرابي الجيول وورعاة المواشي ، قد لعب دوراً ما في هذا الحدث العظيم . ولكن الفضل في جمع شمل المغول وتوحيد صفوفهم - وكانوا من قبل قسمين كبيرين ، أرف أولهما حياة التنقل على حدود الامبراطورية الصينية ،

واقام ثانيهما في الشمال معتمداً في معاشه على الطرد وصيد الاسماك -
إنما يرجع ، وفقاً لما جرت به سنة التاريخ ، الى شخصية قوية هي
هنا شخصية جنكيز خان الذي استطاع ان يجتاح بمجافل المغول
بلدان التمدن القديم ، في وحشية مدمرة ، متعطشة الى الدم ،
عُرف بها هذا العرق وكانت له طابعاً .

شاهات خوارزم

وكان الجزء الشرقي من امبراطورية الخلفاء السابقة ، قد
أمسى ، بعد سقوط السلاجقة ، ألعوبةً في أيدي المتغلبين الاتراك
الذين زرعت حروبهم المتواصلة الخراب والدمار في تلك البلدان
المتحضرة . وليس يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام على هذه
الاحداث المفجعة ، فنجتزئء بالاشارة الخاطفة الى ابرز الوقائع
واهمها . فمنذ سنة ١٠٩٧ وما بعدها وُفق سنجر ، احد وارثي
السلطان السلجوقي ، الى ان يُعيد توحيد فارس والبلدان الواقعة
على جانبي نهر جيحون ، فترة قصيرة من الزمان ، ساد فيها السلام
والامن . ولقد كان عليه ان يُقر ، على خوارزم ، محمد بن
أنوشتيكين ، الذي سبق لبركيارق ان ولاء عليها والذي استقل
متخذاً لقب خوارزمشاه ؛ كما اضطر الى ان يقر على سجستان تاج الدين
أبا الفتح بن طاهر ، وينتهي نسبه ، في الظاهر ، الى الصفارية .
وخضع الغزنويون ، حكام ما وراء النهر المستقلون - وكانوا
كاسلافهم يعتبرون غزوا الهند عملهم الرئيسي - الى حداما ، للسلطان
سنجر . ولكن أتت سنة (١١٢٨ - ١١٥٦) الذي ولي عرش
خوارزم بعد ابيه محمد ما لبث ان سعى الى التحرر من نفوذ

السلطان السلجوقي ، فخلعه السلطان جزاء عصيانه . حتى اذا بارح سنجر البلاد شق أنسزُ عصا الطاعة من جديد ، وحرص قبيلة قراختاي المغولية الباقية على الوثنية ، على مهاجمة سمرقند ، رغبة منه في صرف همه سنجر نحو الشرق . وكان اقرباء الاتراك هؤلاء - وقد ذكرنا شيئاً عن تاريخهم القديم في موطن سابق - قد حكموا بلاد الصين منذ سنة ٩١٦ ، وكانوا يعرفون بسلالة لياو ، ومن هنا لا يزال الروس الى اليوم يسمون الصين ختاي . ولكن « الجرجينيين » ، وهم شعب تُنكُتي ، طردوهم من هناك حوالى سنة ١١٢٥ ، فارتدوا في اتجاه الغرب . وهاجم المغول ، بادئ الامر ، بلاد القيرغيز على ضفاف الينيسي ، ثم هاجموا كاشغر وُخْتَن في الجنوب . وفي ٩ ايلول سنة ١١٤١ انزلوا بسنجر وجنوده هزيمة منكرة على الضفة الاخرى من نهر جيجون ، ومن ذلك الحين صار اميرهم يحكم على رقعة واسعة من الارض تمتد من الينيسي في الشمال الى بلخ في الجنوب ، ومن خوارزم التي انقلب شأها تابعاً له ، في الغرب ، حتى الامبراطورية الايفغورية في الشرق . واتخذ مقره قرب بلاساغون على ضفاف « تشوي » وهو النهر الرئيسي في تركستان الروسية اليوم . وكانت النصرانية التي نشرها المرسلون النساطرة في ربوعهم لاتزال تصطرع والاسلام الذي ظل في النهاية ارجح كفة وأعز نفراً بسبب من تشعب صلاته واتساعها .

(٥٦) كانت للاوربيين معرفة غامضة بهذه الاحوال . ولقد نشأ عن هذه المعرفة ، بعد الذي طرأ على لقب جورخان من تحريف ، الاسطورة الواسعة الانتشار عن امبراطورية برستر جون Prester John

وأفاد أتسز احسن الافادة من مصائب سيده المطلق . ومع انه لم يستطع ان يحتفظ نهائياً بما استولى عليه من البلاد ، ليضطر آخر الأمر الى ان يجدد ولاءه لسيدة القديم ، فأن ابنه إيبل أرسلان الذي خلفه على العرش سنة ١١٥٦ ما لبث ان ممكن للدولة الحوارة مشاهية ، فكان لها اثر حاسم في تاريخ آسية الوسطى ، فترة قصيرة من الزمان .

الدولة الغورية

وبعد ذلك بقليل سقطت الدولة الغزنوية في ايدي الجماعات التركية الجديدة ايضاً . وتفصيل ذلك انه كان يحكم بلاد الغور الجبلية ، بين وادي هندو كند ، وهرارة في افغانستان ، امراء واطنيون من آل سُوري . وكان هؤلاء الامراء موالين للدولة الغزنوية ، عاملين في ظلها . وكان احدهم [قطب الدين محمد بن الحسين ، قد صاهر] بهرام شاه صاحب غزنة [فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته] فعاجله بهرام شاه بالقتل . عندئذ هب اخوه [سيف الدين سُوري بن الحسين] وسار الى غزنة طالباً ثأر اخيه ، سنة ١١٤٨ ، فاكره السلطان على الهرب عنها الى الهند . وهناك جمع جموعاً كثيرة وعاد الى غزنة فخرج سُوري الى لقاءه فقهره بهرام شاه وقتله . ولكن اخوة سُوري ما لبثوا أن حشدوا جماعاتهم

في الشرق الأقصى . راجع اوبرت :

G. Oppert, *Der Presbyter Johannes in Sage und Geschichte*, 2 nd edition, Berlin, 1870.

F. Zarneke, *Der Priester Johannes*, Leipzig, راجع أيضاً زارنك , 1879 (Königliche Sächsische Gesellschaft für Wissenschaft, VII, XIX).

المتوحشة واعادوا الكرة على غزوة سنة ١١٥٠ ففتحوها ودمروها تدميراً؛ وليس في مشهدها اليوم غير مؤذنين تذكران بتاريخها الغابر. ومن ذلك الحين عاش بهرام شاه في الهند، جاعلاً مقره مدينة لاهور.

ثم ان الغوريين ساروا الى هراة، مهاجمين ممتلكات سنجر. ولكن السلطان السلجوقي تصدى لهم وهزمهم، واسر زعيمهم طوال سنتين عاد بعد انقضائها الى بلاده. اما الحملة التي سنّها سنجر على عشائر الغزّ التركمانية فلم يكتب لها النجاح الذي كتب لحملة على الغوريين. وتفصيل الامر ان قبيلة قراختاي المغولية كانت قد ازعجت هؤلاء الغز عن مراعيهم، فحملتهم الحاجة الى اراضي سنجر. ولقد نزع الغز، بايدي الامر، الى الخضوع، ولكن استبداد عمال الحراج اكرههم على الثورة. فلما كانت سنة ١١٥٣ هزموا السلطان هزيمة قاصمة واسروه، طوال سنوات ثلاث. ولم يكذبون من اسرهم حتى جاء اجله سنة ١١٥٧

واجتاح الغز، بعد انتصارهم على سنجر، البلاد التي كانت في حوزته يدبجون أهلها وينهبون أموالها. وخلف سنجر ابن اخيه محمود، ولكن الوصي عليه، المؤيد، لم يلبث ان خلعه. فلما توفي ايسل ارسلان وتنازع ابناه عرشه انحاز المؤيد الى جانب اصغرهما ولكن تكش، وهو الاكبر، هزمه سنة ١١٧٤ وقتله. والواقع أنه دارت بين الاخوين حروب طويلة اشترك فيها الغز المنتشرون في طول البلاد وعرضها ايضاً، حتى اذا كانت سنة ١١٩٣ تمت لتكش السيطرة على المملكة برمتها، بعد وفاة اخيه. وأمنت

خوارزم في عهده ، حتى سنة ١٢٠٠ ، غارات الغز لانهبك هؤلاء في الهجوم على ما تبقى من ممتلكات الغزنويين في الهند . ولكن معز الدين الغوري لم يلبث ان هاجمها سنة ١٢٠٤ ، عقب وفاة تكش وارتقاء [ابنه] علاه الدين محمد الثاني ، العرش فباء محاولته بالاختناق ، واطبقت جموع القراختاي على قواته المرتدة فكادت تسحقها سحقاً . والحق ان هذه الهزيمة اصابت الحكم الغوري في الهند باذى كبير . فما هي إلا فترة يسيرة حتى تنازع الامراء ، في تلك الديار ، على السلطان . ولكن الشمس [شمس الدين] ، وكان من قبل مملوكاً تركياً ، استطاع ان يوحد المملكة كلها ، في ظله ، كرةً اخرى .

في عهد الناصر العباسي

وفي فارس ، احتك شاه خوارزم بمنطقة نفوذ الخليفة العباسي الناصر [لدين الله] [١١٨٠ - ١٢٢٥] الذي وفق الى تحرير بغداد من حكم امراء الجيش ، ومن ثم تقدم ، من عاصمته في العراق ، الى بسط سلطانه في اتجاه الشرق . والواقع ان هذا الخليفة الذي يعد آخر الدهاة من بني العباس حاول ان يمكن لسلطته الهزيلة المثقلة ، بعمل بارع قوامه موالاته الشيعة ورعايتهم . ذلك بأنه نشأت في العراق منذ عدة قرون جماعات الفتوة^{٥٧} التي كان اول ظهورها ، بلا ريب ، على الحدود بين المجاهدين ، ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن نشطت في داخل الامبراطورية ، فكانت في ازمان الاضطراب

(٥٧) انظر تيشنر F. Taeschner, *Islamisches Ordensrittertum zur Zeit der Kreuzzüge, Die Welt als Geschichte*, 1938, 387-402.

السياسي كثيراً ما تتروّع السكّان وتوقع في قلوبهم الرعب ، أو
تقلّب أحياناً إلى عصابات من الفتاك المجرمين . أما في زمن
السلم فكانت الفتوة على اتصال بالفرق الصوفية . وإنما سعى
الناصر إلى أن يسخر هذه الجماعات لخدمته ، من طريق تنظيمها
تنظيماً جديداً وترعّمها بنفسه . واذ كان علي بن أبي طالب ،
صهر الرسول ، هو إلى حد ما « ملاكهم الحارس » ، بوصفه مثلهم
الأعلى في البطولة ، فقد أفسح الناصر لاعتقاب علي وذريته في
مجال النشاط في منظمة الفتوة الجديدة مفيداً من نفوذهم
الأدبي ، حريصاً في الوقت ذاته على أن تظل سيطرته سليمة
لم تمس . ولما كانت هذه المنظمة الفروسية تعنى بالرياضة البدنية
في حماسة واضحة فقد اقبل كثيرون من الأمراء على الانتساب
إليها ، معتبرين عضويتها زيادة في الشرف ، على الرغم من ان المنظمة
لم تيسر للخليفة شيئاً مما كان يتطلع إليه من نفوذ سياسي عريض
يأتيه من طريقها . صحيح أن زعيم الحشاشين الأكبر - وكان
خطرهم قد تضاعف - أقسم برغم عقائده الشيعية بين الطاعة والولاء
للخليفة ، ولكن شيئاً ما لم يبتج عن هذا الحدث . ولم يكده تكشف
يُشغل في الشرق حتى سار وزير الخليفة [مؤيد الدين محمد بن علي
المعروف بابن القصاب] إلى خوزستان والأقاليم الفارسية المجاورة
ففتحها . حتى اذا تمت لتكش الغلبة على أعدائه في الشرق سنة
١١٩٦ انقلب إلى الغرب فاسترد ما كان قد فقد ، حتى تخوم
خوزستان . وفي سنة ١٢١٤ تقدم الخليفة شمالاً ، نحو بلاد الجبال ،
وكان قد استبد بها بلوك اسمه منكلي ؛ فحرض الخليفة عليه أحد

اصحابه ، أوزبك بن البهلوان صاحب آذربيجان] وكان منكلي
 قد اوحشه [، فهزم منكلي وقتله ، مقيماً أوغلمش ، مملوك [اخيه]
 مكانه . حتى إذا سعى هذا الى عقد حلف مع علاء الدين محمد الثاني
 [ابن تكش] ، عهد الناصر الى احد الحشاشين في قتله ، فتم له ما
 اراد . وهنا عقد علاء الدين العزم على ان يقوض سلطان خصمه
 العنيد ، فدعا سنة ١٢١٧ الى مؤتمر ديني لتقرير أحقية العلويين
 بالخلافة ، وكان أتباعهم لا يزالون يملأون فارس من اقصاها الى
 اقصاها . ثم ان اختياره وقع على علوي من ترمذ يدعى علاء الملك
 كمنافس للخليفة ، ومن ثم شرع في إعداد العدة لفتح بغداد
 ورفع علاء الملك الى عرش الخلافة . واتفق ان هجمت جحافل
 الشتاء ، في ذلك العام ، قبل ميقاتها المعلوم بمدة صالحة ، فاضطر
 الى ان يرجع من حيث أتى ^{٥٨} . وقبل أن يوفق الى إنفاذ خطته
 في العام التالي ، نزلت بالبلاد الاسلامية كارثة مهولة قلبت الوضع
 السياسي رأساً على عقب .

اولية المغول : جنكيز خان يفتح بلاد الصين

ذلك بان الشعوب النازلة في قلب آسية تمخضت في ذلك الحين

(٥٨) ولقد شيد الخليفة ، تخليداً لذكرى نجاته من هذا الخطر ، باب
 الطلسم في بغداد ، وهو الذي اتخذ في ما بعد برجاً للبارود ، والذي نسفه
 الأتراك في الحرب العالمية الأولى فيما هم ينسحبون امام زحف القوات البريطانية .
 وانما جعلت فوق هذا الباب صورة الخليفة وعن يمينه تبين ، وعن شماله آخر
 وقد امسك بفككي كل منهما يريد تمزيقه . ولقد ذهب فنان برشام
 M. van Berchem الى ان هذين التنينين يرمزان الى خصمي الخليفة :
 الحشاشين والعلويين .

بهجرة اخرى عظيمة . وكان جيران الأتراك الشرقيون ، وهم قبائل
 يربطها بهم نسب قديم ، قد احتفظوا ببعض خصائص الجنس المغولي .
 ولقد سبق منا الكلام على احدى هذه القبائل ، قرانغاي ، التي
 كانت اول من هاجر ، بعد قبائل الهون ، في اتجاه الغرب . وفي
 ذلك الوقت كان انسابهم لا يزالون ينزلون في منغوليا الحالية ،
 وفي جنوبي سيبيريا . وأطلق اهل الصين على هؤلاء اسم التتار ،
 وهو اسم نفع عليه حتى في نقش اورخون العريق في
 التبت ، وقسموهم ثلاثة اقسام وفقاً لمراحل تطورهم . فأما
 جيرانهم الاقربون الذين نزلوا في ما وراء السور الصيني ، والذين كانوا
 قد تأثروا شيئاً كثيراً بالثقافة الصينية فدعاهم التتار البيض .
 والى شمال صحراء غوبي كان ينزل التتار السود ، وهم رحل ؛
 وكان المرسلون النساطرة قد مكنوا لأنفسهم في ما بينهم ،
 فتنصرت قبائل الكيرائيت التي كانت تعيش على ضفاف نهري
 أونون وكيرولين العليا وعلى ضفاف التولا ايضاً . وكانت
 شعوب الغابات تقطن شمالي هؤلاء التتار السود ، وتحيا
 حياة قوامها القنص والطرده ، وتعد القبائل الآنفة الذكر ،
 على الرغم من القربى بينها ، منجطة مستضعفة . وكانت
 الشامانية في اوج قوتها عندهم . وكان الاعتقاد بوجود عالم من
 الارواح غيبي ، يضمن للسحرة ، اي للكهنة الشامانيين ، سلطاناً
 كبيراً على حياة الناس . وفي سنة ١١٥٥ رزق ييسوكاي [احد
 افراد أسرة قيات] - وهم متفرعون من التايجميوت ، احدى
 القبائل القناصة النازلة على مقربة من تخوم التتار السود - غلاماً

هو بكره ، سماه تموجين . ولكن أبا الغلام ما لبث ان توفي سنة ١١٦٧ من غير ان يترك لتموجين منصباً معيناً او سلطة ثابتة ، لاننا نشك في ما اذا كان هو نفسه قد تمتع بسلطة ما على الاطلاق . وكان تموجين ذا هممة عالية ، فاستطاع ان يجمع حوله نفراً من المغامرين ويخرج على رأسهم لغزو العشائر الاخرى التي تربطها بمشيوته صلة النسب ، والتي كانت اكثر من عشيرته هذه تمدناً . والواقع ان الحكومة الصينية كانت دائماً على استعداد لأن توقع الشقاق بين هؤلاء الجيران الذين لم يكن من اليسير عليها اخضاعهم ، وبذلك تكفي نفسها مؤونتهم . وكانت سلالة كين الصينية قد أفنت سنة ١١٦١ قبيلة من التتار تدعى 'مغول' بمساعدة جيران هذه القبيلة النازلين على ضفاف بحيرة 'بويرنور'. حتى اذا تعاطم شأن هؤلاء ، وخشي الصينيون بأسهم حشدوا لقتالهم النصارى من قبائل الكرايت . وهنا بدا لتموجين المغامر ان يشارك في هذا الصراع ، مستهلاً حياته السياسية بالمطالبة بئثار المغول ، الذين خلع اسمهم على اتباعه ، ومن ثم على شعبه برمته . ولكن الحلاف لم يلبث ان دب بين حلفاء الامس ، حوالى سنة ١٢٠٢ ، فاذا بمرکز تموجين يتخرج ، واذا به يضطر إلى الانكفاء الى بحيرة بالجيونامع عصبة قليلة من اصحابه . وكان بين اصحابه هؤلاء ثلاثة نفر مسلمين ، اغلب الظن انهم من التجار الفرس الذين اعتادوا في ذلك الحين القيام برحلات تجارية الى الشرق الاقصى . والحق ان اثنين منهم رافقاه فترة طويلة في حملاته العسكرية ، ولعلهما اشارا عليه بشؤون كثيرة تتصل بتنظيم امبراطوريته . ولم تكذب تقبل

سنة ١٢٠٣ حتى كان تموجين قد نفى من البلاد حلفاءه السابقين بعد ان ناصبوه العداة ، فاطاعته قبائل منغوليا الشرقية جميعاً . وفي سنة ١٢٠٦ تم له اخضاع قبيلة النايان النصرانية القوية ، في منغوليا الغربية . وفي ذلك الوقت خلع عليه احد الكهان الشامانيين لقب جنكيزخان الملكي (وان تكن بعض المصادر تنص على ان ذلك كان قبل بضع سنين) فعرف به عند الاجيال التالية . ثم انه دعا الى عقد المجلس التمثيلي الاول (قورولتاي) حيث رفع علماً يحمل صورة تسعة اذنان خيل بيضاء علامة على شرف مركزه كحاكم ، ووضع الاسس الاولى لامبراطوريته . وكان جيشه الخاص ، ويبلغ عدده عشرة آلاف من اشداء الرجال ، هو قوام قوته وسلطانه . وكان الف من هؤلاء الرجال يؤلفون حرسه الخاص . والواقع ان جنكيزخان اخضع حرسه هذا لتدريب عنيف اساسه العدل ، كان يشرف عليه بنفسه . وكان كل من افراد الحرس يعد مساوياً في الرتبة للقواد . وراخذ جنكيزخان عن النايان استعمال خط الأويغور في دواوين الدولة . ولا مراء في انه لم يضع قط ، بادىء الامر ، خطة نظامية يتبعها في توسيع رقعة امبراطوريته . وانما كانت الحملات التي قام بها في السنوات القليلة التالية مجرد غارات على نطاق واسع لم يقصد من ورائها الى غير انتهاب جياذ الحُصوم وسي نسايم^{٥٩} . وبعد عام من تدميره بلاد التنكت هاجم امبراطورية صلالة كُن ، في شمالي الصين . وفي سنة ١٢١٤ عقد بين الفريقين صلحٍ مهر بزواج جنكيز

(٥٩) راجع بار تولد (نقل عن زشيد الدين) في الموسوعة الاسلامية ج ١ ص ٨٥٧ .

من احدى الاميرات الصينيات . ولكن الحرب لم تلبث ان نشبت بين جنكيز والصينيين كرة اخرى سنة ١٢١٥ . فتم لجنكيز هذه المرة فتح بكين . ومهما يكن من شيء ، فلم يكده الخان يغادر البلاد حتى استردت سلالة كين حريتها من جديد . اما امراء هذه الاسرة الذين اخرجهم المغول من ديارهم ، فولوا وجوههم قبل المغرب وانقضوا على امبراطورية القراختاي ، وكانت قد ضعفت من جراء حروب خوارز مشاه [علاء الدين] محمد الذي تغلب في ما بعد على القراختاي ، في طراز (تلس) ، سنة ١٢١٥ وفتح ما وراء النهر . وسقط باقي البلاد في يد كوجلك خان ، امير النايما ، في حين دخل زملاؤه المجاورون - وهم امير الاويغور ، في الجنوب ، وخان القارلوق (القرئغ) في الشمال ، وامير الاملايق (الاملايغ) في وادي إلي - في طاعة جنكيز وحمايته .

فتح فارس

وبعد فتح بكين وجه جنكيز خان ، سنة ١٢١٥ ، ابنه جوجي نحو الغرب ليقاتل قبائل المركيت الذين كانوا حلفاء للنايما ، والذين سبق ان طردوا من مساكنهم الى بوادي القيغيز . وفيما كان جوجي يقوم بهذه الحملة التقى جيشاً كان خوارز مشاه [محمد] قد سيره لاختصاص قبيلة القفجاق ، جيران المركيت . واذ قد ظلت المعركة سجلاً بين الفريقين آثر جوجي على ما يظهر ان يتجاهل الحادث على اعتبار انه سوء تفاهم ليس غير . وأياً ما كان فقد ارتأى خوارز مشاه أن يوفد الى جنكيز خان بعثة يستطلع من

طريقها موارد العدو وعدته ٦٠ . أما العلاقات التجارية بين
الامبراطوريتين فليس من شك في انها كانت قائمة قبل ذلك .
ولكن الذي لا سبيل الى فهمه هو سلوك خوارزمشاه ، ذلك
السلوك الغريب في اثناء النزاع الذي نشب سنة ١٢١٨ . ففي ذلك
الحين مثل بين يديه ، في ما وراء النهر ، ثلاثة تجار مسلمين أوفدهم
اليه جنكيز ، ومعهم هدايا عظيمة المقدار ، للسلام عليه بوصفه
« ولده الاثير عنده » ، وهو تعبير يفيد ، في لغة ذلك العصر
الديبلوماسية ، معنى التبعية له . وتذهب المصادر التي بين ايدينا الى
ان الشاه لم يعبر عن استيائه من ذلك الا بعد مشول الرسل بين
يديه . وإياً ما كان ، فنحن نشك في ان مقتل السفراء على الحدود
ونهب قوافلهم كان يمكن ان يتما من غير علمه ، وهو الذي عاد
فأعمل السيف في رقاب رسل آخرين وفدوا عليه في بعثة جديدة ،
وكان حقاً عليه إكرامهم والتلطف في معاملتهم .

ولم يكن في ميسور جنكيز خان ان يفضي على هذه الاهانة
الفاحشة . وعلى الرغم من ان جزءاً من قواته كان لا يزال منهمكاً
في الحرب الصينية فقد جمع نخبة جيشه وسار بها بنفسه ، يرافقه
اولاده ، الى خوارزم ، فاضطر اميرا القارلوق والامالتق المسلمان
الى المسارعة لتجدتها . وكان الموقف يقتضي خوارزمشاه محمد حشد
قوات امبراطوريته كلها في الميدان ، ولكنه أهمل ذلك ، في غباء لا

(٦٠) يعزو المؤرخون المتأخرون المعادون لبني العباس هذه المبادرة
- توجيه رسل من المسلمين لأول مرة ، الى المغول - الى الخليفة الناصر رغبةً
منه ، في ما زعموا ، في تحريض جنكيزخان على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض
لمملكته ، وبذلك يشتغل خوارزمشاه عن الخليفة بنفسه .

تنكاد نجد له تأويلاً . ولو قد فعل ، اذن لأربرت جيوشه على جيوش
 المغول . واذا لم يستطع ان يثق بجنود المقاطعات المفتوحة حديثاً
 فقد اكتفى بتحصين الثغور ، وعسكر في سمرقند ينتظر هجوم
 قوات المغول الرئيسية ، وكانت تشمل على اربعة جيوش زاحفة
 تطرد امامها سكان القرى المجاورة ، تهيئةً لالقاء الحصار على المدن .
 وفيما كان ابناء جنكيز يحاصرون الحصون القائمة على الحدود ، كان
 الخان الكبير ينقض بجيوشه على بخارى التي ما لبثت ان سقطت في
 يده ، بعد حصار وجيز ، فأعمل النهب فيها وقتل من اهلها خلقاً
 كثيراً ، وغادرها رماداً كأن لم تغن بالامس . وأسقط في يد
 خوارزمشاه لدن تسامع بهذه الكارثة ، وملاً قلبه الرعب ، فترجع
 الى بلخ ، ومن ثم الى نيسابور . اما جنكيز خان فسار الى سمرقند
 وغيرها من المدن الكبرى ففتحها بنفسه ، في حين سير بضع
 كتاب من جيشه لتعقب الشاه . والواقع انه كان في مكة الشاه
 بشي من العزيمة الصادقة وبما قد تبقى لديه من قوات ، أن يهاجم
 هو المغول ، لا سيما وقد كانت جيوشه التركية تعلم علم اليقين ان
 المغول لن يبقوا عليهم ، ومن هنا أبدت ثباتاً وشجاعة فائقين ،
 في الدفاع عن الحاميات المفردة المختلفة . ولكنه آثر ألا يفعل . وكان
 آخر ملجأ فزع اليه جزيرة صغيرة في بحر الخزر ، وكان طالبوه من
 المغول قد أسوا من اللحاق به ، فعادوا عنه . وهناك توفي في ١١
 كانون الثاني سنة ١٢٢٦ ، فخلفه ابنه الاكبر جلال الدين منكبرتي .

نهاية الدولة الخوارزمشاهية

وبينا تابع المغول عملهم التدميري على الساحل الجنوبي من

بحر الخزر ليندفعوا بعد ذلك ، من طريق القبق ، الى روسيا
 الجنوبية ، وينقلوا الى مواطنهم الاولى عبر الفولغا ،
 كان أول عمل قام به جلال الدين بن محمد أن قفل الى خوارزم
 التي كانت لا تزال في يده . ولكن الأتراك في هذه المدينة كانوا
 قد بايعوا أخاه الأصغر ، أزلغ ، الذي سبق لمحمد أن يختاره لولاية
 العهد . فاضطر جلال الدين ، بعد أن خذله الأتراك ، الى الشخوص
 الى غزنة ، حيث وفق الى أن يجمع جيشاً لحرب جنكيز خان ،
 بعيد استيلاء هذا الأخير على خوارزم وخراسان . وتمكن جلال
 الدين من أن يهزم إحدى طلائع المغول قرب أفروان ، في الجبال
 القائمة بين باميان ووادي كابل وغزنة . ولكن الخلاف لم يلبث
 أن نشب بين أمراء جيشه ، فانفض من حوله التركمان وقبيلة الخلدج ،
 فلم يعد في مركز يساعده على أن يغامر بهجوم جديد على المغول
 بذلك العدد القليل من الجنود الذي أقام على ولائه . وهكذا
 اضطر الى أن يفر الى الهند . ولكن متعقبه من المغول اعدوا له
 كميناً على ضفاف نهر مهْران (السند) البعيدة الغور ، والتي لم
 يجروا على عبورها ، وفضوا على الكثرة المطلقة من جيشه ، في
 حين نجأ هو بنفسه بعد أن خاض ، في حال من اليأس ، عباب
 النهر الغاضب (تشرين الثاني ١٢٢١) . وفي الهند استطاع أن
 يجمع حوله قوة صغيرة قوامها بعض المغامرين الأتراك المنتشرين
 في طول البلاد وعرضها . وكف جنكيز خان عن مطاردته فترة
 من الزمان ، وانسحب في تودة وتمهل الى منغوليا ، مواصلاً في
 الوقت نفسه مجازره المخوفة في أراضي الدولة الخوارزمية السابقة .

وصمد جلال الدين ، في الهند ، ثلاث سنوات ، لجأ بعدها الى مقاطعة كerman الفارسية ، وكان قد فتحها « بُراق حاجب » الوصي على أخيه غياث الدين بيروشا . وهنا ، وعلى التخوم الجبلية ما بين فارس وبلاد الجبال ، سلخ بضع سنوات اخرى هائماً على وجهه مع بعض الاتراك والمغول ، حتى اذا كان يوم ١٦ آب ١٢٣١ انقض عليه رجل كردي متعطش للانتقام فأرداه قتيلاً . وليس من شك في ان جلال الدين كان يعوزه التنظيم الدقيق الشامل في جميع المعارك التي خاضها . ولكنه كان ، على اية حال ، آخر من دافع عن حياض الاسلام في وجه الوثنيين ، وهو من اجل ذلك خليق بهالة الاعجاب التي أحاط سيرته بها كاتبه المعروف بـ «النسوي» . اما سائر ملوك المسلمين وامراءهم ، سواء في ذلك الايوبيون في سورية والسلاجقة في آسية الصغرى ، فقد تنافسوا في التودد الى المغول ، رجاء ان يسمحوا لهم ، على الاقل ، بالاستقلال الداخلي في ظل السيادة المغولية .

خلفاء جنكيز

وامتجم جنكيزخان ، بعد تغلبه على فارس ، بضع سنوات في البوادي التي خضعت له اخيراً ، ثم في موطنه الاول . حتى اذا كانت سنة ١٢٢٥ خرج يريدملكة التنكت في «هسيا» ، وهي مقاطعة قانصو الحالية ، التي تتداخل كالوئد ما بين الصين الشمالية والصين الجنوبية . ولكنه توفي قبيل سقوط العاصمة المحاصرة ، ببضعة ايام ، في آب سنة ١٢٢٧ . وكان قد قسم امبراطوريته بين اولاده ، جرياً على العادة الشائعة عند المغول . وكان ابنه الاكبر ، جوجي ، قد أقام في ماتم له فتحه من البلدان الغربية ، حيث

أظهر من الاستقلال ما جعل أباه يفكر في حمله على الطاعة بقوة السلاح؛ ولكنه توفي قبل أبيه بستة أشهر . وكان ولده الثاني ، جغتاي ، يُعد أفقه القوم وأكثرهم تضرعاً من التشريع الذي وضع جنكيز قواعده ، فتم له بذلك ، وهو مقبم في مقره بوادي إلي ، ان يتمتع بنفوذ عظيم جداً ، على الرغم من انه لم يبذل جهداً للحصول على شيء من السلطة الرسمية . بيد انه ورث أخاه جوجي بعد وفاته . وفي حين ورث الابن الاصغر ، تولوي ، وفقاً للعرف المغولي ، « بيت » أبيه اي كرسيه القبلي في منغوليا الشرقية ، اعلن جنكيز ابنه الثالث ، اوكتاي ، خاناً اكبر (قاءان) * ، واتخذ مقره على ضفاف نهر أورخون .

وفي اعقاب سنة ١٢٤١ و اوائل سنة ١٢٤٢ توفي اوكتاي ليتبعه على الأثر اخوه جغتاي . وشجر الخلاف بين وارثيهامدة استشعرت خلالها ديار الاسلام شيئاً من الراحة والطمأنينة . وفي سنة ١٢٣٥ عهد المجلس التمثيلي الى باتو ، ثاني اولاد جوجي ، في إخضاع اوروبه الشرقية لحكم المغول . فخرج في السنة التالية لتحقيق ما يُندب له ، يرافقه اولاد جغتاي واوكتاي وتولوي ، فوفق سنة ١٢٣٧ الى ان يفتح عاصمة البلغار في وادي الفولغا . ثم انه فتح روسيا في سني ١٢٣٧ - ١٢٤٠ ، وبولندة سنة ١٢٤١ - ١٢٤٢ ، والمجر ودماسيا في السنة نفسها . وفي يوم الميلاد من سنة ١٢٤١ عبر باتو الدانوب (الطونة) المتجمد وفتح غران ؛ وفي ربيع ١٢٤٢ سار الى بلغارية ، ثم رجع في شتاء ١٢٤٢ - ١٢٤٣

* « الملك الملوك »

[العربات]

الى منطقة الفولغا من طريق الأفلاق * والبُغدان ** ونشب
الخلاف ، حتى في هذه الحملة ، بين باتو وابناء عمومته . وكان اوكتاي
قد توفي في كانون الاول سنة ١٢٤١ ؛ ولكن ابنه الأكبر ،
كويوك الذي سبق أن شق عصا الطاعة على باتو اثناء الحملة البلقانية ،
لم يُعلن « خاناً أعظم » حتى سنة ١٢٤٦ . وبعد سنتين ليس غير ،
فاجأ الموت كويوك في الحملة التي قام بها في اتجاه الغرب ، والتي كان
باتو يعد العدة لدفع أذاها عن ممتلكاته . ورغب باتو ، بوصفه أكبر
افراد الاسرة سناً ، في ان يسمي خليفته . فدعا احد المجالس
التيميلية الى الانعقاد ، ولكن اخاه برّكه وفق الى ان يحمل القوم
على المناذاة بـ « منكو » ، أكبر اولاد تولوي ، خاناً أعظم . ولما كان
ابناء جغتاي و اوكتاي لم يشار كوا في ذلك فقد قتلوا جميعاً وقتل
ذوو قرباهم ، عندما تقدموا في ما بعد ليقسموا بين الطاعة ، بتهمة
إضمار الخيانة . وهكذا انشطرت امبراطورية المغول شطرين
تفصل ما بينها البادية القائمة بين نهر طراز ونهر « تشوي » . وفي
حين تحكّم أعقاب باتو ، بوصفهم سادة « القبائل الذهبية *** » في
مضاير اوروبة الشرقية ، وفق هولاكو ، اخو منكو ، الى ان
يركز لواءه في الشرق الأدنى .

وعبر هولاكو في تقدمه غرباً نهر جيحون في غرة كانون الثاني
سنة ١٢٥٦ ، فسار صغار الأمراء في فارس وبلاد القبق الى

Moldavia ** Wallachia *

*** أصل الاصطلاح في التركية « زر اوردو » ومعناها: « الخيم الذهبي » .

[للمعربان]

الدخول في طاعته وإعلان الولاء له . وكان في جملة هؤلاء زعيم
الحشاشين الذين فقد اسمهم سحره القديم منذ زمن طويل ، ولكنهم
ظلوا على أية حال قوة يحسب لها حساب ، لما كان في حوزتهم من
الحصون المنيعة الى أبعد الحدود . ومهما يكن من الأمر ، فقد
ابى هولاء أن يتقبل ولاء ركن الدين ، آخر زعماء الحشاشين ،
وكان قد خلف أباه قبيل ذلك ، في هذه الزعامة ، بعد أن أورد
منهل الردى ، بالاتفاق مع ابنه من غير شك . من أجل ذلك
تعين عليه أن يفر الى حصن ميمون في ناحية الموت ، حيث أقام
معه نصير الدين الطوسي ، الرياضي الفلكي الشهير . ونصح له
نصير الدين بالاستسلام من غير ما مقاومة البتة ، رغبةً منه في ان
ينجو هو ايضاً ، بهذه الوسيلة . ولكن ركن الدين قتل فيما كان
يُجمل الى معسكر هولاء . وطارد جنود هولاء الحشاشين
في أرجاء فارس كلها وأعملوا في رقابهم السيف . اما الطوسي
فحظي عند هولاء ، وصحبه في حملاته التالية بوصفه منجم البلاط .
ثم انه عهد اليه في انشاء المرصد الفلكي الشهير في مدينة مراغة
بآذربيجان .

هولاء يزيل الخلافة العباسية من بغداد
وطمح هولاء ، منذ البدء ، الى ان ينشئ لنفسه ، بوصفه
تابعاً من أتباع اخيه ، امبراطورية خاصة في الغرب . واذا انطرح
فارس على قدميه ، فقد انتهى الى ان يكون قاب قوسين أو أدنى
من أراضي الخلافة العباسية في العراق . وكان قد تعاقب على
عرش بغداد بعد وفاة الناصر ، الخليفة الحازم ذي الهمة العالية ،

سنة ١٢٢٥ ، خلفاء مستضعفون] هم الظاهر بأمر الله ، والمستنصر بالله ، والمستعصم بالله [. والحق أن هولاء كانوا في حاجة إلى أن يجرضه الشيعة من الفرس ، كالطوسي مثلاً ، على قصد بغداد ، والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة . ففي ١٧ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ سقطت العاصمة العباسية في أيدي المغول ، بعد فترة من المفاوضات اجمعت فيها المستعصم عن الاستسلام في اللحظة المناسبة ، عندما استشعر عجزه الصريح عن حشد قواته بسبيل مقاومة جدية . وأبقى هولاء على المدينة نفسها مجنباً إياها ، في الأعم الأغلب ، ويلات التدمير والتخريب . أما الخليفة فقتل ، بعد أن نهب قصره ، وقتل معه جماعة من ذوي قرباه ، في حين فرَّ بعضهم إلى مصر حيث رفع السلطان بيبرس ، كما سبق منا القول ، أحدهم إلى العرش كخليفة زائف تحت اسم المستنصر بالله ، رغبةً منه في أن يخضع على حكمه صفة شرعية . ولقد ظلت هذه الخلافة الوهمية قائمة في مصر حتى انقضاء دولة المماليك عقب الفتح العثماني سنة ١٥١٦ - ١٥١٧ .

واعلن امراء سورية الصغار خضوعهم لهؤلاء بعد سقوط بغداد مباشرة . أما بماليك مصر فكانوا اول من وقف في وجه الغزاة ، ووقفه موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين . وفي ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ أنزلوا بالمغول هزيمة حاسمة عند عين جالوت ، قرب الناصرة * في حين كان هولاء كانوا في حرب مع

* في الاصل : قرب نابلس [العربان]

« القبائل الذهبية » بعد ان استشعر بركة خان الخطر يتهدده من جانب هولوكو وقوته الجديدة الطامحة . ثم ان المماليك ، والسلطان بيبرس منهم خاصة ، استخلصوا سورية برومتها ، شيئاً بعد شيء ، من أيدي هولوكو وخلفائه الأيلخانية . وكان الانحلال قد أصاب ، في الوقت نفسه ، قوة المغول المركزية من طريق التجزؤ ، فلم يبق في ميسورها ان تسعف جناحها الغربي بمساعدة ما .

غازان ووزيره رشيد الدين

وليس احد من ملوك الأيلخانية هؤلاء ، يستحق الإشارة غير غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) . بن ارغون حفيد هولوكو . صحيح أنه اختصر عمره ، فعل الكثرة من افراد شعبه ، بما أدمن على الشراب . ولكنه حاول ، خلال عهده القصير ، ان يعوض بلاد الفرس من بعض ما خسرت به بسبب الجرائم التي اقترفتها اسلافه فيها . وكان هولوكو نفسه قد استمسك بالوثنية - شأن اجداده الذين لم يلتسوا قط ، بما فظروا عليه من روح الجنسانية ، أي مشاركة روحية مع رعاياهم - على الرغم من انه اظهر العطف على البوذيين ، كما اظهره على النصراني ابتغاء مرضاة زوجه النصرانية دقوز خاتون . اما غازان ، من ناحية ثانية ، فنشئ في البوذية ، ولكنه اعتنق ، هو وجميع افراد جيشه الاسلام ، قبيل ارتقائه العرش ، وكان على أهبة ان يخوض المعركة ضد واحد من ابناء عمومته . والواقع انه اختار المذهب السني ، حتى اذا خلفه اخوه الجايتو خدا بنده (١٣٠٩) رغب عن السنة ، وتشمع . ويستفاد من النقود المضروبة في عهد غازان انه تطلع الى الاستقلال عن الخان

الاكبر المقيم في بكين ، وكان من قبل يعمل باسمه ، فالتخذ لنفسه
 صفة الحاكم « بقوة السماء » . واصطنع غازان ، في فرض سلطانه
 على ذوي قرباه وعلى امراء المغول ، ابلغ القسوة واتقل العنف ،
 وحتى الامير توروز ، الذي كان له الفضل في ارتقاء غازان العرش ،
 لم يلبث ان ذهب ضحية هذه السياسة . وشجع غازان التطور
 الاقتصادي في امپراطوريته . فقد كان الخراج يفرض ، حتى عهده ،
 وفقاً لاهواء الحكام من المغول وعمالهم من الفرس ، فلما آل
 الحكم اليه امر ، اول ما امر ، بان تسمع الاراضي كلها ، من جديد ،
 وان تتخذ نتائج ذلك اساساً في فرض الضريبة . وصادر سنة
 ١٣٠٤ قراراً امر فيه بان يحاط الرعايا علماء بكل ما يتصل بالضرائب ،
 من طريق تعليق البيانات الوافية حولها عند مداخل القرى او
 في المساجد ومعابد البصاري واليهود ، بل بان يحاط البدو الرحل
 علماء في مراعيهم ، بواسطة النقش على الخشب او الحجارة او
 المعدن ، او الألواح المكتوبة . وانما نقل الينا ذلك مؤرخه رشيد
 الدين ، ثم جاءت النقوش المكتشفة في آتي وانقرة ، والراقية الى
 عهد خلفائه ، مصدقة لما ذهب اليه هذا المؤرخ ٦١ . وشجع غازان
 ايضاً السكنى في المناطق العديدة التي هجرها سكانها ، بسبب الاعصار
 المغولي ، والتي ظلت منذ ذلك الحين خاوية على عروشها . وأمر
 غازان باسقاط الضرائب عن كاهل المستعمرين الجدد . ليس هذا
 فحسب . فقد أدخل روحاً جديدة من الثقة في الميدان التجاري

(٦١) انظر ويتك ، نقلا عن بارتولد . W. Barthold ap. P. Wittek , *Festschrift Jacob* , 348.

بان الفى الاوراق المالية ذات القيمة التحكيمية الرجراجة السني
سبق لاسلافه ان احدثوها على الطريقة الصينية ، واحل مكانها نقداً
معدنياً صحيح الوزن والقيمة . وكان لهذه التدابير اثرها الواضح
في موارد الدولة الرسمية فارتفعت من ١٧٠٠ تومان * الى ٢١٠٠
تومان ، اي حوالى اثني عشر مليون دولار . كذلك اعاد تنظيم
القضاء في فارس بعد ان عبث به العرف المغولي ، وكان هذا
العرف ساذجاً جداً ، غير محدد دائماً ، واعاد للشرع الاسلامي
سلطانه وقوته . كذلك أنشأ محكمة عليا مشتركة للقانونين الفارسي
والاسلامي . ثم انه زين عاصمته تبريز بابنية فخمة ، واقفاً اموالاً
ضخمة على المساجد المحلية ودور العلم . وشيد مرصداً فلكياً
ومدرسة للعلوم الدينية التي كان هو وغيره من ملوك المغول
يقدرونها قدرأ خاصاً لما لها من الفائدة العملية . والواقع ان
رشيد الدين ، وزيره المطلق وطبيب بلاطه ، انما وضع كتابه
المفصل في تاريخ المغول ، باللغة الفارسية ، واسمه « تاريخي غازاني » ،
بناء على إشارة منه . وفي الكتاب ايضاً نص على ان غازان
شارك في تأليفه بنفسه .

وخلف غازان أخوه ألبايتو خدا بنده . وفي عهده احتفظ
الأيلخانيون بقوتهم في أعلى ذرواتها . وكانت مدينة « السلطانية »
الواقعة في شمالي العراق ، على الجبال الفاصلة بين نهري زنججان
وأبهر ، قد اجتذبت اليها المغول ، لما تمتاز به من مناخ جبلي صحي

* التومان عشرة آلاف عند الفرس . وأصل الكلمة يعود الى كلمة
مغولية بالمعنى نفسه .
[العربان]

ولما يحيط بها من المراعي ومواطن القنص والطرده ؛ وكان أرغون قد اقام فيها حصوناً قوية . فلما رزق الجايغو خدا بنده ابنه ابا سعيد جعلها عاصمة ملكه . ولم يكن في ميسور السلطانية ، على اية حال ، ان تحتفظ بمرکزها هذا مضاهية تبرز ذات الموقع الجغرافي الاصلح . ومكثن الجايغو لنفسه في الداخل بالقضاء على اميري جيلان وهرارة . أما جهوده في سبيل السيطرة على آسية الصغرى واتخاذها سداً في وجه قوة الممالك فذهبت أدراج الرياح ، شأن جهوده في سبيل الحصول على مساعدة القوى النصرانية في اوروبة تحقيقاً لهذا الغرض .

ملاحق الادب التركي

وفي عهد غازان وخلفائه - ثم في عهد انسابهم ايضاً حتى حدود الصين - انتهت الفارسية الى ان تكون ، الى جانب التركية ، لغة الديوان الرسمية ، ولغة الاتصال الدولي . وكانت المرونة والطواعية تعوزان اللغة الموالية ؛ ولم يكن ثمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بين المغول . صحيح ان جنكيز خان اخذ عن النايان ، كما اشرنا آنفاً ، الحظ الأويغوري ، واصطنعه في دواوين الدولة ، وهو خط يتحدّر من الشكل السرياني للابجدية السامية ، (تلك الابجدية التي يقوم على اساسها خطنا [اللاتيني] ايضاً) وكان المرسلون النساطرة قد عملوا على نشره منذ قرون ، حتى قلب آسية . والواقع ان هذا الحظ اصطنع في كتابة اللغة التركية الشرقية ايضاً ، وحل محل الحظ الشبيه بالحظ الروني المتجدد بدوره من تحريف للابجدية السامية ، والذي اصطنعه اقدم من نعرف من

الخانات الاتراك في تدوين تاريخهم في القرن الثامن على ضفاف
نهر اورخون . ولكن الاتراك ايضاً لم يكونوا قد انشأوا أدباً
مستقلاً ذا غناء يستطيع ان يباهي الادب الفارسي ، على الرغم
من ان الأويغور وفقوا في حاضرتهم ، طرفان ، عند القسم الجنوبي
من نهر تيان شان ، الى ترجمة جمهرة كبيرة من الكتب ، تحت
تأثير البعثات التبشيرية البوذية والمناوية . وفي هذه الترجمات وضع
الحظ الأويغوري ، للمرة الاولى ، موضع الاستعمال ، ولقد كشفت
لنا « البعثة الالمانية الى آسية الوسطى » على الخصوص عن بقايا
منها ، ، فسرتها لأول مرة عبقرية العالم الالمانى مولر * . والواقع
اننا لا نعرف إلا نتفاً يسيرة من الادب القومي - الغنائى والملحمي -
الذي ازدهر يوماً بين اتراك آسية الوسطى ، وذلك من طريق
النماذج التي اقتبسها محمود الكاشغري (١٠٧٣) في كتابه [ديوان
لغات الترك] وهو اقدم واوسع كتاب لتعليم اللغة التركية
عرفه العرب . أما أول أثر أدبي تركي مستقل ، بعد نقوش اورخون ،
فظهر عقب سقوط الدولة الأويغورية في كاشغر ، بنصف قرن . ففي
هذه المدينة نظم « يوسف خاصّ حاجب » البلاساغوني (سنة
١٠٦٩ - ١٠٧٠) قصيدة تعليمية كبرى للسلطان بغيراخان حسن
ابن سليمان أرسلان قصد بها إلى ان يبرز حكمة الحياة للامراء
بخاصة ، ومن هنا جعل عنوانها « قوداتقو بيليك » اي « علم السعادة » .
ولقد بنى يوسف قصيدته هذه على آراء ابن سينا الفيلسوف وأفرغها

في وزن شعري * مقتبس عن الاوزان الفارسية . وهو يضع مواعظه على السنة شخصيات رمزية من اختراعه ، فواحدة تمثل العدالة واخرى تمثل السعادة ، الى غير ذلك من الشخصيات . وانا تكشف لنا هذه الشخصيات ، على الرغم من ضروب التكلف الساذجة ، عن نواح كثيرة في ما يتصل ببنية المجتمع والدولة في محيط الناظم الثقافي . والحق ان اثر الاسلام الغامر ليس يبدو واضحاً جلياً في هذه القصيدة ، في حين انه اخذ في الوضوح اكثر فأكثر في الادب القومي الذي نشأ على هذا الغرار ، والذي كان يدور ، في الاعم الاغلب ، حول معراج النبي ، وسير الاولياء . ولم يكن الخط الاويغوري يصطنع الا في احوال فردية ، ثم انه افسح المجال شيئاً بعد شيء ، للخط العربي . وجائز ان تكون النسخة الاصلية من قصيدة « قوداتقو بيليك » قد كتبت بهذا الخط العربي ايضاً . اما ما طرأ على الادب التركي الشرقي من تطور جديد اشتد معه الاثر الفارسي وتعاضل ، فلم يتم الا في عهد قيمور وخلفائه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

شاعرا الفرس سعدي وحافظ

وكان الادب الفارسي قد فزع ، إبان الاجتياح المغولي ، الى ولاية فارس في الجنوب الغربي من ايران . وكان احد أتباعه السلاجقة ، من آل سلجور قد استقل سنة ١١٤٨ بتلك الديار واقام فيها دولة عمرت ١٣٠ سنة . ولقد أدى اصحاب هذه الدولة السلغورية الجزية بادی الامر ، الى سلاجقة العراق ثم الى ملوك خوارزم

* هو البحر المتقارب

[المربعات]

واخيراً الى المغول . وفي ظل سعد بن زنكي ، احد اتابكية فارس هؤلاء ، نظم الشاعر سعدي ٦٢ ، بين سنة ١٢٥٦ وسنة ١٢٩١ في مسقط رأسه شيراز ، حيث استقر بعد حياة قلقة مترحلة ، كتابيه الرئيسيين اللذين ينزع فيهما نزعة اخلاقية وهما (كلستان) * او « حديقة الورد » وهو مزاج من الشعر والنثر ، و « بوستان » وهو شعر كله . والواقع ان كل فارسي ، حتى يومنا هذا ، ينظر الى الكتاب الاول (الذي نقله الى الالمانية في عام ١٦٥٤ آدم أوليبروس) كأفضل تعبير عن مظهر من مظاهر الخلق القومي كان سائداً في قوة ووضوح حتى الثورة الوطنية ، اعني النزعة الى التعصب الديني والسخرية ، ومن هنا فهو اقرب الكتب الى قلبه . وكان الامن والسلام قد اصبحا خبراً ماضياً في مدينة الورد شيراز ، ايضاً ، خلال مدة طويلة تقضت بعد سقوط الحكم الايلخاني . وحوالي سنة ١٣٤٠ وفق الى الاستيلاء على المدينة الامير ابو اسحق بن محمود شاه إنجو ولكنه لم يلبث ان اضطر الى التخلي عنها ، سنة ١٣٥٣ ، [لمبارز الدين] محمد المظفري الذي كان يفخر بنسبه العربي الصريح ، الرافي الى احدى القبائل التي نزلت خراسان في اثناء الفتح . ثم ان ابنه [جلال الدين] شاه شجاع خلفه سنة ١٣٦٤ ، وكان قد سجل ، سنة ١٣٥٨ ، عيني ابيه وألقاه في غيابة السجن . وفي عهده لمع اشهر شعراء الفرس الغنائيين جميعاً

وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى مولا سعد بن زنكي .
 * نقل « كلستان » (بالسكاف الفارسية) الى العربية جبرائيل بن يوسف الشهير بالمخلم (القاهرة ١٩٢١) . [المعربان]

شمس الدين محمد ، المشهور في تاريخ الادب باسم « حافظ » (اي الذي يحفظ القرآن) . وكان حافظ من الشيعة الاثني عشرية . من اجل ذلك لم يستطع ان يتمتع بالحرية ويتنفس الصعداء إلا بعد وفاة محمد ، الذي كان سنياً متعصباً . فلما رقي العرش شاه شجاع عطف على حافظ ، واسند اليه ، بناء على اقتراح الوزير قوام الدين حسن احد اصدقاء الشاعر ، تدريس التفسير في المدرسة بشيراز ، فشغل هذا المنصب الى ان توفي سنة ١٣٨٩ ، بعد ان شهد غزوة تيمورلنك . والواقع ان شهرة حافظ طبقت آفاق البلاد الناطقة بالفارسية منذ نشر ديوانه سنة ١٣٦٨ - ١٣٦٩ . وانما تجدد قضاؤه جمال الطبيعة ، اول ما تم به ايد الربيع الخيرة ، على الخصوص ، كما كان يتبدى له في كثير من الاحيان على ضفاف [ركن آباد] وهي القناة التي حفرها ركن الدولة البويهبي سنة ٩٥٠ لارواء سهل شيراز ، وفي متنزه المصلى ، حيث ثوى في مقراه الاخير . إنها ترجع صدى اغنية الهزار الدامعة ، وتغني مباهج الشباب والحجر ، والحب الشاذ الشائع في بلاد الشرق منذ اجيال ، وان تكن قد نزع ، في ما يتصل بالكلام على هذا الحب ، الى التلطف والاحتياط . ليس هذا فحسب . بل انها لتسخر من الرياء بضروره جميعاً ومن اي ضرب آخر من الغلاظة والجهل . وهي تم عن قلب كبير وروح حرة اضطرتها ظروف الوطن البائسة الى الاستخفاف بقيم الحياة كلها ، ونشدان السعادة في الملذات وحدها . واذ خلع في ما بعد على اناشيده الدنيوية هذه جلباباً آخر من المعاني (يذكر بالفاسير الروحية التي وضعها

الكنيسة ليعبر « نشيد الانشاد » النابض بالشهوة) فقد اكتسب هذا الشاعر الساخر الغاوي اتباعاً معجبين في الحلقات الروحية أيضاً .
والحق ان جميع شعراء الفرس والأتراك اهدتوا ، بعد ، بهدي هذه القصائد ، بوصفها نماذج من الغزل ، كاملة ، لا تضاهى .
اما جلال الدين الرومي ولد في بلخ سنة ١٢٠٧ ، وهو أعظم شاعر متصوف في الاسلام ، فنشأ خارج البلاد الفارسية .
ذلك بأن أباه ، بهاء الدين ولد ، تعرض لغضب [قطب الدين] محمد خوارزمشاه ، فاضطر الى ان ينزح عن البلاد .
وبعد ان ضرب في الارض مدة طويلة ، قيس له سنة ١٢٣٦ ان يجد نصيراً وحامياً في شخص الامير السلجوقي علاء الدين كية مقباد في قونية بأسية الصغرى . ولقد اسند اليه علاء الدين هذا منصباً من مناصب التدريس هناك ، حتى اذا توفي خلفه ابنه في هذا المنصب . وما هي الا فترة يسيرة حتى اتصل جلال الدين بالمتصوف شمس الدين تبريزي ، فاجتذبه اجتذاباً كلياً الى حياة التصوف ، فوسم جلال الدين ديوانه في ما بعد باسم شمس الدين هذا : « ديوان شمس الدين تبريزي » . ثم انه انشأ الطريقة المولوية التي انتشرت انتشاراً واسعاً والتي كان لها ، حتى الثورة الوطنية في تركيا ، نفوذ عظيم جداً . وكان « درايش » هذه الطريقة يهدفون الى حالة الوجد الصوفية على انغام الناي .
والحق انه يقدم البناء في كتابه الرئيسي ، مثنوي ٦٣ ، مجموعة غير (٦٣) ويقع في ستة مجلدات .

منظمة ، من الحكايات الموضوعة على السنة الحيوان ، والقصص ،
والتأملات ، مفرغة في قالب شعري رفيع يقصد آخر الامر الى
بسط العناصر الرئيسية في التفكير الصوفي ، والى إفناء « الأنا » في
الوحدة الوجودية . ولقد رفع اتباع جلال الدين كتاب مثنوي مقاماً
علياً يكاد يداني مقام القرآن نفسه ، وانقضت حقبة من الدهر
كان هذا الكتاب يتحكم خلالها في الاستشراف * الفكري الذي
أخذت به أفضل العناصر في الامبراطورية العثمانية .

[ربما سبعة] بعضنا يتبعنا من بيننا له دة لها أن لا تلتفت
كلنا زنة وحبنا را الحقة دة المشغول ايضاً
نا ٢٦٦٦ فنت ما رعية دة فله قمرنا في بيمة نا شعور
والبقية ربنا كاد في مجلسنا به كالمصغرة له لصع ان يصحح
لبيحة انه ربنا كاد فيما نسا نقاء . زرعها قيسنا قيسنا في
لنسه في حيا مقلد في اننا رحة دة تاله ربا مقلدنا بعتنا
في مقلدنا ربنا كاد اننا رحة قيسنا رحة كانه لبع . بسطنا
دنا مقلدنا فله را ليا لالنا فبنته دة زرعنا ربنا ربنا
: انه ربنا رحة دة لالنا في كذا دة ربنا رحة كاد
قربنا دة مقلدنا لينا كذا . دة زرعنا ربنا ربنا
قربنا رحة دة لالنا رحة لالنا ان لالنا
منه دة رحة دة لالنا . لالنا مقلدنا في قيسنا
دنا لالنا لالنا دة مقلدنا لالنا ان لالنا
دنا دة دة لالنا دة لالنا لالنا لالنا

تالنا دة دة (٦٦)

outlook *

١٦١، ٧٩، ٧٨، ١٩	إيرمينية	١٠٣، ١٠٢	أحمد، أبو الفوارس
٢٣٠	أرناط	١٠٦	أحمد الهادي، حمزة بن
٢٩	الأزد	٢١٥، ٢٠٥، ٢٠١	الأحمر، بنو
٢٦٧	أزلغ	١٨٨، ١٢٩	« إحياء علوم الدين »
١٤٩، ١٤٧، ١٤٥، ٢١	اسبانية	٧٣	إخوان الصفاء
١٦٤، ١٥٩، ١٥٣، ١٥١		٩٩، ٩٨	أدریس بن عبد الله
١٩٤، ١٧٥، ١٧٤، ١٦٥		٩٨	أدریس الثاني
٢١٥، ٢٠٣، ٢٠١		١٦٨، ٩٩، ٩٨	الأدراسة
٢٤٣	الاسبانية	١٠٧	الأرتقية (الدولة)
٥١	استانبول	٢١٨	الارتقيون
١١٠	استمي	٢٠١	أرجونة
٣٠	استحق، محمد بن	٢٢٦	الأردن، نهر
١٩٦	الأسكتلندي، ميخائيل	١٤٨	أردون الأول
١٠٣، ١٠١، ٣٨، ٤٧	الأسكتلندية	١٥٢	أردون الثاني
٢١٠، ٢٠٩، ١٤٦		١٥٤	أردون الثالث
٢٤٦، ٢٢٧، ٢٢٤		٢٣٤، ١٩٦، ٩٣، ٢٧	أرسطو
١٠٢	اسماعيل باشا	١٣٥، ١٢٧، ١٢٦	أرسلان، ألب
١١٧، ١١٣	اسماعيل الساماني	٣١٩، ٢١٨، ٢٩٠، ٨١	أرسلان، إيل
٧٣	اسماعيل بن جعفر الصادق	٢٥٧	أرسلان، قتش بن ألب
٢٢٦، ٢٢٧	اسماعيل (الملك الصالح)	١٦٧	أرغل
١٠٥	اسماعيل الدرزي، محمد بن	٢١٥، ١٨٩، ١٤٩	أرغون
١٣٦، ١٢٩، ١٢٢، ٩٩	الاسماعيلية	٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٣	أرغون (خفيد هولاكو)
١٩٤، ١٤٥	أشبونة	١٣٩	أرغون، أرسلان
١٦٨، ١٥٦، ١٥٠، ١٤٨	اشيلية	٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٣	أرغون، غازان بن
١٨٠، ١٧٢، ١٦٩		١٩٧	الأرك
١٨٧، ١٨٦، ١٨٥		٢٤٣، ٢٢٠	الأرمن
		١٦٧	أرمقول (صاحب أرغل)

٢٧٠	الأفلاق	٢٠٠٥، ٢٠٠٣، ٢٠٠٢	
١٤٧، ٣٧	إفريطش (كريت)	١٤٩، ١٤٥	أشوريش
٢٣٤	الأقصى (المسجد)	٢٣٨-٢٣٦	الأشرف (الملك)
٤٠	أفليدس	٤٨	أشروسنة
١٤٥	أقتانزة	١٢٨	الأشعري، أبو الحسن علي
٥٣	أكرم، يحيى بن	١٩١، ١٩٠، ١٣٠	
١٠٣، ١٩	الأكراد	١٢٨	الأشعرية
٢٤٣	الأكراد، حصن	٥٢، ٤٩	إشناس
٢٢	أكس لاشابل	١٦٣	شير
٧٠	« الأكليل »	١٢٥، ٩٣	إصفهان
١١٨	البتكين	٢٣٢	الأصفهاني (ابن العماد)
١٥١، ١٤٢	البيرة	٢٩	« الأصنام »
٢٠٢	البيرة، جبال	٢٠٠، ١٩٧، ١٩٢	الأطلس
٢٥٨	الشمس، شمس الدين	١٩٨، ١٠٠-٩٥، ٢١	الأغالبه
٢٧٦، ٢٧٥، ٢٧٣	الجايتو خدا بنده	٢١	الأغلب، ابراهيم بن
٢٧٦	الجايتو خدا بنده، أبو سعيد بن	٩٦	الأغلب، أحمد أبو ابراهيم
١٥٥	ألس	١٨٣، ١٧٠	أنعامت
٢٤٥، ١٣٢	« الف ليلة وليلة »	١٠٠-٩٨، ٩٥، ٥٥، ٢١	إفريقية
٢٠١	الفونس (ملك قشتالة)	-١٦٣، ١٥٩، ١٥٢، ١٠٨	
١٩٣، ١٨٩	الفونس الاول	١٩٠، ١٨٤، ١٨٠، ١٦٥	
١٤٥	الفونس الثاني	٢٠٥، ١٩٩-١٩٧، ١٩٤	
١٤٩	الفونس الثالث	١٤٥، ١٤٢، ١٤٠، ٧	إفريقية، شمالي
١٨٧-١٨٥، ١٧٠	الفونس السادس	١٨٢، ١٧٠، ١٥٣	
١٩٤	الفونس السابع	٢٣٥	الأفضل (ابن صلاح الدين)
١٩٨، ١٩٧	الفونس الثامن	١٧٤-١٧٢	الأفطس، بنو
٢٠٢	الفونس العاشر	١٥٦، ١١٨، ٥٩، ٥٧	افغانستان
٢٦٥، ٢٦٤	الألماني	٢٣٤	افلاطون
٢٢٠، ١٣١	الألمان	٢٣٦، ١٦٠	الأفلاطونية الجديدة

١٩٩ - ١٩٦٦ - ١٩٤	٢٣٧٤٢٣١	المالية
٢١٢، ٢٠٥، ٢٠٢، ٢٠١	٢٠٢، ١٩٣، ١٨٧، ١٧٧	ألمرية
٢١٥ - ٨٦٦	١٤١، ١٤٠، ١٣٨، ١٣٧	ألموت
٢٢١	٢٦٩، ٢٦٤	ألبي، وادي
١٤٧، ١٢، ٧	١٢٤، ١٢٣	الأياذة
٢٢٢، ٢١٧، ٣٨	١٩٧، ١٨٩، ١٨٨	أليسانة
٢٧٤	٦٤	أماجور
٢٣٢، ٢٣١	١٦٠	أميندقليس
١٢١	٢٢٧، ٢٢٥، ٢٢٤	أمرك
١٠٢	١١	الأموية (الدولة)
٢٣٧	٢٥، ٢٢، ١٠، ٨، ٥	الأمويون
٣٥٤	٩٩، ٨٢، ٤٢، ٢٩	أنوشتكين، محمد بن
١١٥	١١٣، ١١٢، ١٠٠	أنوشروان (كسرى)
١٠٥، ٥٣	١٥٠، ١٤٥ - ١٤٢	اهل الذمة
٢٢٠	١٥٦، ١٥٥، ١٥٣	اوجانيوس الثالث
٢٣٦	١٦٣، ١٦٢، ١٥٩	الأوحد (ابن العادل)
٢٦٩، ٢٦١، ١١٠	١٧١، ١٦٨ - ١٦٥	أورخون، نهر
٢٧٧	٢١٢، ١٧٧، ١٧٤	
٢٠٤، ١٥٥، ١٥٣، ١١٦	٣٧، ٣٣، ٣٢، ٢٨	الأميين
٢٣٢، ٢٣١، ٢٢٥، ٢١٦	٣٣	الأميين، موسى بن
٢٧٦، ٢٦٩	٨	الأنبار
١٤٥، ٤٣	٢٣٦	اندرأوس (ملك الحجر)
٢٠٠	٩٩، ٩٧، ٣٧، ٢٩، ١٢٨	الاندلس
٢٦٠	١٤٣، ١٤٢، ١٣٠، ١٠٠	أوغلمش
١٠٤	١٥٥ - ١٥٣، ١٤٨، ١٤٥	أوقليندس
٢٧٠ - ٢٦٩	١٦٩ - ١٦٥، ١٦٣ - ١٥٩	اوكتاي
٢٧٩	١٨٠ - ١٧٨، ١٧٤، ١٧١	اوليربوس، آدم
٢٦٢	١٩٣، ١٨٨، ١٨٦، ١٨٥	أوتون

١٤٣	بادريون	٢٧٧، ٢٦٤، ١١٢	أوفغور
١٠٨	باديس	٢٧٧	الأويغورية (الدولة)
١٨٤	باديس الزيري ، المغز بن	١١٢٥	الأويغوريون
٢٢٥، ١٧٥، ٩٩	الباطنية	١٧٦	إيبيرية
١٨٠	بالكة ، الاله	٢٤١	ايبك
٢٦٣	بالجيونا	٢٤١	أيبك ، علي بن
٢٢٣	بالس (راجع الكتلن ٤٤)	٥٢٥	ايتاخ
٢٦٧	باميان	٢٧٨، ٢٥٣، ١١٣، ٥٧، ٢٢	ايران
٦٢	بايكباك	١٦	الايرانيون
١٥٢ - ١٥٠	بيشتر ، قلعة	٩٤	الايرانية (الجبال)
٨٨	بجكم الديامي	٢١٥	ايزابل
٢٠٥	بجاية	٢٣٨	ايزابل (زوجة فردريك)
٢٢٨، ٢٠٩	البحر الأحمر	٢٥٠، ٢٣٧	ايطالية
١٥٣، ١١١	البحر الأسود	٢٧٣	الأبليخانية
١١٧	البحر الصيني	٢٧٥	الأبليخانيون
٢٠٤، ١٨٤	البحر المتوسط	١٢٠، ١١٩	أبلك خان
٢٣٠	البحر الميت	١١٤٠	الأبليخانية (الدولة)
٧٥	البحرين	١١٢٥، ١٢٤٥، ٨١٢، ٢٨٠، ٨٨١، ٨٤٨	
١١٩، ١١٣، ٦٢	بخارى	٢٢٦	أبلة
٢٦٦، ١٢٥		٢٢٥، ٢٢٣، ٢٢٢	أيوب بن شادي
٤٣	البخاري	٢٤١	أيوب (الملك الصالح)
٣٩	بختيشوع	٢٢٢	الايوبية (الدولة)
١٢٦	بدران، قريش بن	٢٣٦، ٢٣٥، ٢٢٩	الايوبيون
٣٨	البدنون	٢٦٨، ٢٤٢، ٢٣٩	
٥٧	البدو	٤٨، ٣٧، ٣٥	بابك الخرمي
١٩٤	براز	١٤٠	بابل
١٦٨	براق حاجب	٢٧٠، ٢٦٩	باقو
٣٩، ٢٣، ٢٠، ١٨	البرامكة	٨٤	باخمري

٢٧٣، ١١٢، ١٣	البوذبة	٢٧٧	بغراخان ، السلطان
٢٧٧، ٢٧٣	البوذيون	٤٥	بكر ، أبو (الخليفة)
٢٣٣	البوريون	١٨٤، ١٨٣	بكر ، أبو (زعيم المرابطين)
٢١٢	البوري ، مجير الدين آبق	٢٧٤، ٢٦٤	بكين
٢٧٩	« البوستان »	٣٣	بلاد العرب
٢٣١	بولدوين	٢٥٥	بلاساغون
٢٦٩	بولنדה	١٥١	بلاني ، قلعة
١١٠	بومين	٢٢٤	بلبيس
٩٥	بونة	١١٩، ١١٧، ١١٣، ٥٩، ١٨	بلخ
٢٦٢	بوير نور ، بحيرة	٢٨١، ٢٦٦، ٢٥٥، ١٢٠	
١١٤، ٩٣	بويه ، آل	١١٧	البلخي ، أبو زيد
٩٤، ٩٣	بويه ، أحمد بن	٩٧	بلم
٩٣	بويه ، الحسن بن	١١٦	البلعمي
٩٣	بويه ، علي بن	٢٦٩، ٢١١، ٩٠	البلغار
٩٧	البويهبي ، معز الدولة	٢٦٩	بلغارية
٩٢	البويهبي ، عضد الدولة	٢٣٠	البلقاء
٩٥	البويهبي فخر الدولة ، مجد الدولة بن	١١٠	بلد كافغان
١٢٥، ٩٥	البويهبية ، الدولة	٥٠	« بانكوازي »
١٢٤، ٩٤، ٩٣، ٨٩، ٨٨	البويهيون	١٨٦، ١٧٨، ١٥٥	بلنسية
١٧	بويون ، غودفري دي	٢٠٩	
٩٩١	بياسة	٢٤٤	بيلولوجيس ، ميخائيل
٢٣٢	بيبرس ، الملك الظاهر ركن الدين	١٢٠، ١١٩	البنجاب
٢٧٣، ٢٧٢، ٢٤٧، ٢٤٥ - ٢٤١		١٢٣	بهاء الدولة البويهبي
٢٤٥	بيبرس ، سلاش بن	٢٨١	بهاء الدين ولد (ابو جلال الدين الرومي)
٢١٦، ١٣٦	بيت المقدس	٧٥	بهرام الجنابي ، أبو سعيد الحسن بن
٢٧٣	بيت لحم	٢٥٧، ٢٥٦	بهرام شاه
٢٦٨	بير شاه ، غياث الدين	٢٦٠	البهلوان ، اوزبك بن
١٢١، ١٢٠	البيروني ، ابو الريحان محمد	١٢٤	بهلوي ، الشاه رضا

٢٥٩،٢٥٧	تكش	٢٢٢،١٥٣،٣٨،٢٢	بيزنطة
٢٦٠	تكش ، علاء الدين محمد بن	٣١،١٩،١٢،١٠،٥	البيزنطيون
٢٦٤	تلس	٨٨،٤٩،٤٨،٤٦،٣٨،٣٧	
٢٠٠،١٩٣،١٦٣،٩٩	تلمسان	٢٢٥،٢٢٢،١٢٧،٩٠	
٢٦٣،٢٦٢	توجين	١٠٨	البيزيون
٣٠	تيم	١٧٨	تاشفين ، علي بن
٢٦٨،٢٦٣،١٠٩	التنكت ، بلاد	١٨٨-١٨٣	تاشفين ، يوسف بن
١١٢	التنكتيون	١٥١،١٤٩	تاكرنا ، جبال
٢٢٨	تهامة	١١٠	تانغ (أسرة مالكة في الصين)
٢٠٧	توجين ، بنو	١٤٢،٩٥	تاهرت
٢٤١،٢٣٩،٢٢٩،٢٢٨	توران شاه	٢٦١	التايچيوت
٤٢،٣١	التوراة	١٠٩،٣٢	التبت
٩٤	توزون	٢٧٦،٢٧٥	تبريز
٤٨،٣٨	توفيل	٢٨١	البريزي ، شمس الدين
٢٦١	تولا	٢٦١	التتار
٢١٧	تولوز ، ريمون دي	١٩	تدمر
٢٧٠،٢٦٩	تولوي	١٢٤،١١٩،١١٤،١١٢	تركستان
٢٧٥	تومان (نقود)	٢٥٥،٢٥١	
١٩٢،١٩١	تومرت ، محمد بن	٢٦٧،١٢٥	التركان
٤٢٠٥،١٩٩،١٩٨،١٨٤	تونس	٢٦٠	ترمذ
٢٠٧		١٧٦	اللتروبادور
١١٤،١٠٩	تيان شان (جبال)	٨٤	تستر
٢٧٧	تيان شان (نهر)	٨٤	النستري ، سهل
٦١	تيم الله (قبيلة)	٩٠	تسيمتس ، يوحنا (الدمستق)
٢٨٠،٢٧٨،٢٠٧	تيمورلنك	٢٧٠،٢٥٥	تشوي ، نهر
٢٤٨،٢٤٧	تيمية ، ابن	٢٥٢	تطيلة
١٩٢	تينملل	٨٨	تغلب
٣٨	تاودورس الميصي	٢٢٢	تكريت

٧٣	جعفر الصادق	١٣٣، ١١٧	الجاحظ
٥٤	الجعفري (قصر المتوكل)	٢٧٢، ٢٤٢، ٢٤١	جالوت ، عين
٢٦٩	حقتاي	١٩٨	جامع ، ابن
١٢٥	جفري بك داود	٥٤	الجبال ، بلاد
١٦٦	حليقية	١٥٢	جبل طارق
١٠٧، ١٠٦	الجمالي	٣٩	جبريل ، جرجيس بن
٣٠	الجل ، واقعة	٢٠٩	جبير ، ابن
٦٠، ٣٩	جنديسابور	١٧٩	جيبرول ، سليمان بن يحيى
٢٦٠ ، ٢٥٤ ، ٢٣٨	جنكيز خان	٢٤٥، ٢٠٧	الجراكسة
٢٧٦، ٢٦٩ - ٢٦٣		١٢١، ١١٤، ١٤	جران
٢٦٤	جنكيز خان ، جوجي بن	١١٩	الجرمانية (كركانج)
٢٦٩، ٢٦٨		٧٦	الجرجرائي
١٦٥	جنون ، ابن	١٧٦	الجرمان
١٠٩	الجنويون	١١٠	الجرمانية ، الشعوب
٨٤	البنيد	٢٥٥	الجرجينيون
١٧٢، ١٧١	جهور ، ابن	١٩٨، ١٨٤، ١٨٠، ١٠٨	الجزائر
١٧٢	جهور ، ابو الوليد بن	١٩٤	الجزائر الشرقية
٤٩	الجوسق	١٨٣	الجزولي ، عبد الله بن
٢٢٠	جوسلين الثاني	٢٠٢، ١٨٦، ١٨٥	الجزيرة الخضراء
١٠٣	جوهر	٢١٠، ٤٤	جزيرة العرب
١٩١	الجويني	٢٥٢، ٢٣٩، ٨٨	الجزيرة العليا
٢٠٤	الجاب ، ابن	١٠٠، ٨٩، ٧٨، ٣٢	الجزيرة القراتية
٢٠٢، ١٥١، ١٤٢	جيان	٢١٩، ٢١٨، ٢١٢، ١٤٠، ١٣٩	
١١٩	جيبال	٢٣٧ - ٢٣٥ ، ٢٢٩، ٢٢٧	
٢٥٤، ١٢٧، ١٢	جيحون ، نهر	٢١٩	جمبر (قلعة)
٢٧٠، ٢٥٥		٢١ - ١٩	جعفر البرمكي
١٥٦	جيرالدا ، برج	١٥٢	جعفر (ابن ابن حفصون)
١٠٣	الجزيرة	٧٦	جعفر (اخو المكتفي)

٢٠٥،٢٠٠-١٩٨	حفص ، بنو	٦٧	الجيش ، أبو
١٩٩	حفص ، ابو زكريا ابن أبي	١٧٦	جيلان
١٩٨	حفص ، عبد الواحد بن أبي	١١٧	الجبهاني
٢٣	حفصة ، صروان بن أبي	١٦٦	الحاجب المنصور
١٥٢	حفصون ، حفص بن عمر بن	٢٣٠،٢٢٤،٢٢٢	حارم
١٥١-١٤٩	حفصون ، ابن	٢٨٠،٢٧٨	حافظ الشيرازي
١٥٢	حفصون ، سليمان ابن ابن	١٠٦-١٠٣	الحاكم بأمر الله الفاطمي
١٤٦،١٤٥	الحكم الأول	١٧٩	حبوس ، الأمير
١٦٥،١٦٣،١٦٢،١٥٦	الحكم الثاني	١٥٠	حجاج ، ابراهيم ابن
١٧٧،١٦٨،١٦٧	الحكم ، سليمان بن	٢١٥،٢٠٤	الحجاج ، السلطان يوسف ابو
١٦٦،١٦٤،١٦٣	الحكم ، هشام بن	٢٣٠،٤٣	الحجاز
١٣،١٢	حكيم (التمتع)	٣٨	حران
٩٠٧،٩٢-٨٨،٣٧	حلب	١٧٢،١٣٥،١٣٤	الحريري
٢٢٢،٢٢١،٢١٩،٢٠٩		١٩١،١٧٨-١٧٥	حزم ، ابن
٢٣٦-٢٣٤،٢٢٩-٢٢٧		٢٥١	حسن ، السلطان
٨٥،٨٤	الحلاج	٢٠٢	الحسن ، ابو (المريني)
١٤٠	الحلة	٢٨٠	حسن ، قوام الدين
١٢٦	حلوان	١٦١	الحسن ، محمد عبد الله بن
٢٤٨،٢٣٣،٢٢٨،٢٢٧،٩٩	حماه	٧٧	الحسني ، القصر
٨٨	حمدان ، (مؤسس الدولة الحمدانية)	٣٦،٣٤،٣٣	الحسين ، طاهر بن
٨٨	حمدان ، الحسن بن	٥٨	الحسين ، علي بن
٨٨	حمدان ، الحسين بن	٧١	الحسين ، يحيى بن
٨٨	حمدان ، ابو الهيجاء بن	٥٣،٢٩	الحسين بن علي
٨٨	حمدان ، علي بن	٢٥٦	الحسين ، قطب الدين محمد بن
٧٤	حمدان قرمط	١٤٠-١٣٨،١٣٦	الحشاشون
١٠٢،٩٥،٩٤،٩١،٨٨	الحمدانيون	٢٦٠،٢٥٩،٢٤٣،٢٢٨	
٢١٢،٢١١،٢٠٤	الحمراء	٧٠	حضر موت
٢٢٧،٢٢٣،٢٢١	حمص	٢٣٠،٢٢٩	حطين

٢٠٧-٢٠٤	الخطيب ، ابن	١٠٨	حماد (عم باديس)
٢٠٥	الخطيب ، نجم بن	١٨٤	الحمادية (الدولة)
٢٦٧	الخلج . قبيلة	١٨٥	حمود ، بنو
٢٠٨،٢٠٦-٢٠٤	خلدون ، ابن	١٦٨	حمود ، علي بن
١٥٠	خلدون ، كريب بن	٦٩	حمير
٢٤	خلف الاحمر	٨٣،٥٣،٤٦،٤٤،٤٣	حنبل ، احمد بن
٧٥	الخليج الفارسي	٤٤،٤٣،١١	حنيفة ، ابو
٢٨،٢٧	الحليل بن احمد	٢٩	الحيرة
٦٨-٦٥	خارويه	١٣٣	« الحيوان »
٥٧،٥٦،٤٤،٣٦،١٤	الخوارج	١٩٥	« حي بن يقظان »
١٠١،٩٨،٩٦،٩٥،٨٨		٨٢	حيان ، جابر بن
٩٤،٨٨	خوزستان	٢١٩	الخابور
٢٦٥،٢٥٨،٢٥٥،٢٥٤	خوارزم	٥٤	خاقان ، الفتح بن
٢٧٨،٢٦٧		٣٣	خاتقين
١٢٥	خوارزم (بحيرة آرال)	٢٥٥	ختن
٢٦٦،٢٦٤،٢٥٤	خوارزم مشاه	٢٥٥	ختاي (الصين)
٢٦٦،٢٥٦،١٢١	الخوارزم مشاهية	١١٢	ختاي ، قبيلة مغولية
٢٦٧		٦٠	النجستاني
١١٧،٤١	الخوارزمي	٣١،١٠	« خدائنامه »
١١٣	خوداه ، سامان	٣٦،٢٣،٢٢،١٤،١٣،٦	خراسان
٨٤،٧٨،٦١،٥٩،٥٧	خوزستان	٤١١٤،١١٣،٦٠،٥٨،٣٧	
٢٥٩		٤١٢٨،١٢٥،١٢٣،١١٩	
١٣٧،١٣١،١٣٠	الحيام ، عمر	٢٧٩،١٦٧،١٤٠،١٣٩	
١٧	الخيرزان	١٣،٥	الخراساني ، ابو مسلم
٥٣	دؤاد ، احمد بن أبي	٩٠	الخرز
٢١٣،٢١١	دار الأسود	٢٦٦،١٠٩	الخرز (قزوين) ، بحر
٢٢٠	دار الحديث	٢٦٧	
٩	دار السلام	٢٠١	الخرزج

٩٤٤٩٣، ١٢	الديلم	١٤١	داعي الدعاة
١٧	ديوان التفنيتش	١٤٠	دامغان
١٢٧	ديوجين ، رومانوس	٢٦٩	الدانوب
٢١٠	ذبية المهمل (جزائر)	١٢٧، ١٢٦	داود (أبو ألب أرسلان)
١٠٢، ٩٤، ٨٨	رائق ، ابن	١٧٥	داود ، محمد بن
٨٧	رائق ، علي محمد بن	٢٤٣	الداوية ، فرسان
٨٥	الرازي	٦١٠، ٥٧، ٤٩، ٤٨	دجلته
١٠٢، ٩٣	الراضي (الخليفة)	٢٣٤، ٢٢٠	الدرابوش
١٨٥	الراضي (ابن عباد)	١٧٠	دراج القسطلي ، احمد بن
١٣	الراوندية	١٠٦، ١٠٣	الدروز
١٦٧	رباح ، قلعة	٢٧٣	دقوز خاتون
٢٠٠، ١٩٨	رباط	١٢٣	دقيقي
٣٢، ٢٠	الربيع ، الفضل بن	٢٥	دلامة ، أبو
٢٣	ربيعة ، عمر بن أبي	٢٣٦، ١٨٤، ٤٦٧	الدانا
١٤٤	رتلاند	٢٦٩	دلماسيا
١٠٨، ٩٨	رجار	٢١٠	دهلي
١٥٤	ردمير	١٩	دماوند
١٨٦	رذريق	٦٧-٦٥، ٥٤، ٤١، ٢٠، ١٦	دمشق
٢٢٣، ١٠٧	رزيك ، طلائع بن	١٠٨، ١٠٧، ١٠٢، ٩٢، ٨٩، ٧٤	
٧١	الرس	٢٠٣، ١٦٢، ١٣٩، ١٣٦، ١٢٧	
١٤٢، ٩٥	الرستميون	٢٢٣، ٢٢٠، ٢١٨، ٢٠٩، ٢٠٧	
٧١	الرسبي	٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٦	
١٩٧-١٩٤، ١٨٩	رشد ، ابن	٢٤٨، ٢٤٧، ٢٣٩-٢٣٥	
٢٥٠، ٢٢-١٧، ١٤، ١٢	الرشيد	٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٦، ٢٢٥، ٦٧	دمياط
٤٠، ٣٩، ٣٥، ٣٢، ٣٠، ٢٨، ٢٦		٧٤	الدندانى ، زكرويه
٢٤٤، ٢٣٢، ٦٧، ٥٨، ٤٩		١٢٨	ديار بكر
٢٢٨	رشيد الدين ، سنان	٥٩	دير العاقول
٢٧٥-٢٧٣	رشيد الدين ، وزير غازان	١٦٢	ديسقوريدس

٢٢١،٢١٨،١٦٧	ريوند	٢٠٤	رضوان (الفائد)
٢٢٢	رينولد	١٠٣،١٠٠،٩٧	ر قادة
٩٥،٢١	الزاب (إقليم)	١٠٢،٦٥،٤٩،٣٤،٢٠	الرقعة
١٦٧،١٦٥	الزاهرة ، مدينة	٢٨٠	ر كن آباد (قناة)
٢٢٩،٢٢٨،٧٠	زبيد	٢٨٠	ر كن الدولة البويهي
٣٢	زبيدة	٢٧١	ر كن الدين (زعيم الحشاشين)
١٥	الزراذشتية	١٧٤	الرمادي
١٤٨	زرياب	٢٣٢،٢٢٩،١٠٢،٦٦	الرملة
٤٧	الزط	١٤٩	ر ندة
١١٥	الزقاق	٢٠٥	ر ندة ، حصن
٧٥	زكرويه	٢٠٢	ر ندة ، جبال
٢٨٦	الزلاقة	٢٢٠،٢١٩،٢١٧	الرهاء
٢٠٦	زسرك ، ابن	١١٥	الرودكي
٢٠٠،١٦٣،١٠١	زنانة ، قبيلة	١٣٧	روذبار
٢٣٤،١٧،١٥	الزنادقة	١٣١	روزن
٢٧٥	زنجان ، نهر	٩٠	الروس
٧٣،٦١-٥٩،٥٧-٥٥	الزنج	٢٦٩،٢٦٧،٢٤٦،٢١١	الروسيا
٢١١،١٠٣،٨٢		٢٤١	الروضة ، جزيرة
١٦٥،١٦٠	الزندقة	١٣٤	روكرت
١٥٦	زنكرون ، كنيسة	١٢٧،١٠٣،٩١،٩٠،٦٣	الروم
٢١٨	زنكي ، آل	٧٨	الرومانية، الامبراطورية
٢٢٩	زنكي الثاني	٥١	رومة
٢٧٩	زنكي ، سعد بن	٢٨١	الروي ، جلال الدين
١٧٨،١٥٨	الزهراء	١٢٥،١٢٠،٧١،٣٣،٦	الري
١٧٨	الزهاوي ، ابو القاسم	١٣٩،١٢٦	
٥٢	الزيات ، ابن	٢٠٠	رياح ، بنو
٧٠	زيد ابن ابيه	٢٣٢،٢٣١	ريكاردوس
٩٦	زيدادة الله الاول	١٤٧	ريكافرد

١٢٧	سبران ، إمارة	٩٧	زيادة الله (ثالث الأغالبة)
١١٩، ١١٨	سبكتكين	١٠٠	زيادة الله الثاني
٩٥	سبكتكين ، محمود بن	٩٣	زيار ، مرداويج بن
١٩٤، ١٨٦، ٦٠، ٥٨، ٥٧	سجستان	٢٠٠	زيان ، قبيلة
٢٥٤، ١٢٦، ١١٨		٢١٠	زيتون (تسو - ثونج)
١٦٣، ١٠٠	سجلماسة	١١	زيد بن ابراهيم
٢١٢	سراج ، ابن	٧١	زيد ، الحسن بن
٣٥	سرخس	١١٤	زيد العلوي ، محمد بن
١٠٨	سردانية	٩٣، ٦٩، ٤٤	الزيدية
٤١٨٨، ١٨٦، ١٤٤	سرقسطة	١٨٠، ١٧٢، ١٧١	زيدون ، ابن
٢٠١، ١٨٩		١٩٣	الزيري ، الحسن
٩٧	سرقوسة	١٧٩	زيري ، زاوي بن
٤٠	سرنديب	١٠٨	زيري ، يوسف بلكين بن
١٣٤	السروجي ، ابو زيد	١٨٤	الزيرية ، الدولة
٤٨، ٣١	سعد ، ابن	١٨٣	زينب (ارملة أمير أنمات)
٩١	سعد الدولة	٨٦	الساج ، يوسف بن أبي
٢٧٩، ٢٧٨	سعدي (الشاعر)	٤٦، ٣٩، ١٦، ١٠-٨	الساسانيون
٢٩٥	سعيد ، الامير أبو	٢٠٥، ٢٠٤	سالم ، السلطان ابو
٢٠٤	سعيد ، أبو	١٦٧، ١٦٤	سالم ، مدينة
٧٥	سعيد ، ابن أبي	١١٣	سامان
٢٠٠	السعيد (الخليفة)	١١٩	الساماني ، منصور بن نوح
٩١	سعيد الدولة	١١٩	الساماني ، نوح
١٨٠، ١٥٠، ٦٥	السفاح	١٢٥، ١١٩-١١٣	السامانيون
٨٤	السقطي	٥٧، ٥٥، ٥٤، ٥٠، ٤٩، ٢٥	سافرا
٢٠٥، ٢٠٠، ١٨٩	سلا	٩٦، ٦٨، ٦٤، ٦٢	
١٢٧-١٢٤، ١٠٨، ١٠٧	السلاجقة	٦٩	سبأ
٢٢١، ٢١٨-٢١٦، ١٣٥، ١٣٠		١٦٥، ١٥٢، ١٠٣، ١٠١	سبته
٢٧٨، ٢٦٨، ٢٥٤، ٢٣٨		١٩٥، ١٨٦، ١٨٥، ١٦٢	

٦٤٤٤٨٠٤٣٠٣٣٠٣٢٠٢٠	سورية	١٩٥	سلامان
٤٨٨٤٧٨٠٧٥٠٧٤٠٦٧٠٦٥		٢٠٧	سلامة ، ابن
١٤٥٠٠١٣٨٠١٣٦٠١٠٧٠١٠٦		١٢٥٠١٢٤	سلجوق
٤٢١٩ - ٢١٦٠٠١٤٥٠١٤٢ -		١٤١٠١٣٨	السلجوقية ، الدولة
٢٤٠٠٤٢٣٥٠٢٢٩٠٢٢٧٠٢٢٤		٢٧٦٠٢٧٥	السلطانية ، مدينة
٢٦٨٠٢٥٠٠٢٤٩٠٢٤٥٠٢٤١		٢٧٨	سلفر ، آل
٢٧٣		١٨	سلامة ، أبو
٢٢٤٠١١٢٠٣٨	السوريون	٩٩	سلمية
١٩٣ - ١٩١٠٣٩٠٨٤٧	السوس	١١٢	سلمفة ، نهر
٢١٠	سومطرة	١٤٨	سليط ، وادي
١٢١٠١٢٠	سومنات ، هيكل	١٨٤	سليم ، بنو
١٠٣	السويس	١١٨	سليمان ، جبال
٢٦	سيريون (القديس)	١٤٤٠١٤٣	سليمان العربي
٢٨	سبويه	١٣٦٠١٢٥٠١١٣٠٣٢٠٢٢	سمرقند
٢٦٦	سبيريا	٢٦٦٠٢٥٥	
١٢٥	سجوح	١٣	سنام ، قلعة
١٩٤٠١٨٨	سير ، بن ابي بكر	٦	سنباذ
١٠٢٠٩٢٠٨٩	سيف الدولة	٢٢٩	سنجار
٢٢٨٠٢٢٧	سيف الدين	٢٥٥٠٢٥٤٠١٤٠٠١٣٩	سنجر
١١٧	سيلان	٢٥٧	
٢٧٧٠١٩٥٠١١٦	سينا ، ابن	٢٦٧٠٥٩	السند
١٠٢	سينا ، شبه جزيرة	١١٥	السندباد
٢٣٠	شاتيون ، راجينالد دي	٤٠	« السند هند »
٢٢٢	شاذي الكردي	١٨٤ - ١٨٢٠١٦٣	الستغال
١٤٤٠١٤٣٠٢٢٠٢١	شارلمان	٢٣٤	السهروردي
١١٣	الشاش	٣٦٠٣٤٠٣٢	سهل ، الفضل بن
١٧٧	شاطبة	٣٦	سهل ، الحسن بن
٢٣٥٠٢٢٤٠٤٣	الشافعي	٢٥٦	سوري ، آل

٢٢٤-٢٢٢،١٠٨	شيركوه	٥٢	الشافعية
٢٣٣	شيرز	١٥٦،١٢٩،٨٩،٦٦،٦١	الشام
١٣٧،١٢٢،٩٨،٩١،٣٥	الشيعة	١٨٠	
٢٨٠،٢٧٢،٢٢٥		٩١	الشام ، بادية
٧٣	الصائبة	٢٦٣،٢٦١،١٣	السامانية
٧٥	صاحب الخال	١٦٦	شانت ياقو
٧٥،٧٤	صاحب الناقة	١٩٤،١٦٦،١٥٤،١٥٢	شانجه
٢٣٩،٢٣٨	الصالح اسماعيل	٢٨٠،٢٧٩	شاه شجاع
٢٣٩،٢٣٨	الصالح ، أبوب	١٢٣	« الشاهنامه »
١٤٠،١٣٨،١٣٧	الصباح ، الحسن بن	٢٢٣	شاوور
١٦٥،١٦٣	صبيح	٧٠	شيام
١٨٤،١٨٣،١٨٠	الصحرء الكبرى	٣٧	شيث ، نصر بن
٢٠٠		١٧٩	شبروط ، حسداي بن
١٤٠	صدقة ، أبو	٢٤٠-٢٣٨	شجرة الدر
٧٢،٧١	صدقة	٧٠	الشجر
١١٢	الصفد	٢٣٣	شداد ، بهاء الدين بن
٦١،٥٨	الصفار ، يعقوب	١٥١	شربند
٢٥٤،١١٣،٥٧	الصفارية	١٥٠	الشرف ، اقليم
١١٦،٧٠	« صفة جزيرة العرب »	٢٢٢،٢١٦،١٣٧	الشرق الأدنى
٢٤٣	صفد	٢٥٣،٢٤١	
٢٤٦	الصفدي ، خليل بن ابيك	٢١١	الشرق الاقصى
٢٣٠	صفورية	٢٠١	شريس
٤٥	صفوان ، جهم بن	١٤٤	الشرقي ، باب
٣٠	صفين	١٩٤	شنترين
١٦٤،١٥٤،١٥٣،١١١	الصقالبة	١٦٦	شجول (عبد الرحمن)
١٦٨،١٦٥		١٧١	شهيد ، ابن
١٩٣،١٠٨،٩٨،٩٧،٩٥	صقلية	٢٢٦	شوبك
٢٣٧،٢٣١،٢٢٧،٢٠٩،٢٠٣		٢٨٠،٢٧٩،٩٣،٥٩	شيراز

٥٧،٣٣	الطاهرية (الدولة)	١٩٤	الصقليون
٣٤	طباطبا ، محمد بن ابراهيم بن	٢٠٩،١٠٨،٦٤	صلاح الدين الأيوبي
١٩٣،٧١،٥٩،٣١،١٩	طبرستان	٢٣٩، ٢٣٦ - ٢٢٤	٢١٦
١٢٥،١١٤		٢٤٤،٢٤٠	
١١٦،٤٢،٣١-٢٩	الطبري	٢١٨-٢١٦،١٤٠،١٠٧	الصليبيون
٢٠٨،١٢٢		٢٣٧-٢٣٥،٢٣٠،٢٢٩،٢٢١	
٢٣٠	طبرية ، بحيرة	٢٤٣،٢٤٠	
٣١	« الطبقات »	١٤٢	الصميل الكلاني
٥٩	طخارستان	٢١٨	صنجيل ، جبل
٢٢١،٢١٨،٢١٧	طرابلس الشام	٢٢٩،٢٢٨،١١٦،٧١-٦٩	صنعاء
٢٣١		١٨٢،١٦٣	صنهاجة
١٩٣،٩٥	طرابلس الغرب	٢٣١،١٠٧	صور
٢٧٠	طراز ، نهر	١٦٠،٨٤-٨٢	الصوفية
٦٦،٦٢،٤٦،٣٨	طرطوس	٢٣٨	صيدا
٢٧٧	طرفان ، مدينة	٢١٠، ١١٠، ١٠٩، ٣٢	الصين
٢٠٩،٢٠٤،٢٠٢	طريف ، جزيرة	٢٦٤،٢٦٣،٢٦١،٢٦٠،٢٥٥	
١٠٢،١٠١	طنج ، محمد بن	٢٧٦،٢٦٨	
١٠٢	طنج ، علي ابن ابن	٢٢٣	ضرغام (القائد)
١٢٧-١٢٥،٩٥	طغرلبك	٩٤	الطائع (الخليفة)
١٩٦-١٩٤	طفيل ، ابن	٢٠٦،٢٠٢	طارق ، جبل
١٥٢،١٤٩-١٤٦،١٤٣	طلبطة	٥٦،٤٤،٣٠،٢٩	طالب ، علي بن ابي
١٨٦،١٨٥،١٧٠-١٦٨		٢٥٩، ٩٩، ٧٤	
٢١٠،١٩٥،١٨٤،١٠٣	طنجة	١١٣،٧١،٥٩،٥٨	طاهر ، آل
٦٦	الطواحين	٥٩	طاهر ، ابن
٩٠	طورس ، جبال	٢٥٤	طاهر ، تاج الدين بن
١٣٠،١٢٤،١٢٣،٣٥،٢٢	طوس	٣٧،٣٦	طاهر ، طلحة بن
٢٧٢،٢٧١	الطوسي ، نصير الدين	٣٧	طاهر ، عبد الله بن
١٥٤	طوطه (الملكة)	٥٥،٥٤	طاهر ، محمد بن عبد الله بن

٢٠٠	عبد الحق ، ابو يحيى بن	٦٧،٦٥-٦٢	طولون ، أحمد بن
٢٠٢	عبد الحق ، ابو يعقوب بن	٨١،٦٨	
١٧٤	عبد ربه ، ابن	٦٥	طولون ، العباس بن احمد بن
١٦٦	عبد الرحمن (ابن الحاجب المنصور)	١٠٣،٧٥،٦٨-٦٦،٦٢	الطولونيون
١٤٣،١٤٢،٢٩	عبد الرحمن الداخل	١٠٨	الظاهر (الخليفة)
١٥٦،١٤٦،١٤٤		٢٣٥	الظاهر (ابن صلاح الدين)
١٥٦،١٤٧	عبد الرحمن الثاني	٢٣٤	الظاهر (اخو صلاح الدين)
-١٥١،١٠١	عبد الرحمن الثالث	٢٧٢	الظاهر العباسي
١٦٧،١٦٢-١٦٠،١٥٨،١٥٦		٢٣٦،٢٣٥،٢٣٢	المعالذ ، الملك
١٧٩،١٧٧		٢٣٨	العادل (ابن الكامل)
١٧٧	عبد الرحمن الرابع	٢٢٥-٢٢٣،١٠٨	المعاضد الفاطمي
١٧٧	عبد الرحمن الخامس	١٧٦،١٦٦	العاصمية (الدولة)
١٤٤	عبد الرحمن ، هشام بن	١٢٦	عانة
٧٠	عبد الرحمن ، يعفر بن	١٦٨	عباد ، بنو
١٢٣	عبد الرزاق ، ابو منصور بن	١٦٩	عباد ، محمد بن
١٠٠	عبد الله ، ابو	١٧٢،١٧٠،١٦٩	عباد ، المعتمد بن
٧٤	عبد الله ، أبو (القرمطي)	١٨٧-١٨٥	
١٥١،١٥٠	عبد الله ، (الامير الأموي)	١٧٢	عباد ، المعتضد بن
١٥٦		٨٥	العباس ، حامد بن
٩٨	عبد الله بن الحسن ، ادريس بن	١٦	العباس ، ابو
١٠٢	عبد العزيز ، (العثماني)	٢٠	العباسية (اخت الرشيد)
٢٠٦	عبد العزيز (المريني)	٦٧	العباسية ، مدينة
١٦	عبد القدوس ، صالح بن	٢١	العباسية ، مدينة
٧٥	عبد القيس ، قبيلة	٦٢،٣٤،٢٣،١٠،٧،٥	العباسيون
١٩٥،١٩٣،١٩٢	عبد المؤمن بن علي	١٣٦،١١٨،١١٦،١١٣،٩٧	
١٩٩		١٧٥،١٥٨،١٥٣،١٤٧،١٤٢	
٢٠٩	عبد المؤمن ، ابو سعيد بن	٢٤٩،٢٤١	
١٦٦	عبد الملك (ابن الحاجب)	٧٤	عبدان

٤٨٤٤٧، ٩٦، ٩٨، ١١١،	عبد الملك الاول (الساماني)	١١٨،
١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٣١، ١٣٥،		١١٩
١٤٢، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١،	عبد الملك ، هشام بن	١١٣، ٧١، ٤٤،
١٨٢، ٢٠٠، ٢٣٧، ٢٥٣،		١٤٢
العرب، بلاد	عبد النبي (حفيد المهدي)	٢٢٩
٢٠٣، ٢٠٢	عربي، ابن	١٩٩
٢٢١	عريضة ، حصن	عبد الواحد الثاني
١٦٠-١٥٨	العروس ، جبل	عبد الواحد (خليفة الموحدين)
٢٣٩	عز الدين أبيك	١٩٩
١٨٤، ١٠٤	العزير (الفاطمي)	عبد الواحد ، عبد الله بن أخي
٢٣٥	العزير (الأيوبي)	عبد الواد ، يعمر اسن بن
٢٣٢، ١٠٧	عسقلان	٢٠٢، ٢٠٠
٩٥	عضد الدولة	عبدوس ، ابن
٤٥	عطاء ، واصل بن	عبدون ، ابن
١٩٨	العقاب ، حصن	عبد يشوع (الاسقف)
٩٦	عقبة ، مسجد	١٣٤
١٧٤	« العقدة »	عبيد ، عمرو بن
٢١٩، ١٢٦	العقيلية (الدولة)	٤٥
٢٣١، ٢٠٩	عكا	عبدالله (ابن الفاطمي محمد)
١٩٩	العلي ، ابو	١٠١، ١٠٠
٢٦٠، ٢٥٨	علاء الدين محمد الثاني	العناية ، أبو
٢٦٠	علاء الملك العلوي	٨٢، ٢٥
٢٦	علان الشعوبي	١٢٢
٥٣، ٤٤، ٣٤، ١٤، ٨-٦	العلويون	عثمان (الخليفة)
٢٦٠، ٩١، ٧٠، ٥٤		٤٥٤١،
٢١٥	علي ، ابو الحسن	العثمانية (الامبراطورية)
٥٩	علي ، الحسن بن زيد بن	٢٨٨
١٩٣	علي ، تاشفين بن	١٣٦
		عثمانيون
		عدوة الاندلسيين
		العراق
		٥٥، ٥٤، ٤٦، ٤٣، ٨، ٦
		٨١، ٧٨، ٧٥-٦٩، ٦٤، ٦٠
		١٢٤، ٩٥-٩٣، ٨٩، ٨٨، ٨٢
		٢٠٩، ١٤٨، ١٢٨، ١٢٦-
		٢٧١، ٢٥٨، ٢٥٣، ٢٤٣، ٢٢٢
		٢٧٨، ٢٧٥
		العرب
		٤٢، ٣٠، ٢٨، ٢٦، ٢٠

١٤٨	الغزال ، يحيى بن الحكم	١٧٥	علي ، داود بن
١٨٧ ، ١٣٠ ، ١٢٩	الغزالي	٧١٧٠ ، ٥٦	علي ، زيد بن
١٩١ ، ١٨٨		١٦	علي ، سليمان بن
١٢٤ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٨	غزنة	١٩٤ ، ١٩٢	علي ، عبد المؤمن بن
٢٦٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ١٢٥		١٦٠ ، ١٥	علي ، عيسى بن
٢١٩	الغزنوي ، اسماعيل	٧٤	العليص ، بنو
١٢٥ - ١١٩	الغزنوي ، محمود	٢٢٢ ، ٢٢٠ - ٢١٨	عماد الدين زنكي
١٢٥	الغزنوي ، مسعود بن محمود	١٧٢	عمار ، أبو بكر بن
٢٥٦ ، ١٣٦ ، ١٢٥	الغزنوية (الدولة)	٩٢ ، ٧٨	عمان (بالضم)
٢٥٨ ، ٢٥٤	الغزنيون	٤٥	عمر (الخليفة)
٤٨	غلاطية	٣٠	عمر الأسدي ، سيف بن
٢٠٩	غليام الصالح	١٧٣	عمر المتوكل
١٩٧	غمارة ، قبيلة	١٨٣	عمر ، يحيى بن
٢٦١	غوني ، صحراء	٦٠	عمرو (اخو يعقوب الصقار)
٢٥٦	الغور ، بلاد	٤٨	عمورية
٢٥٨	الغوري ، معز الدين	٢٤٥	عنتر ، سيرة
٢٥٦	الغورية (الدولة)	٣٣	عيسى ، علي بن
٢٥٧	الغوريون	٢٧	« العين » ، كتاب
٢٣٦	الغائز (ابن الملك العادل)	٤٧	عين زربة
٩٢	الغارابي	٢٢٦ ، ٢١٩	غازي ، سيف الدين
٩٢ ، ٨٤ ، ٧٨ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٧	فارس	١٦٥ ، ١٦٤	غالب (صاحب مدينة سالم)
١٢٨ ، ١٢٥ ، ١١٦ ، ٩٩ ، ٩٥ ، ٩٣		١٩٨	غاينة ، يحيى بن
٢٥٤ ، ٢١٠ ، ١٤٦ ، ١٣٩ - ١٣٧		٢٦٩	غران
٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨		١٩٥ ، ١٨٩ - ١٨٥ ، ١٧٩	غرناطة
٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧١		٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ - ٢٠٤ ، ٢٠١	
٢٠٠ ، ١٩٨ ، ١٨٤ ، ١٦٣	فاس	٢١٥ ، ٢١٢	
٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٦		٢٣٧	غريغوريوس التاسع
٢٣٣	الفاضل ، القاضي	٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ١٢٥ ، ١٢٤	الغز

٢٦٧	فروان	٩٩٠٥٦	فاطمة
٢٣٥، ٢٢٤، ٦٧، ٦٤، ٤٣	الفسطاط	١٠١، ٩٩، ٩١، ٨٩	الفاطميون
١٧٧	«الفضل في الملل والاهواء والتجمل»	١٢٧، ١١٧، ١٠٨، ١٠٦، ١٠٤	
٢٠٣	«فضوس الحكم»	١٦٣، ١٥٣، ١٥٢، ١٣٧، ١٣٦	
١٥٢	فلتيرة	٢٣٣، ٢٢٥، ٢٢٣، ١٩٠، ١٨٤	
١٨٠، ١٠٢، ٦٧، ٦٦، ٦٣	فلسطين	٢٥١، ٢٣٤	
٢٣٨-٢٣٦، ٢٢٩، ٢٢٦		٢٠٣	«الفتوحات المكية»
٢٧٢، ٢٤٣، ٢٤٢		٢١٩، ٤٩، ٣٤، ٢٠، ٨	القرات
١٥٥	فنسنت ، القديس	٧٧	القرات ، ابو الحسن بن
١٤٣	فهر ، قبيلة	٩١	فراس ، ابو
١٣٢	«الفهرست»	٢٣١	فردريك الاول
١٤٢	الفهري ، يوسف بن عبد الرحمن	٢٣٨-٢٣٦، ٢٠٣، ٩٨	فردريك الثاني
١٤٣		١٢٤-١٢٢	الفردوسي
١٥	الفهلوية	١٥٣	فردون
٩٠	فوكاس ، برزوس	١٧٣، ١٧٠، ١٦٩	فرديناند الاول
٢٦٧، ٢١١، ٢١٠	القولغا ، نهر	٢١٥	فرديناند الثاني
٢٧٠، ٢٦٩		٢٠٢، ٢٠١، ١٩٩	فرديناند الثالث
١٣١	فيتزجيرالد	٤٢، ٢٨	الفراء
٢٣١	فيليب أوغسطس	٢١٨	فرخشاه
١٠١	القيوم	٦٩، ٤٧، ٤٢، ٣١، ٢٦، ١٨	الفرس
١٢٦، ١٠١	القائم (الفاطمي)	١١٤، ١١٠، ١٠٩، ١٠٢، ٨٥	
٩٤	القادر (الخليفة)	١٣٢، ١٣١، ١٢٤	١٢٢، ١١٦
١٨٦	القادر ، الملك	٢٧٢، ٢٦٢، ١٦١، ١٥٩، ١٣٤	
٢٦٥، ٢٦٤	القارلوق	٢٧٩، ٢٧٨	
٧١	القاسم بن ابراهيم	١١٣، ١٠٢، ٢٤	فرغانة
٣٢	القاسم بن هرون	٢٢٠، ٢١٨، ١٥٩، ١٤٤	الفرنجة
٢١٢	قاعة الأختين	٢٣٩، ٢٢٧-٢٢٤، ٢٢١	
٢١٢	قاعة السفراء	٢٣٩، ٢٣١، ٢٢٠، ١٥٣	فرنسة

٧٣	قرمط ، حمدان	١٧٤،١٦١	القالي ، أبو علي
١٧٤	قرمان ، ابن	١١٦	« القانون »
١٣٧،٧١،٥٩	قزوين ، بحر	٩٣،٨٧،٨٦،٨٠	القاهر (الخليفة)
٩٧	قسطنطين الرابع	٢٠٧،١٦٣،١٠٣،٦٤	القاهرة
٢١٠،١٦٢،١٥٨،٩١	القسطنطينية	٢٤٢،٢٣٥،٢٣٤،٢٢٣،٢٠٩	
١٨٧،١٨٥،١٦٩،١٥٤	قتالة	٢٥١،٢٤٨	
٢٠٢،٢٠١،١٩٨،١٩٧،١٩٤		٢٧٣	القبائل الذهبية
٢١٥،٢٠٥		٢٤٦،٢٢٢	قبرس
١٢٠	قشمير	٢٧٠،٢٦٧،٢٤٦	القبقي (القوقاز)
١٩١	القشيري	١٢٧	قشلمش
٢٥٩	القصاب ، مؤيد الدين بن	١٣٦	قشلمش ، سليمان بن
٦٨،٦٧،٦٤	القطائع	١٩	قحطبة
٦٧	قطر الندي	٢٢٧،٢٢٤،٢١٧،١٠٧	القدس
٢٤٢،٢٤١	قطز	٢٣٩-٢٣٧،٢٣٣-٢٢٩	
٢٦٤	قفجاق ، قبيلة	٥٣،٤٥،٤٣-٤١،٣١،٢٦	القرآن
١٦٦	قلانس	٢٨٢،٢٨٠،١٩١،١٧٥،٩٩،٨٣	
٢٥١،٢٤٥	قلاوون	١٢٥	القراخانية
٣٢	ففسرين	٢٥٨،٢٥٧،٢٥٥	قراختاي
٢٧٨،٢٧٧	« قوداتقو بيليك »	٢٦٤،٢٦١	
٢٦٣	قورولتاي	٨٥،٨٢،٧٦-٧٢،٧٠،٦٧	القرامطة
٢٢٣	قوص	٢٣٤،١٨٤،٩٩،٨٨،٨٦	
١٧٩،١٥٦	القوط الغربيون	٢١٠	قرطاجنة
١٦١	القوطية ، ابن	١٥٤،١٥٢-١٤٦،١٤٣	قرطبة
١٢	القوقاز (القبقي)	١٦٤،١٦٢،١٦٠-١٥٨،١٥٥	
٢٨١	قونية	١٧٦،١٧٤،١٧٢-١٦٧،١٦٥	
٢٦١	قيات ، أسرة	١٩٤،١٩١،١٨٨،١٨٠،١٧٨	
٢٣٨	القيامة ، كنيسة	٢٠١،١٩٧،١٩٦	
٢٦٤،٢٥٥،١٢٤،١١٢	القيبرغيز	٢١٠	القرم ، شبه جزيرة

٤٢،٢٩	الكلبي ، محمد	١٦٣،٩٧،٩٦،٢١٩،١٤	القيروان
٢٩	الكلبي ، هشام بن	١٨٤	
١٤٢،٣٧	الكلبية	١٤٢،٣٧	القيسية
١١٠	كلتسكين	٦٧،٤٧	قيليقية
٢٧٩	« كلستان »	٢٦٧،١٢٧،١١٩،١١	كابل
١١٥،١٥	« كليلة ودمنة »	١٢٠	كابليستان
٢٦٤-٢٦٢	كن ، سلالة	٣٩	كاردانو
١٢٢	كننج ، رستاق	٢٧٧،٢٥٥،١٣٦،٣٢	كاشغر
١٢٠	الكننج ، نهر	٢٧٧	الكاشغري ، محمود
٤٠،٣٩	الكنندي	١٠٤،١٠٢،٩٢	كافور الأخشيدي
٢٦٤	كوجلج خان	٢٣٨-٢٣٦	الكامل (ابن العادل)
١٠٨	كورسيكا	٢١٠	كاتون
١٧٦	كورة لبله	١١٢	كانشو
٢٨،٢٤،١١،١٨،٧،٥	الكوفة	٤٨	كاوس ، حيدر بن (الافشين)
٩١،٨٢،٣٤،٣٠		١٠٤	كبلر
٥١	كولون	٢٣٣	« كتاب الاعتبار »
١٤٨	كونت بيرزا	١٠٠	كتامة ، قبيلة
٢٢٠	كونراد الثالث	١٢٠	كجرات
٢٧٠	كويوك	٢٦٢،٢٦١	الكرايت ، قبائل
٢٧١	كيولين العليا	٥٣،٣٥،٣٠	كربلاء
٢٨١	كيقباد ، علاء الدين	١٢٠،٩٣	السكرج
٢٥٧،١٢٠	لاهور	٩	السكرخ
١٠٦	لبنان	٨٤	السكرخي ، معروف
١٦٩،٢٩	لخم ، بنو	٢٤٣،٢٣٨،٢٣٠،٢٢٦	السكرج
٢٣٢	اللد	٢٦٨،٩٣،٥٨	كرمان
١٨٣،١٨٢	لتونة	٢٨	الكساني
٦٥،٦٤،٦١	لؤلؤ	١٣	كش ، مدينة
٣٨	لؤلؤة ، حصن	٢٠٧،٧٥	السكرجة

٦١٢	المناويون	١٨٧، ١٨٦	لورقة
١٦	ماني	٢٣٠	لوسيفيان ، غي دي
٢٢٢	مانيول الاول	٢٣٩، ٢٣٨، ٢٢٠	لويز التاسع
٢٥	ماهان ، ابراهيم بن	٣٢، ٢٢	ليث ، رافع بن
١١٣، ٤٧، ٣٣، ٢٢	ما وراء النهر	١١٤	الليث ، عمرو بن
٢٥٤، ١١٤		٢٥٥	لياو ، سلالة
١٠٢، ٩٣، ٨٨	المتقي (الخليفة)	١٨٧، ١٨٦	الليط
١٣٥، ٩٢، ٩١	المتقي (الشاعر)	١٥٨	ليو ، الامبراطور
٥٤-٥٢، ٤٦	المتوكل	١٤٩	ليو كرشيا
٢٨١	« مثنوي »	١٦٦، ١٥٤، ١٥٢، ١٤٨	ليون
١٢٠	مجد الدولة البويهى	٢٠١، ١٨٥، ١٦٩	
٢٣٦	الخير	٢٣٠	مؤاب
٤٠	الجسطلي	٤٦، ٤١-٣٢، ٢٨، ٢٦	المأمون
٤٣، ٤٢، ٣١، ٣٠	محمد (الرسول)	١٩٩، ١١٣، ٧٠، ٥٣، ٤٧	
١٣٠، ١٢٩، ٨٣، ٧١، ٧٠، ٤٥		٤٩، ٤٦	المأمون ، العباس بن
٢٧٨، ٢٥٩، ٢٠١، ١٤٧		١٢١	المأمون ، محمد بن علي بن
٥٣	محمد (ابن المتوكل)	٧٥	المؤمنية
١٩٩	محمد ، ابو (حاكم بياسة)	١٠١، ٨٧، ٨٦، ٧٧	مؤنس الخادم
٢١٥	محمد ، ابو عبدالله	٥٤	المؤيد ، ابراهيم
١٤٠، ١٣٩	محمد (اخو بركيارق)	٢٥٧	المؤيد (الوصي)
١٥٦، ١٤٩، ١٤٨	محمد الأول	١٥٢، ١٤٨	ماردة
٢١٢	محمد الاول الغالب	٢١٨، ٨٨	ماردين ، قلعة
٣٠٢	محمد الثاني	٢١١، ١٣٨	ماركو بولو
١٦٦	محمد الثاني المهدي	٧١	مازندران
٢٦٨، ٢٦٧	محمد ، جلال الدين بن	١٨٧، ١٨٦، ١٦٨، ١٤٩	مالقة
١٠٠، ٩٩	محمد الحبيب	١٩٩، ٤٣	مالك (الامام)
٢٠٥	محمد الخامس	١٩٤	المالكية
٢٨١	محمد خوارزمشاه (قطب الدين)	٢٧٧، ٧٣، ٤٦، ٤٥، ١٥	المانوية

٢١٦	المراسية (الدولة)	١٠٧	محمد ، السلطان
١٦٩	مرسية	١٩٨، ١٨٦، ١٧٢	محمد ، عباد بن
١٧٣		٢٠٣، ٢٠١	محمد ، عبد الله بن
٥٦	مرعش	٩٠	محمد ، علي بن
٧	الركبت ، قبائل	٢٦٤	محمد العلوي
١٤٢	مرو الروذ	١٢٥، ٣٤، ٣٣، ٢١	محمد ، مروان بن
٨٤، ٨٣	مروان ، ابن	١٢٨	المحاسبي
٧٨	مروان ، عبد الرحمن بن	١٤٩	المحسن (ابن ابن الفرات)
١٣٩	مروان ، عبد الملك بن	٢٣، ٩	محمود (اخو بركيارق)
٢٥٧	مزين ، بنو	٢٠٣، ٢٠٠	محمود (ابن اخي سنجر)
١٣٠	المريني ، ابو الحسن	٢٠٥	محمود السلجوقي
٢٧٩	مزاحم ، نصر بن	٣٠	محمود شاه انجو ، ابو اسحق ابن
٣٠	مزدك	١٦، ١٤	المختار الثقفي
٦١، ٥٦	مزيد ، بنو	١٤٠	المختارة
٢٩	المستظهر (الخليفة)	١٣٩	مخنف ، أبو
٨٠٦	المستعصم (الخليفة)	٢٧٢	المدائني
٦٣	المستعين (الخليفة)	٦٢٠، ٥٥، ٥٤	المدير ، احمد بن
٥٥٥، ٣٠، ٢٥، ٨	المستكفي (الخليفة)	٩٤	المدنية (يثرب)
٧٩، ٧٢، ٧١	المستنصر (الخليفة)	٢٧٢	المرابطون
١٨٩، ١٨٥ - ١٨٠، ١٧٣	المستنصر الساماني	١١٩	
٢٠٢، ١٩٨، ١٩٤ - ١٩٠	المستنصر الفاطمي	١٨٤، ١٢٦، ١٠٦	
٢٧١	المستنصر ، ابو العباس	٢٠٦	مراغة ، مدينة
١٦٨، ١٥٢، ١٠٠، ٩٨	المستنصر ، المستعلي بن	١٠٧	مراكش
١٩١، ١٨٩، ١٨٤، ١٨٣، ١٧٠	المستنصر ، نزار بن	١٣٧	
٢٠٠، ١٩٩، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٢	مسرة ، ابن	٢٠٣، ١٧٩، ١٦٠	
٢١٥، ٢١١، ٢٠٦ - ٢٠٤، ٢٠٢	مسعود ، عز الدين	٢٢٩	مرج عيون
٢٢٩	المسعودي	٢١٧	
٤٤	مسلم (المحدث)	٤٣	المرجثة

٨٩	معز الدولة	٣٥٠١٩٠٦	مسلم الخراساني ، أبو
٣١٠٣٠	معشر ، أبو	١٦٤٠١٦٢	المصحفي ، جعفر
٢٣٧٠٢٣٦	المعظم (ابن العادل)	٠٦٩٠٦٧-٦١٠٤٣٠٣٧٠٦	مصر
١٢٢	المعمري ، أبو منصور	٠٩٩٠٩٦٠٩٤٠٩٢٠٨٩٠٨٠٠٧٨	
٠٢٣٦٠٢٠٧٠١١٢٠١٠٩	المغول	٠١٣٧٠١١٧٠١٠٨٠١٠٠٤-١٠١	
-٢٥٣٠٢٤٥٠٢٤٣-٢٤١		٠٢٠٧٠١٩٧٠١٨٤٠١٨٠٠١٦٣	
-٢٦٦٠٢٦٢٠٢٦٠٠٢٥٥		٢٣٠٠٢٢٩٠٢٢٧-٢٢٣٠٢١٦	
٢٧٩٠٢٧٦-٢٧٢٠٢٧٠		٠٢٤٣-٢٣٩٠٢٣٦-٢٣٤	
٢١	مقاتل ، محمد بن	٢٧٢٠٢٥٢-٢٥٠٠٢٤٩	
٤٢	مقاتل البلخي	١٩١	مصمودة ، قبيلة
١٧٢٠٩٢	« مقامات الحريري »	٢٤٣٠٢٢٨٠١٤١	مصياد
١٠١٠٨٨٠٨٦٠٧٩-٧٧	المقتدر	١٧٣	المظفر ، يحيى بن
٨٧	المقتدر ، احمد بن	٢٧٩	المظفري ، مبارز الدين
٨٠	المقتدر ، أم	١٧٣	معافي ، المقدم بن
١٣٩	المقتدي	٧٠	معاوية (الخليفة)
١١٧	المقديسي	٦٢٠٥٥٠٥٤	المعتز (الخليفة)
٢٥١٠٢٣٥	المقطم	٧٧٠٧٦	المعتز ، عبد الله بن
٠٣١٠١٧-١٥	المقفع ، عبد الله بن	١٢٨٠٨٤٠٥٣٠٤٦-٤٤	المعتزلة
١٣٣٠١٢٢٠١١٥		٧٠٠٦٢٠٥٢٠٤٩-٤٦٠٣٧	المعتصم
٣٥٠١٣٠١٢	المقنع (الذهبي)	١٨٧	المعتصم (صاحب أمرية)
٨٧	مقلبة ، ابن	١٩٩	المعتصم ، يحيى
٨٧٠٧٦٠٦٧	المكتفي (الخليفة)	٠٦٧٠٦٦٠٦١	المعتضد (العباسي)
٠٧٩٠٧٧٠٧٥٠٧١٠٥٨٠٥٥٠٢٥	مكة	٧٩٠٧٧٠٧٢	
٢١٠٢٠٩٠٢٠٣٠١٨٢٠١٠٠		٦٥٠٥٧	المعتد (العباسي)
٢٠٠١١٨٩	مكناسة	٦٣	المعتد ، جعفر بن
١٢٧	ملاز كرد	١٧٣	المعتد ، مظفر بن
١٢٠	ملتان	١٧١	المعري ، ابو العلاء
١٠٧	الملك الأفضل	١٦٣٠١٠٤٠١٠٣	المعز لدين الله

٢٦٠، ٢٥٩	منكلي	١٢٦، ٩٥	الملك الرحيم
٣٩	منكه	٢٤٥	الملك السعيد
٢٧٠	منكو	١٣١، ١٢٨، ١٢٧	ملكشاه
٦١	المنبعة	١٣٩، ١٣٧، ١٣٦	
٦٣، ٥٥	المهتدي (ابن الواثق)	١٠٧	الملك الصالح
١٧، ١٤، ١٢، ٩	المهدي (الخليفة)	٢٠٠	ملوية ، وادي
٢٩، ٢٥		٢٧٢، ٢٥١-٢٤١، ٢١٦	المهاليك
٧٦، ٣٦-٣٤	المهدي ، ابراهيم بن	٢٧٦، ٢٧٣	
١٩٣	المهدي (ابن تومرت)	١٦٣	مناد ، بلكين بن
١٦٧	المهدي ، محمد الثاني	١٦٣	مناد ، زيري بن
٢٢٨، ١٩٢، ١٣٧، ٧٢	المهدي المنتظر	١٠٤	« المناظر » ، كتاب
٣٤	المهدي ، المنصور بن	٩١	منبج
١٩٨، ١٩٣، ١٨٥، ١٠٠، ١٠٠	المهدية	١٧٦	منت ليشم
٢٦٧	مهران ، نهر	٥٤	المنصر
٤٧	الموالي	١٥٠	منذر ، الأمير
٢٠٣-١٩١، ١٨٩	الموحدون	١٨، ١٦-٥	المنصور ، ابو جعفر
٣٥، ٣٤	موسى الرضا ، علي بن	٤٥، ٣٩، ٣٢، ٣٠، ١٩	
١٤، ٧	موسى ، عيسى بن	١٠١	المنصور ، ابو طاهر اسماعيل
١٤٩	موسى المولد	-١٦٣، ١٥٧	المنصور ، الحاحب
٨٦، ٦٦، ٦٥، ١٩، ١٧	الموصل	١٧٦، ١٧٣، ١٧٠، ١٦٧	
٢١٨، ٢٠٩، ١٢٦، ٨٩، ٨٨		١٢٣، ١١٦	منصور ، نوح بن
٢٢٩، ٢٢٧، ٢٢٦، ٢١٩		٢٤٠	المنصور ، نور الدين علي
١٤٨، ٢٥	الموصلي ، اسحق	١٠٣	المنصورية
-٦٤، ٦١-٥٩، ٥٧	الموفق بالله	٢٦٧، ٢٦٣، ٢٦١، ١١٠	منغوليا
٧٢، ٦٦		٢٦٩	
٦٦، ٦١	الموفق ، احمد بن	٢٣٣	منقذ ، أسامة بن
٦١	الموقفية	١٤٣	المنكب ، مرسي
٢٧٧	مولر (الألماني)	٢٦٦	منسكبرتي ، جلال الدين

١١٣	نصر بن احمد	٢٣١	مونتفرا ، كونراد دي
٢١١،٢٠٢	نصر ، بنو	١٢٧	ميخائيل السابع
١١٥،١١٤	نصر الثاني	١٨٩،١٨٠	ميمون ، ابن
٢٠١	نصر ، محمد بن يوسف ... ابن	٢٧١	ميمون ، حصن
٢٠١	النصرية (الدولة)	١٩٨،١٩٤،١٧٨	ميورقة
١٣٤	نصيبين	٢٧١،٢٦٠-٢٥٨	الناصر (العباسي)
٢٢٨،١٤١	النصيرية ، جبل	٨٩	ناصر الدولة
١٣٥،١٢٩-١٢٧	نظام الملك	٢٣٨	الناصر ، داود بن المعظم
١٩٠،١٣٩،١٣٧		١٩٨،١٩٧	الناصر ، محمد
١٣٠	نظام الملك ، فخر الملك بن	٢٤٨	الناصر ، الملك
١٩١،١٢٨	النظامية	١٩٨	الناصر ، يوسف بن
١٧٩	نغزلة ، اسماعيل بن	٢٧٢،٢٣٨	الناصرية
٩٦	نفوسة ، جبل	٩٦	نافع ، عقبة بن
١٩٢،١٨٢	نقيس ، نهر	٢٧٦،٢٦٤،٢٦٣	النابمان ، قبيلة
٩٠،٢٢	نقفور	١٦٦،١٥٤،١٥٢،١٤٩	نبرة (نافار)
٧٦،٢٤	نواس ، أبو	٢٢٨	النجاحية ، السالة
٢٤٣	النوبة	٧٢	نجران
١٨	نوبهار	١٣٧	النزارية
١١٥	نوح ، منصور بن	٩٨	« نزهة المشتاق »
١١٤	نوح الاول	٢٧٦،٢٦١،١١٢	النساطرة
٢٢٧-٢١٩	نور الدين زنكي	٢٦٨	النسوي
٢٣٣ ، ٢٣٢		٢٨١	« نشيد الانشاد »
١٤٨،١٠٨،٩٨	النورمانديون	١٤٢،١١٢،١٠٤،٥٣	النصارى
٢٣٧،١٩٤،١٩٣		١٥٤،١٥٢-١٥٠،١٤٨-١٤٥	
٢٧٤	نوروز ، الأمير	٢١٨،١٦٨،١٦٧،١٦٥،١٦٢	
١٢٨،١٢٥،٦٠،٥٩	نيسابور	٢٣٨،٢٣٤،٢٣٢،٢٣١،٢٢٠	
٢٦٦،١٣٠		٢٧٤،٢٧٣،٢٤٠	
٢٤١،١٠٦،١٠٣	النيل	٢٥٥،١٨٠،٤٢	النصرية

٥٤٠٥٢	وصيف	١٩٠١٧	الهادي (الخليفة)
١٦٧	واضح	٧٢٠٧١	الهادي ، الأمام (الرسي)
٣١٤٣٠	الواقدي	٧٥	مجر
١٧١	ولادة بنت المسكتفي	٢٧٦٠٢٥٧٠٢٥٦٠١١٣٠٥٨	هراة
٢٣	الوليد الثاني	٣٤٠٣٣	هرمة
٢٣١	وليم النورماندي	٨	الهاشمية
٢٤٨٠٤٤	الوهابية	٢٢	هرقة
١٩٣	وهران	١٥٦٠١٤٥	هشام الاول
٦٢	يارجوخ	١٦٧	هشام الثاني
٢١٧	ياغى سيان	١٦٩٠١٦٨	هشام الثالث
٢٤٤٠٢٣٨	يافا	٧٥	الهفوف
٨٧	ياقوت ، المظفر بن	٢٤٥٠١٨٤	هلال ، بنو
٨٧٠٨٦	ياقوت ، محمد بن	٢٥٦	هلمند ، وادي
١٤٧	يحيى ، يحيى بن	١١٦٠٦٩	الهمداني ، الحسن
١٠١	يزيد ، أبو	١٢٦٠٩٣٠٦	همدان
٧٢	اليعفرية (الدولة)	١٣٤	الهمداني ، بديع الزمان
٥٦٦	يعقوب ، القديس	١١٨٠١١٧٠٨٥٠٣٠٠١٥	الهند
١٩٧٠١٩٤	يعقوب ، المنصور	٢٥٤٠٢١٠٠١٢١٠١٢٠	
١٩٨	يعقوب المنصور ، عبد الواحد أخو	٢٦٨٠٢٦٧٠٢٥٨٠٢٥٦	
١٩٧٠١٩٤	يعقوب ، يوسف ابو	٢٠١	هود ، ابن
٢٣	العامية	٢٧٣-٢٧٠	هولاكو
١٤٤٠١٤٣	العامية	٢٦١	الهون
٢٣٦٠٤٠	اليمن	١٠٤	الهيم ، الحسن بن
١٢٢	« اليميني »	٥٢	الوائق بالله
١٢٦	ينال ، ابراهيم بن	٥٢	الوائق ، محمد بن
١٧٩	« ينبوع الحياة »	١٤٦	الوادي الكبير
٢٥٥	ينيسي ، نهر	٦٢٠٦١٠٥٥٠٤٧	واسط
١٥٥٣٠١٠٥٠١٠٤٠٤٢	اليهود	١٢٧٠٩٤٠٧٣	
٢٧٤٠١٧٩٠١٧٨٠١٧٢			

١٩٣	يوسف ، علي بن	١٧٩	يوحنا الأسباني
١٤٦	يوسف ، عمرو بن	١٤٣	يوسف (أمير برشلونة)
٢٠٤	يوسف ، محمد بن السلطان	٢٠٢، ٢٠٠	يوسف ، أبو
١٢٣	« يوسف وزليخا »	١٢	يوسف ، أبو (القاضي)
١٤٩، ١٤٧	يولوجيوس (الراهب)	٢٣٩	يوسف الثاني
٣٨	اليونان	٤٠، ١٥	يوسف ، الحجاج بن
٢٦١	يسوكاي	٢٧٧	يوسف خاص حاجب

محتويات الكتاب

مقدمة

٣

العباسيون الأول

٥١ - ٥

- لمخاض العلويين ٦ - بناء بغداد ٨ - الادارة ٩ - الثورات في فارس :
المنع ١٢ - المهدي بحارب الزنادقة ١٥ - بين موسى وهرون ١٧ - الرشيد
والبرامكة ١٨ - الأغالبة في شمالي إفريقيا ٢١ - الشعر في العراق ٢٢ -
النحو وفقه اللغة ٢٦ - التاريخ ٢٨ - الصراع بين الأمين والمأمون ٣٢ -
الدولة الطاهرية ٣٣ - النهضة العلمية في عصر المأمون ٣٨ - الحديث والفقه
٤١ - المناظرات الكلامية ٤٤ - المعتصم وحرسه ٤٦ - بناء سامرا ٤٩

انحلال الخلافة ونشوء الدويلات

١٠٨ - ٥٢

- المتوكل وابتناؤه ٥٢ - ثورة الزنج في العراق ٥٥ - بين الصفارية والطاهرية
في إيران ٥٧ - الطولونيون في مصر ٦٢ - جامع ابن طولون ٦٨ - ظهور
الزيدية في جنوبي بلاد العرب ٦٩ - القرامطة ٧٢ - الصراع على الخلافة :
عبد الله بن المعتز ٧٦ - مالية الدولة في عهد المعتز ٧٨ - الصوفية والصوفيون
٨٢ - إمرة الأمراء ٨٦ - بنو حمدان في الموصل وحلب ٨٨ - الحياة الفكرية
في ظل سيف الدولة ٩١ - البويهيون في فارس والعراق ٩٣ - الأغالبة في
إفريقية وصقلية ٩٥ - الأدارسة في مراكش ٩٨ - الفاطميون في شمالي إفريقيا
ومصر ٩٩ - الحاكم بأمر الله : الدور ١٠٣ - نهاية الفاطميين ١٠٦

الفرس والآتراك

١٠٩ - ١٤١

أقدم الممالك التركية في آسية الوسطى وآسية الشرقية ١١٠ - السامانية في خراسان ١١٣ - الشعر الفارسي ١١٤ - نشأة علم الجغرافية ١١٦ - انهيار الدولة السامانية ١١٧ - محمود الغزنوي ١١٩ - الفتح في الهند ١٢٠ - البيروني ١٢٠ - الفردوسي ١٢٢ - السلاجقة ١٢٤ - ملكشاه والوزير نظام الملك ١٢٧ - الغزالي ١٢٩ - عمر الخيام ١٣٠ - القصص والمقامات ١٣١ - الادارة في امبراطورية السلاجقة ١٣٥ - الحشاشون ١٣٦ - في ظل بركيارق واخيه محمد ١٣٩

الأسلام في الاندلس وشمالى افريقية

١٤٢ - ٢١٥

النضال ضد النصارى في شمالي اسبانية ١٤٥ - النصارى والمولودون يثيرون الاضطرابات ١٤٧ - عصر الزهو في ظل عبد الرحمن الثالث ١٥١ - جامع قرطبة الكبير ١٥٥ - الزهراء ١٥٨ - الحياة الفكرية في الأندلس ١٥٩ - الحكم الثاني ١٦٢ - الحاجب المنصور ١٦٣ - الدولة العامرية تستمر ١٦٦ - الصراع بين المهدي وسليمان ١٦٧ - ملوك الصوائف ١٦٨ - تطور الحركة الأدبية ١٧٠ - الموشحات والأزجال ١٧٣ - التصنيف في الحب ١٧٥ - الحركة العلمية ١٧٦ - اليهود في الاندلس ١٧٨ - البربر في شمالي افريقية ١٨٠ - المرابطون ١٨٢ - المرابطون في الاندلس ١٨٥ - الموحدون ١٨٩ - ابن طفيل وابن رشد ١٩٤ - الضعف بعد القوة ١٩٧ - بنو الأحمر ٢٠١ - محي الدين ٢٠٢ - ابن الخطيب وابن خلدون ٢٠٤ - ابن جبير وابن بطوطة ٢٠٩ - الحمراء ٢١١ - سقوط بني الأحمر واخراج المسلمين من اسبانية ٢١٥

الشرق الأدنى في عهد الصليبيين وقيام دولة المماليك بمصر ٢١٦ - ٢٥٢

الصليبيون في سورية ٢١٧ - آل زنكي في الموصل ودمشق ٢١٨ - الدولة الايوبية ٢٢٢ - صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر ٢٢٥ - حطين وفتح القدس ٢٢٩ - آثار صلاح الدين العمرانية ٢٣٤ - الايوبيون في سورية ومصر ٢٣٥ - فردريك الثاني في فلسطين ٢٣٦ - لويز التاسع في دمياط : شجرة الدر ٢٣٨ - المماليك البحرية : معركة عين جالوت ٢٤١ -

هدد الظاهر بيبرس ٢٤٣ - الممالك البرجية ٢٤٥ - الحياة الفكرية في عصر
الممالك : ابن تيمية ٢٤٧ - الحياة الاقتصادية ٢٤٩ - فن العمارة ٢٥١

الأتراك والمغول : انقضاء الخلافة ٢٥٣ - ٢٨٢

شاهات خوارزم ٢٥٤ - الدولة الغورية ٢٥٦ - في عهد الناصر العباسي
٢٥٨ - اولية المغول : جنكيز خان يفتح بلاد الصين ٢٦٠ - فتح فارس
٢٦٤ - نهاية الدولة الخوارزمية ٢٦٦ - خلفاء جنكيز ٢٦٨ - هولاءكو
يزيل الخلافة العباسية من بغداد ٢٧١ - غازان ووزيره رشيد الدين ٢٧٣ -
ملائع الأدب التركي ٢٧٦ - شاعرا الفرس سعدي وحافظ ٢٧٨ -
جلال الدين الرومي ٢٨١

فهرست الاعلام ٢٨٣ - ٣١٢

تصويب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
Rashid	Rashib	١٩	١٨
وليدي	فالدي	٢١	٤٠
الخوارزمي	الخوارزمي	١	٤١
Sachau	Sachan	٢١	١٢١
الْيَنِّيْسِي	الْيَنِّيْسِي	١٠	٢٥٥

يصدر قريباً

روح الحضارة العربية

المستشرق الكبير

ه. ه. شيدر

ترجمه عن الألمانية

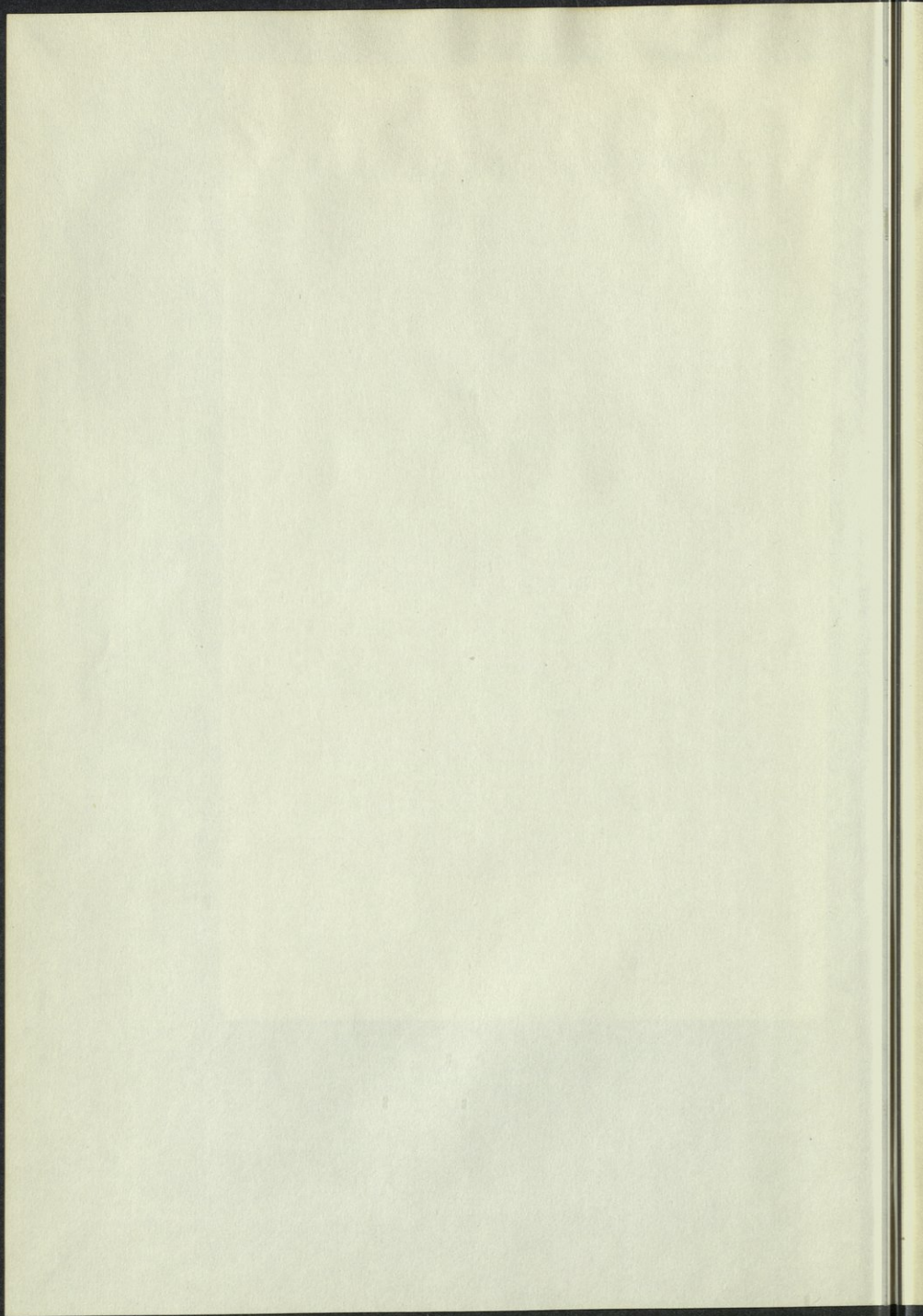
الدكتور عبد الرحمن بدوي

اعلام الحرية

سلسلة أدب ورواية وتاريخ
للاستاذ قدري قلعجي

ظهر منها :

- ١ - سعد زغول : رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي
[الطبعة الثانية]
 - ٢ - إبراهيم لنگولن : محرر العبيد وموحد الولايات الاميركية
 - ٣ - مدحت باشا : ابو الدستور العثماني ومخالف السلاطين
 - ٤ - روبسبير : بطل الثورة الفرنسية
 - ٥ - جمال الدين الافغاني : حكيم الشرق
 - ٦ - شوبان : نشيد الحرية الوطنية
 - ٧ - صلاح الدين الايوبي : رجل غير وجه التاريخ
 - ٨ - كرومويل : بطل الثورة الانكليزية
 - ٩ - أبو ذر الغفاري : أول ثائر في الاسلام
 - ١٠ - ديموستين : بطل أثينا
 - ١١ - غاندي : أبو الهند
 - ١٢ - محمد عبده : بطل الثورة الفكرية في الاسلام
 - ١٣ - سون يات سن : بطل الثورة الصينية
- ثمان النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ١٧٠ مليماً أو ملاً أو فلساً



DATE DUE

~~JAFET LIB.~~

3 MAY 1990

~~J. B.~~

3 MAR 1989

A U B LIBRARY

A U B LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00272301



A. U. S.

IBRARY

